من سلسلة تاريخ الحركة القومية



عصر اسماعيل

بقلم

عبد الرحمن الرافعي بك

الجزء الأول

ثمن الكتاب

(الجزء الاول) ويشتمل على عهد عباس وسعيد وأوائل عهد اسماعيل

(الجزء الثانى) وفيه ختام الكلام عن عصر اسماعيل

الطبعة الاولى ١٣٥١ هـ — ١٩٣٢ م

مطبعة النهضة بشارع عبد العزيز بمصر
خلف عمر افندى



مقدمة الكتاب

بهذا الكتاب ندخل فى غمار العصر الحديث من تاريخ الحركة القومية ، إذ كان عهد الخديوى اسماعيل أكثر العهود صلة بعصرنا الحاضر ، وأقربها منا أثراً

أخرجنا قبل الآن ثلاثة أجزاء من هذا التاريخ ، بسطنا فى الأول منها منشأ الحركة القومية فى تاريخ مصر الحديث ، وكشفنا عن الدور الاول من أدوارها وهو عصر المقاومة الاهلية التى اعترضت الحملة الفرنسية فى مصر ، واشتمل الثانى على تتمة المقاومة الشعبية ووقائعها الى انتهاء الحملة الفرنسية ، وتطور الحياة القومية من بعد ذلك الى ارتقاء محمد على أريكة مصر بارادة الشعب ، ثم أفردنا الجزء الثالث لعصر محمد على ، وفصّلنا الكلام فيه عن ظهور الدولة المصرية الحديثة ، وتحقيق استقلالها ، وتأليف وحدتها القومية بفتح السودان وضمه الى حظيرة الوطن ، وما تمّ فى ذلك العصر من جلائل الاعمال.

وكتابنا اليوم يتضمن الحديث عن خلفاء محمد على و « عصر اسماعيل » ، وقد جعلناه فى جزأين ، كتابا مستقلا ، لاشتماله على صفحة قائمة بذاتها فى تاريخ مصر القومى ، وسنحذو هذا الحذو فيما نخرجه بمشيئة الله من سلسلة تاريخ الحركة القومية ، فنجعل

لكل عهد منها كتابا مجتمعا ، فالكتاب الآتى فى (الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى) ، والذى يليه عن (مصطفى كامل باشا) ، وهلم جرًّا

***

إن الحقبة من الزمن التى تولى الحكم فيها عباس الأول ، ثم سعيد ، ثم اسماعيل هى صفحة هامة من تاريخ مصر القومى ، لانها بمثابة دور الانتقال من عصر محمد على الى الثورة العرابية .

انقضى عصر محمد على وابراهيم بعد ان توطدت دعائم الدولة المصرية المستقلة ، وتأسس الجيش المصرى ، والاسطول المصرى ، والثقافة المصرية ، ووُضعت قواعد النهضة العلمية والاقتصادية فى البلاد .

ثم جاء عهد عباس الأول ، ويصح اعتباره عهد الرجعية والنَّكسة ، لان فيه وقفت حركة التقدم وفترت النهضة التى ظهرت على عهد محمد على

ثم كان عهد سعيد ، ويمتاز بظهور نهضة وطنية جديرة بأن تعد من أدوار الحركة القومية ، ترجع الى نزعة سعيد الوطنية ، وميله الى خير المصريين ورفاهيتهم ، والعمل على تحريرهم من نير المظالم ، وبث روح القومية فى نفوسهم ، والنهوض بهم للمناصب العالية فى الجيش والادارة ، ولكن الى جانب هذه المحامد بدأت على عهده ثغرات التدخل الاجنبى فى شؤون مصر ، باقراره انشاء قناة السويس على يد شركة أوروبية ، مخالفا فى ذلك تعاليم ابيه العظيم ، وافتتاحه عهد القروض الاجنبية التى جرت الكوارث على البلاد ، وكانت سلاسلَها وأغلالَها

ثم جاء عهد اسماعيل ، وهو عصر طويل ، يتمثل فيه تاريخ مصر القومى والسياسى فى إبّان النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، ويُعد عصراً هاماً ، له أثره النافع ، كما له أثره الضار ، فى تطور الحركة القومية ، ذلك لما تفتحت فيه من آمال ، وما قام فيه من نهضة ورقى وعمران ، ثم ما تخلله واقترن به من أخطاء وأرزاء أدت

الى التدخل الاجنبي ، واذا كانت مصر تشعر الى اليوم بنتائج النهضة التى قامت فى ذلك العهد ، وتجنى من ثمارها ،وتلمس آثارها بيدها ، فانها أيضا تعانى عواقب الاغلاط التى وقعت فيه، وتدفع عنها غاليا، من مالها وحقوقها ومرافقها ،هذا إلى ان معظم القيود والنظم التى تقررت فى ذلك العصر لا تزال قائمة الى اليوم، فالتشريع المختلط، وتغلغل الاجانب فى مرافق مصر ، والديون التى كبلت البلاد حكومةً وشعباً ، والتدخل الاجنبي فى شؤون مصر المالية والسياسية ، كل هذه القيود ترجع الى عهد اسماعيل .

***

كان هذا العهد عصر تقدم ونهضة ، إذ نال الخديوى اسماعيل من تركيا أقصى ما يمكن من الحقوق والمزايا توصلا بمصر الى الاستقلال التام ، وأكمل فتح السودان، ومدّ حدود الدولة المصرية الى منابع النيل ، وشواطئ المحيط الهندى ، أى الى تخومها الطبيعية ، فكان عمله من هذه الناحية عظما مجيداً ، وعنى بتنظيم الجيش وترقية التعليم الحربى ، وانهاض البحرية المصرية ، واقامة أعمال العمران فى مختلف النواحى ، وبعثَ النهضة العلمية والفكرية من مرقدها ، بانشاء المدارس والمعاهد ، وتأسيس الجمعيات العلمية ، وتشجيع التأليف والصحافة ، ورعاية العلوم والآداب والفنون ، وأسس نوعا من الحياة النيابية بانشائه مجلسا محدود السلطة يعرف بمجلس شورى النواب ، كان له الاثر البالغ فى تطور الحركة الوطنية .

ففى عصر اسماعيل حدثت نهضة زاهرة،يزدان بها تاريخه ، ولكن هذه النهضة قد تعثرت فى سيرها لما شابها من إسراف الخديوى وبذخه ، وركونه الى الاوروبيين وشديد ثقته بهم ، واعتماده عليهم ، فأدت هذه العوامل مجتمعة الى تورطه فى القروض الباهظة التى ناءت البلاد بحملها ، من حيث لم تكن فى حاجة اليها ، فكانت الذريعة التى توسلت بها الدول الاجنبية لتعبث بحقوق مصر الخالدة ، فوقع هذا العبث ، وتعددت مظاهره ، فمن انشاء صندوق الدين ، الى فَرْض الرقابة الثنائية

على مالية مصر ، الى تأليف لجنة تحقيق أجنبية لفحص شؤون الحكومة المالية والادارية ، الى تعيين وزيرين أوروبيين فى الوزارة المصرية ، الى تغلغل نفوذ الاجانب عامة فى مرافق البلاد ، فهذه الاحداث الجسام قد تصدع لها صرح الاستقلال الذى نالته مصر بجهودها وتضحياتها العظيمة من عهد محمد على

***

أثارت هذه الكوارث سخط الاحرار من ذوى الرأى والمكانة فى البلاد ، فظهرت فى صفوفهم حركة وطنية تردد صداها فى الصحف وفى مجلس شورى النواب ، واتجهت غايتها الى انقاذ مصر من التدخل الاجنبى ، وتقرير النظام الدستورى أساسا للحكم فيها ، وتبادل زعماؤها الرأى فى اجتماعات عقدوها بدار السيد على البكرى ومنزل اسماعيل راغب باشا ، واجتمعت كلمتهم فى (الجمعية الوطنية) على المطالبة بتأليف وزارة وطنية خالصة للمصريين ، خالية من الوزراء الاوروبيين ، وتقرير مبدأ المسئولية الوزارية أمام مجلس شورى النواب ، فاستجاب الخديوى اسماعيل لمطالب الاحرار ، وعهد الى شريف باشا الوزير المشهور تأليف الوزارة الوطنية ، على أن تكون خالية من العنصر الأوروبى ، مسئولة أمام مجلس الامة (وثيقة ٧ ابريل سنة ١٨٧٩) ، فألف شريف باشا الوزارة على هذا الاساس ، فكانت أول وزارة مسئولة أنجبتها الحركة الوطنية فى تاريخ مصر الحديث ، وكان من أعظم أعمالها وأجلها شأنا انها وضعت دستوراً على أحدث المبادئ العصرية ، وقدمته الى مجلس شورى النواب لينال اقراره ، وخوّلت ذلك المجلس سلطة « جمعية تأسيسية » تملك حق إقرار الدستور وتعديله

على أن الدول الاستعمارية لم تنظر بعين الرضا الى ظهور هذه الحركة واطّرادها ، واشتداد ساعدها ، بجمع كلمة الامة حولها ، ومناصرة الخديوى لها ، فسعت لاحباطها ، وبدأت مؤامرتها بالاعتراض على أول مشروع مالى للوزارة الوطنية ، ثم عملت على أن تخلع الخديوى ، وكانت تركيا من الضعف وسوء النية نحو مصر بحيث أجابت

طلب الدول ، وأعلنت خلع اسماعيل واسناد منصب الخديوية الى توفيق باشا (يونيه سنة ١٨٧٩)

ثم استمرت المصادمة بين الحركة القومية والمطامع الاوروبية ، الى أن بلغت طوراً جديداً ، هو المعروف بالثورة العرابية ، فالثورة من هذه الناحية تعد رَدّ فعل للتدخل الاجنبي الذى وقع فى عهد اسماعيل ، ومطالبها الاساسية هى فى جوهرها المطالب التى اجتمعت عليها كلمة الاحرارفى (الجمعية الوطنية) ، والدستور االذى تمخضت عنه الثورة سنة ١٨٨٢ مقتبسٌ من دستور سنة ١٨٧٩

***

فالى عهد اسماعيل ترجع إذن مقدمات الثورة العرابية ، وهى تطور للحركة الوطنية التى ظهرت فى ذلك العهد ، وعندىأن هذه الحركة كانت أسلم عاقبةً وأدعى الى الاعجاب والتقدير من الثورة العرابية ، ذلكأن الحركة الأولى كانقوامها نهضة الافكار والآراء ، ونضج العقول والقرائح ، وتبادل الرأى والمشورة ، على حين جاءت الحركة العرابية وقوامها الاعتداد بقوة الجيش وحسْب ، فتضاءل العامل الفكرى والمعنوى ، فى طورها الاخير ، وخَفَتَ صوت الحكمة والتعقل ، الى جانب صوت السيف والمدفع ، ومن ثَمّ تنكبت الحركة سبيل الرشاد ، وركبت متن الشطط ، وانفسح المجال للدسائس الاجنبية تنصب أشراكها ، والمطامع الاستعمارية تدبّر مكايدها ، حتى انتهت الثورة بالاحتلال الانجليزى الذى مازلنا نعانيه الى اليوم (سنة ١٩٣٢)

فلبيان التطورات التى تعاقبت على البلاد فى عهد خلفاء محمد على إلى انتهاء عصر اسماعيل ، قد خصصتُ هذا الكتاب ، جاعلا وجهتى السعى الى استخلاص الحقائق والعظات ، من الحوادث وملابساتها ، لنتعرف الحاضر على ضوء الماضى ، ونصل الاسباب بمسبباتها ، والنتائج بمقدماتها ، عسى ان يكون لنا فى ذلك ما نسترشد به فى حياتنا القومية ، أو نستظهر به على ما نحن بسبيله من جهادٍ فى سبيل الوطن .

أسأل الله أن يعصمنا من الزلل ، ويلهمنا السداد فى القول والعمل ، ويوفقنا الى ما فيه تحقيق الأمل ، انه نعم المولى ونعم النصير

للذكرى

اليومَ ختام العام الخامس لوفاة فقيد الوطن المرحوم امين بك الرافعى

اليومَ يطوى الزمان خمس سنوات على احتجابك عنا يا أمين ! ، وذكراك باقية فى النفوس ، ماثلة فى الاذهان ، يجددها مر الليالى وكر الاعوام

فالى روحك الطاهرة ، الثاوية فى دار الابدية ، أبعث بتحيات الذكرى ، يرسلها القلب ، وتفيض بها المشاعر ، ويحملها الرجاء إلى عالم الارواح

وإلى بارئ تلك النفس الكريمة ، أتوجه بالدعاء أن يسبغ عليها آية السكينة والطمأنينة ، فيا نفس امين ! ، اسكنى الى جوار ربك راضية مرضية ، ويا روح امين ! ، سلامٌ ، وريحانٌ ، وجنةُ نعيم ؟

٢٩ ديسمبر سنة ١٩٣٢ — عبد الرحمن الرافعى

الفصل الاول

الرجعية فى عهد عباس باشا الأول

١٨٤٨ — ١٨٥٤

يصح اعتبار عصر عباس باشا الأول عهد رجعية ، ففيه وقفت حركة التقدم والنهضة التى ظهرت فى عهد محمد على

ولى عباس حلمى الحكم بعد وفاة ابراهيم ، وفى حياة محمد على باشا ، وهو ابن طوسون بن محمد على ، لم يرث عن جده مواهبه وعبقريته ، ولم يشبه عمه ابراهيم فى عظمته و بطولته ، بل كان قبل ولايته الحكم و بعد أن تولاه خلواً من المزايا والصفات التى تجعل منه ملكا عظيما يضطلع باعباء الحكم و يسلك بالبلاد سبيل التقدم والنهضة

نشأة عباس

بذل محمد على شيئا من العناية فى تعويد عباس ولاية الحكم إذ كان أكبر أفراد الاسرة العلوية سنا ، و بالتالى أحقهم بولاية الحكم بعد ابراهيم باشا ، فعهد اليه بالمناصب الادارية والحربية ، فتقلد من المناصب الادارية منصب مدير الغربية ، ثم منصب الكتخدائية التى كانت بمنزلة رآسة النظار ، ولم يكن فى ادارته مثالا للحاكم البار ، بل كان له من التصرفات ما ينم عن القسوة ، وكان يبلغ جده نبأ بعض هذه التصرفات ، فينهاه عنها ، و يحذره من عواقبها ، ولكن طبيعته كانت تتغلب على نصائح جده وأوامره

وأما من الوجهة الحربية فقد اشترك مع ابراهيم باشا فى الحرب السورية ، وقاد فيها أحد الفيالق ، لكنه لم يتميز فيها بعمل يدل على البطولة أو الكفاءة الممتازة

و بالجملة فلم تكن له ميزة تلفت النظر ، سوى أنه حفيد رجل عظيم أسس ملكا كبيراً ، فصار اليه هذا الملك ، دون أن تؤول اليه مواهب مؤسسه ، فكان

شأنه شأن الوارث لتركة ضخمة جمعها مورثه بكفاءته وحسن تدبيره وتركها لمن هو خلو من المواهب والمزايا

وكان ابراهيم باشا لا يرضيه من عباس سلوكه وميله الى القسوة ، وكثيرا ما نقم عليه نزعته الى ارهاق الاهلين ، حتى اضطره الى الهجرة للحجاز ، وبقى هناك الى أن داهم الموت عمه العظيم

ولايته الحكم

كان عباس باشا متغيبا بالحجاز لما عاجلت المنية ابراهيم باشا ، فاستدعى الى مصر ليخلفه على دست الاحكام تنفيذا لنظام التوارث القديم الذى يجعل ولاية الحكم للارشد فالارشد من نسل محمد على ، وتولى الحكم فى ٢٤ نوفمبر سنة ١٨٤٨ (٢٧ ذى الحجة سنة ١٢٦٤ ﻫ)

أخلاقه

بقى عباس فى الحكم خمس سنوات ونصفا ، كان يَبْدُو فى خلالها غريب الاطوار ، شاذا فى حياته ، كثير التطيُّر ، فيه ميل الى القسوة ، سيء الظن بالناس ، ولهذا كان كثيراً ما يأوى الى العزلة ، ويحتجب بين جدران قصوره ، وكان يتخير لبنائها الجهات الموغلة فى الصحراء ، أو البعيدة عن الانس ، ففيما عدا سراى الخرنفش ، وسراى الحلمية بالقاهرة ، قد بنى قصرا فخما بالعباسية (التى سميت من ذلك الحين باسمه) ، وكانت اذ ذاك فى جوف الصحراء ، وقد شاهد المسيو فردينان دلسبس هذا القصر سنة ١٨٥٥ ، فراعته ضخامته ، وذكر أن نوافذه بلغت ٢٠٠٠ نافذة ، وهذا وحده يعطينا فكرة عن عظم القصر واتساعه ، فكأنه بنى لنفسه مدينة فى الصحراء ، وبنى قصراً آخر نائياً فى الدار البيضاء ، الواقعة بالجبل على طريق السويس المقفر ، ولا تزال آثاره باقية الى اليوم ، وقصرا بالعطف (ذكره علىّ باشا مبارك فى الخطط ج ٧ ص ٦٣) ، وقصرا فى بنها على ضفاف النيل بعيدا عن المدينة ، وهو الذى قتل فيه كما سيجىء بيانه .

وقد أساء الظن بأفراد أسرته ، وبكثير من رجالات محمد على وابراهيم، وخيل له الوهم أنهم يأتمرون به ، فأساء معاملتهم ، وخشى الكثيرون منهم على حياتهم ، فرحل بعضهم الى الاستانة والبعض الى أوروبا خوفا من بطشه ، واشتد العداء بين الفريقين طول مدة حكمه ، وبلغ به حقده على من يستهدفون لغضبه أنه حاول قتل عمته الاميرة نازلى هانم ، واشتدت العداوة بينهما حتى هاجرت الى الاستانة خوفا من بطشه

وسعى فى أن يغير نظام وراثة العرش ليجعل ابنه الهامى باشا وخليفته فى الحكم ، بدلا من سعيد باشا ، ولكنه لم يفلح فى مسعاه ، ونقم على سعيد باشا الذى كان بحكم سنه ولى العهد ، واتهمه بالتآمر عليه ، واشتدت بينهما العداوة حتى اضطره أن يلزم الاسكندرية وأقام هناك بسرايه (بالقبّارى)

وانتشرت الجاسوسية فى عهده انتشارا مخيفا ، فصار الرجل لا يأمن على نفسه من صاحبه وصديقه ، ومن يغضب عليه ينفيه الى السودان ويصادر أملاكه ، وكان نفى المغضوب عليهم الى أقاصى السودان من الأمور المألوفة فى ذلك العصر

وكان عباس مولعا بركوب الخيل والهجن، يقطع بها المسافات البعيدة فى الصحراء ، وله ولع شديد باقتناء الجياد الكريمة، يجلبها من مختلف البلاد ، ويعنى بتربيتها عناية كبرى ، ويبنى لها الاصطبلات الضخمة ، وينفق عليها بسخاء ، شأن هواة الخيل

أعماله

سياسته العامة

يختلف عهد عباس عن عصر محمد على ، فان حركة النهضة والتقدم والنشاط التى امتاز بها هذا العصر قد تراجعت كما قلنا فى عهد عباس ، وهناك ظاهرة أخرى للفرق بين العهدين ، ذلك أن محمد على كان يستعين بذوى العلم والخبرة من الفرنسيين فى معظم مشاريع الاصلاح ، لكن «عباس» لكونه لم يفكر فى تعهد

هذه الاصلاحات أقصى معظم هؤلاء الخبراء واستغنى عنهم ، وقد تضاءل النفوذ الفرنسى فى عهده ، ولم يعد الى الظهور الا فى عهد سعيد باشا ، ومن هنا نعرف سببا لتحامل كثير من المؤرخين والمؤلفين الفرنسيين على عباس ، فانه وان كانت أعماله لاتدعو الى الاطراء ، لكننا نعتقد أن أحكام الفرنسيين عليه لا تخلو من التحامل ، لتأثرهم من تضاؤل النفوذ الفرنسى فى عهده ، والفرنسيون لما اتصفوا به من الوطنية يكرهون كل ملك أو أمير يقترن عهده بتضاؤل النفوذ الفرنسى فى بلاده ، من أجل ذلك نراهم يكيلون المدح جزافا لسعيد باشا ، ونعتقد أن هذا راجع الى ميوله الفرنسية وعودة النفوذ الفرنسى الى مصر فى عهده ، على يد المسيو فرديناند دلسبس وأمثاله ممن اتخذهم سعيد بطانته وأولياءه

فعباس اذن قد أقصى عنه الخبراء من كبار الموظفين الفرنسيين ، فلم يعد لهم نفوذ لديه ، بل لم يكن يعاملهم معاملة عطف واحترام ، واستغنى عن خدمة بعضهم

وعلى العكس ، بدأ النفوذ الانجليزى يظهر فى عهده على يد المستر (مرى) القنصل البريطانى فى مصر وقتئذ ، فقد كان له عليه تأثير كبير ، وله عنده كلمة مسموعة

ولا يعرف السبب الحقيقى لهذه المنزلة ، سوى أنها نتيجة المصادفة ، فان الملوك والامراء المستبدين ليس لهم قاعدة مستقرة ، ولا تصدر أعمالهم عن برنامج أو تفكير ، بل يتبعون الهوى فى كثير من أعمالهم ، وقد يكون لكفاءة المستر مرى دخل فيما ناله عند عباس من النفوذ ، وقيل إنه كان يستعين به فى السعى لدى حكومة الاستانة بوساطة سفير انكلترا لتغيير نظام وراثة العرش كى يؤول الى ابنه الهامى ، وفى رواية أخرى انه كان يستعين به و بالحكومة الانجليزية ليمنع تدخل حكومة الاستانة فى شؤون مصر إذ كانت تبغى تطبيق القانون الاساسى المعروف بالتنظيمات على مصر

إصلاح الطريق بين القاهرة والسويس

ومهما يكن من السبب فالمستر مرى كان له أثر ظاهر فى اتجاه أفكار عباس ، ويتبين هذا النفوذ من أن أول أعماله بعد ولايته الحكم هواصلاح طريق القاهرة الى السويس ، ورصفه بالحجارة ، فجعله معبداً ، تسير فيه العربات بسهولة ، فهذه الفكرة وان كانت فى ذاتها فكرة عمرانية سديدة إلا أن الموعز بها هو المستر مرى ، وغرضه منها تسهيل سبيل المواصلات البرية الى الهند عن طريق مصر ، وسرعة نقل البريد البريطانى والسياح بين الهند وانجلترا

وكانت السياسة الأنجليزية ترمى الى تعبيد طريق المواصلات بين انجلترا والهند فى مصر بواسطة انشاء سكة حديدية ، تصل الاسكندرية بالقاهرة ، ومنها الى السويس ، وكانت تعارض فى أن تنشأ بمصر طريق بحرية للمواصلات ، ولذلك عارضت فى شق القناة البحرية فى برزخ السويس ، وحبذت مد السكة الحديدية بين الاسكندرية والسويس ، وحجتها أن شق القناة يسهل على الدول البحرية المنافسة لها فى الاستعمار طريق الوصول بسفنها الحربية الى البحر الاحمر ، ثم الى الهند ، فيتعرض سلطانها هنالك للخطر ، أما فرنسا فكانت على العكس تحبذ فتح القناة ، وتعارض فى مشروع السكة الحديدية ، لانه مشروع انجليزى

السكة الحديدية بين الاسكندرية والقاهرة

ولقد فازت السياسة الأنجليزية بضم عباس الى وجهة نظرها ، فتم على يده إصلاح طريق السويس ، ثم شرع فى مد السكة الحديدية من الاسكندرية الى القاهرة سنة ١٨٥٢ ، وعهد بتخطيط العمل الى المهندس الأنجليزى الشهير روبرت ستفنسن Stephenson ، يعاونه مهندسون مصريون ، لكن المهندسين المصريين هم الذين تم على أيديهم انشاء الخط كما يقول المسيو مريو (١) Merruau ، ومنهم من

---

(١) في كتابه (مصر الحديثة) ص ١٠٢ ، والمسيو مريو معاصر لعباس وسعيد واسماعيل .

صار لهم فيما بعد شأن كبير وتقلدوا كبرى المناصب مثل سلامه باشا ابراهيم ، وثاقب باشا . ومظهر باشا . وبهجت باشا . واستخدم عباس فى تعبيد الطريق وتركيب القضبان الجنود والبحارة المصريين ، وانشىء من سكة الحديد فى عهده الخط الواصل بين الاسكندرية وكفر الزيات (سنة ١٨٥٤) ، وتم الخط بأكمله فى عهد سعيد ، ويئس المسيو فردينان دلسبس من نجاح مشروع شق القناة ، ولم يعاوده الأمل الا بعد أن تولى سعيد باشا الحكم كما سيجىء بيانه

واذا نحن صرفنا النظر عن التزاحم السياسى بين انجلترا وفرنسا ، فمما لا شك فيه ، من وجهة النظر المصرية ، أن مشروع السكة الحديدية بين الاسكندرية والقاهرة وبين هذه والسويس أنفع للبلاد ، وأبعد عن الضرر من مشروع القناة ، فان مصر لم تستفد شيئا من فتح قناة السويس ، بل كانت القناة شؤما عليها كما سنفصله فى موضعه ، ولان السكة الحديدية قد نهضت بعمران البلاد التى مرت بها ، بخلاف القناة

فاصلاح طريق السويس ، والشروع فى مد السكة الحديدية بين الاسكندرية والقاهرة ، هما من أول مافكر فيه عباس ، وهما من المشاريع الجليلة ، ولعل هذا هو العمل الوحيد الانشائى الذى يذكر لعباس ، لانه لا يخفى أن السكك الحديدية هى من أعظم دعائم العمران والتقدم ، وكانت هذه السكة أول خط حديدى أنشىء فى مصر ، بل فى الشرق قاطبة ، فمصر قد سبقت دول الشرق فى أعمال العمران ، ولا يخفى أن تركيا وهى أقوى دول الشرق وقتئذ تأخرت عن مصر فى مد السكك الحديدية واستخدام القطارات البخارية ، وانك لتلمح تقدم مصر وسبقها تركيا فى ميادين العمران حينما زار السلطان عبد العزيز مصر سنة ١٨٦٣ ، فانه لما ركب القطار من الاسكندرية الى القاهرة تملكه العجب لانه لم يكن رأى القطارات البخارية فى حياته من قبل (١)

(١) أنظر كتاب «سياحة السلطان عبد العزيز من الاستانة الى القاهرة» للمسيو جاردى Gardey ص ٤٩ و٥٣ و ٦٠

ضبط الأمن

وعنى عباس باستتباب الأمن ، فضرب على أيدى الاشقياء وقطاع الطرق ، وطاردهم ، وعاملهم بالقسوة ، فخشوا بأسه ، وانقطع دابرهم ، وأمن الناس شرورهم ، فاستتب الأمن فى عهده ، وهذا من خير أعماله

المدارس والمصانع

أما المدارس ، فقد ساءت حالتها فى عهده ، فألغى معظمها (بعد الذى عطل منها فى أواخر عهد محمد على) ، واقفلت أبوابها بين عالية وثانوية وابتدائية ، ولم يبق منها إلا النزر اليسير ، وكأنما كان عباس يكره العلم والتعليم ، فانه لم يكتف باغلاق معظم المدارس ، بل أنفذ الى السودان طائفة من كبار علماء مصر فى ذلك العهد ، مثل رفاعة بك رافع ، ومحمد بيومى افندى ، ودقلة افندى ، بحجة انشاء مدرسة ابتدائيـة بالخرطوم ، والسبب الحقيقى هو ابعادهم ونفيهم من مصر ، وقد ساءت حالتهم كما بينا ذلك تفصيلا فى ترجمة رفاعه بك رافع[1] ، ومات منهم هناك محمد بيومى كبير أساتذة الهندسة والرياضيات فى مدرسة المهندسخانة

وانتقى من تلاميـذ المدارس التى ألغاها عدداً منهم أدخلهم مدرسـة أنشأها سنة ١٨٤٩ ، ودعاها المفروزة اشارة الى أنه أفرز تلاميذها من بين طلبة المدارس ، وكانت هذه المدرسة بمثابة مدرسة تجهيزية حربية

وأقفل ما بقى من المعامل والمصانع التى أنشأها جده بحجة الاقتصاد فى النفقات

البعثات

وأرسل الى أوروبا ١٩ طالبا من تلاميـذ المدارس المصرية لاتمام دروسهم بالمدارس الأوروبية ، على أنه استدعى معظم أعضاء البعثات الذين كانوا يتلقون العلم فى فرنسا منذ عهد محمد على

---

(١) راجع الجزء الثالث من تاريخ الحركة القومية ص ٤٨٨



عباس باشا الأول والى مصر

من سنة ١٨٤٨ الى سنة ١٨٥٤

السودان

لم يعن عباس بالسودان عناية جده به ، ولم يفكر يوما فى زيارة ذلك الاقليم العظيم الذى يعد الجزء المكمل لمصر ، ليشاهد بنفسه شؤون البلاد وأهلها ، ويتعرف أحوالها ، كما فعل محمد على الذى لم تمنعه شيخوخته ومشاغله العديدة من أن يجوب السودان باحثا مستطلعاً

الجيش والبحرية

أنفذ عباس بعض الاصلاحات الحربية التى فكر فيها ابراهيم باشا قبل وفاته ، كتجديد الاستحكامات ، وانشاء الطرق الحربية ، وفيما عدا ذلك فان الجيش فى الجملة لم يكن موضع عنايته ، وقد تسرب الى ادارته الخلل وسوء النظام ، بعد ان كان مضرب الامثال فى النظام والكفاية على عهد محمد على ، وزاد فى اضمحلاله أنه أدمج فيه نحو ستة آلاف من الأرناءود ، جعلهم خاصة جنده ، وسلحهم بالمسدسات ، فكانت لهم فى عهده الصولة والسطوة ، وشمخوا بأنوفهم على المصريين ، جنوداً وأفراداً ، وجرد عباس الأهلين من السلاح ، وحظر عليهم حمله ، فعاث الارناءود فى الأرض فساداً ، بما اشتهر عنهم من الظلم والعسف والارهاق ، و بقى هؤلاء الاخلاط قوام الجيش فى عهده

وظل سليمان باشا الفرنساوى القائد العام للجيش المصرى ، ولكن يده غلت عن النهوض به واصلاح شؤونه

وساءت حالة البحرية بعد ان كانت زاهرة ، وأخذت فى الاضمحلال ، ويرجع ذلك الى اهمال عباس أعمال العمران عامة ، ثم الى سبب خاص ، وهو كراهيته لعمه سعيد باشا ، ومعلوم ان سعيد كانت نشأته فى البحرية ، وكان قائدا عاما للاسطول فى عهد محمد على ، فلما تولى عباس الحكم حقد على البحرية جملة واحدة ، لحقده على سعيد باشا . ! فهمل شأنها ، وتعطلت أعمال الترسانة ، ووقف اصلاح السفن ، فسرى اليها العطب والتلف

اشتراك مصر فى حرب القرم

بقى الجيش المصرى رغم ما أصابه من الخلل قوة لا يستهان بها ، وظهرت بسالته فى حرب القرم ، وهى الحرب الوحيدة التى خاضت مصر غمارها فى عهد عباس

شبت نار القتال بين تركيا والروسيا سنة ١٨٥٣ ، فطلب السلطان عبد المجيد الى عباس باشا أن يمده بالجند والأساطيل ، فلبى عباس الطلب ، وكانت دار الصناعة (الترسانة) فى ذلك الحين معطلة كما قدمنا ، فعاد اليها النشاط والعمل ، واستدعى اليها العمال الذين كانوا مصروفين عنها ، وجهز الاسطول المصرى ، وعهد بقيادته الى الاميرال حسن باشا الاسكندرانى ، أحد خريجى البعثات فى عهد محمد على(١)

وأعد حملة مؤلفة فى بدء الحرب من نحو ٢٠٫٠٠٠ مقاتل بقيادة سليم باشا فتحى أحد القواد الذين حاربوا تحت لواء ابراهيم باشا فى حروب سوريا والاناضول ، فأقلعت الحملة على ظهر العمارة المصرية ووصلت الى الاستانة ، ومضت الى ميدان القتال على نهر الدانوب ، ورابط معظم الجيش المصرى فى (سلستريا) ، وكان الروس يهاجمونها ، فأبلى المصريون بلاء حسنا فى المدافعة عنها ، وأقاموا بها حصنا عرف بطابية العرب ، كان له فضل كبير فى الدفاع ، فاستطاع الجيش المصرى أن يكسر هجمات الروس سنة ١٨٥٤ ، واستمرت الحرب الى عهد سعيد باشا كما سيجىء بيانه

وقد ساهم الاسطول المصرى فى الحرب البحرية ، فسار قسم منه الى شواطىء الاناضول الشمالية بالبحر الاسود ، ولكن السفن الروسية أوقعت به ، واشتركت بقية السفن فى نقل القوات الحربية الى ثغور البحر الاسود ، و بقيت تؤدى واجبها الى انتهاء الحملة

مقتل عباس

اتفقت الروايات على أن عباس مات مقتولا فى قصره ببنها ، وهذا أمر

---

(١) ترجمنا له فى الجزء الثالث من تاريخ الحركة القومية (عصر محمد على ص ٥٣١)

مقطوع بصحته ، ولكن الخلاف فى رواية مقتله ، وليس عجيبا أن يختلف الرواة فى ذلك ، فان قتل عباس كان نتيجة مؤامرة من مؤامرات القصور ، وهذه المؤامرات لايسهل اكتشاف حقيقتها ، أو الاتفاق على روايتها ، لما يكتنفها من الأسرار ، ولأنها تقع فى جنح الظلام ، بعيدة عن الانظار ، فلا يعرف الناس عنها الا ماتتناقله الألسنة بعد وقوعها ، ومن هنا ينشأ الاختلاف فى الرواية ، ولدينا عن مقتل عباس روايتان ، إحداهما ذكرها اسماعيل باشا سرهنك فى كتابه (حقائق الاخبار عن دول البحار ج ٢ ص ٢٦٥) ، والأخرى ذكرتها مدام اولمب ادوار كما سمعتها بمصر فى أوائل عهد اسماعيل ودونتها فى كتابها (كشف الستار عن أسرار مصر ص ١٤٣)

ويؤخذ من رواية اسماعيل باشا سرهنك ، ان (عباس) كانت له حاشية من المماليك يقربهم اليه ويصطفيهم ، ويتخذ منهم خواص خدمه ، ولهم عنده من المنزلة ما جعله يغدق عليهم الرتب العسكرية العالية ، على غير كفاءة يستحقونها ، حتى حاز اكثرهم رتبة قائمقام ، وكان لهم كبير من خاصة غلمانه ، يسمى خليل درويش بك ، وعرف فيما بعد بحسين بك الصغير ، وقد اساء هذا الرئيس معاملة اولئك المماليك ، فاستطالوا عليه بالغمز واللمز ، وخاصة لانه كان صغير السن ، فاتخذوا من حداثته مغمزا للأقاويل ، فسخط عليهم ، وشكاهم الى مولاه ، فأمر بجلدهم ، فجلدوا ، وجردوا من ثيابهم العسكرية ، وألبسهم خشن اللباس ، وأرسلهم الى الاصطبلات لخدمة الخيل ، فعز ذلك على « مصطفى باشا » أمين خزانة عباس ، لانهم كانوا من اتباعه المقربين اليه ، فسعى جهده لدى سيده ليعفو عنهم ، فلم ينل بادىء الأمر بغيته ، فلما ذهب عباس باشا الى قصره ببنها يصحبه احمد باشا يكن وابراهيم باشا الالفى محافظ العاصمة ، رجاهما مصطفى باشا أن يطلبا العفو عنهم ، فطلبا ذلك الى عباس ، فاجاب ملتمسهما ، وأصدر أمرا بالعفو عنهم ، وردهم الى مناصبهم ، فجاءوا الى بنها ليرفعوا واجب الشكر للأمير ، ولكنهم أضمروا الفتك به انتقاما لما أوقع بهم ، فائتمروا به مع غلامين من خدمة السراى ، يدعى أحدهما عمر وصفى

والآخر شاكر حسين ، واتفق الجميع على قتله ، وكان من عادة عباس عند نومه أن يقوم على حراسته غلامان من مماليكه ، ففي ليلة ١٨ شوال سنة ١٢٧٠ (١٤ يوليه سنة ١٨٥٤ م) كان الغلامان المذكوران يتوليان حراسته ، فجاء المؤتمرون في غسق الليل على اتفاق معهما ، وفتحا لهم الباب ، فدخلوا غرفة الامير ، وهو نائم ، ولما أرادوا الفتك به استيقظ وحاول النجاة ، فصده عمر وصفي ، وتكاثر عليه المؤتمرون ، وقتلوه ، ثم أوعزوا الى الغلامين بالهرب فهربا ، وكتم المتآمرون الخبر الى اليوم التالي ، ولما لم يستيقظ الأمير في موعده دخل عليه احمد باشا يكن وابراهيم باشا الالفي فوجداه مقتولاً ، فذعرا لهذه الفاجعة ، واتفقا على اخفاء الخبر حتى نقلا الامير القتيل الى القاهرة في عربة ، ووصلا به الى قصره بالحلمية ، وهنالك ذاع خبر قتله

وأرادت جماعة من أنصار عباس ، وعلى رأسهم ابراهيم باشا الألفي أن يجعلوا الحكم من بعده لنجله ابراهيم الهامي باشا الذي كان وقتئذ بأوروبا ، فاتفقوا على استدعائه ليولوه الحكم ، ويمنعوا عنه عمه سعيد باشا أكبر انجال محمد علي وأحق الامراء بالولاية طبقاً للنظام القديم ، وكان سعيد باشا وقتئذ بالاسكندرية ، يقيم بسرايه بالقباري ، فكتبوا سراً الى محافظ الاسكندرية اسماعيل سليم باشا ، وأبلغوه بما اتفقوا عليه ، وطلبوا اليه القيام على الثغر حتى يحضر الهامي باشا ، فلما تلا الرسالة لم يشاطرهم رأيهم ، لعلمه أن الحكم من حق سعيد باشا ، فقصد اليه من فوره ، وأنهى اليه فحوى الرسالة ، فشكره سعيد باشا على اخلاصه ، وذهب صحبته الى سراى رأس التين ، وأعلن اعتلاءه العرش ، وأجريت حفلة الجلوس ، وأطلقوا المدافع ، ثم سافر سعيد باشا الى القاهرة يصحبه امراء الأسرة الحاكمة الذين كانوا مبتعدين عن العاصمة لما بينهم وبين عباس من العداء والنفور ، فلما وصلوا الى القاهرة ذهب سعيد الى القلعة وتولى زمام الحكم

تلك خلاصة رواية اسماعيل باشا سرهنك

أما رواية مدام اولمب ادوار فخلاصتها ، أن الأميرة نازلي هانم عمة عباس هي

التى ائتمرت به وهى فى الاستانة ، وأنفذت مملوكين من أتباعها لقتله ، واتفقت وإياهما على أن يعرضا أنفسهما فى سوق الرقيق بالقاهرة ، كى يشتريهما عباس ، و يدخلهما فى خدمته ، وكان المملوكان على جانب من الجمال ، مما يرغب وكيل الأمير فى شرائهما ، فجاءا القاهرة فعلا ، ونزلا سوق الرقيق ، لى أن رآهما يوما وكيل الأمير ، فراقه جمالهما ، فاشتراهما وأدخلهما سراى مولاه ببنها ، فأعجب بهما عباس ، وعهد اليهما بحراسته ليلا ، قالت مادام اولمب ادوار ، فلما كانت الليلة الأولى لم يجرؤ المملوكان على ارتكاب القتل ، لانهما خشيا بأس عباس ، إذ كان قوى البنية ، شديد البطش ، وخافا أن يقاومهما و ينجو من فتكهما ، فينكل بهما شر تنكيل ، و يوردهما موارد الهلاك المحتوم ، فانقضت الليلة الأولى بسلام ، ومرت أيام عدة وهما يستجمعان قوتهما لانفاذ القتل عند سنوح الفرصة ، حتى جاءتهما النوبة ثانية لحراسة مولاهما ، فاعتزما أن يكونا أكثر شجاعة من قبل ، فلم يكد يستغرق عباس فى النوم حتى انقضا عليه وقتلاه ، ولم يدعا له الوقت ليصيح أو يقاوم ، ولما ارتكبا الجريمة نزلا اصطبلات الخيل الملحقة بالسراى ، وطلبا الى السائس أن يجهز لهما فورا جوادين بحجة أن الباشا يطلب حاجة له من قصره بالعباسية ، فلم يشك الخادم فى الأمر ، وجهز لهما الجوادين فسارا بهما عدواً إلى القاهرة ، ومن هناك فرا الى الاستانة ، حيث نقدتهما الاميره نازلى هانم مكافأة سخية على انفاذ المؤامرة

وتقول مادام أولمب ادوار إن الهامى باشا تعقب المملوكين القاتلين ليثأر لأبيه ، فالتقى بأحدهما فى الاستانة ، فقتله رميا برصاص مسدسه ، ولم يستطع اللحاق بالثانى ولم يعثر له على مكان ، وقيل انه أوى الى بلاد الارناءود فراراً من القتل (١)

فالروايتان ، مع اختلافهما فى بيان المحرضين على القتل ، وطريقة ارتكاب الجريمة ، متفقتان كما ترى فى ان عباس مات مقتولا إثر مؤامرة دبرت لقتله وانفذت فى قصره ببنها

---

(١) كشف الستار عن اسرار مصر لمدام أولمب ادوار
Les mystères de l'Egypte devoilés par Mme. Olympe Audouard

ميزة عباس

كان عهد عباس كما ترى خلوا من أعمال النهضة والعمران ، اللهم الا ما كان من انشاء سكة الحديد بين القاهرة والاسكندرية ، واصلاح سكة السويس الحجرية

على ان لعباس ميزة يجب أن يذكرها له التاريخ ، وهو أنه لم يفتح على مصر أبواب التدخل الاجنبى ، فلم يمكن للاجانب فى البلاد ، ولم يمد يده الى الاستدانة منهم ، بل ترك خزانة مصر حرة من اثقال الديون الاجنبية التى كبلها بها خلفاؤه من بعده ، وكان يجتهد دائما فى سد عجز الميزانية ، دون أن يلجأ الى القروض ، ولم يكن يميل الى منح الأوروبيين امتيازات باستثمار مرافق البلاد ، فهذه ميزة يجب أن تذكر له بالخير ، ويمتاز (من هذه الناحية) على سعيد واسماعيل ، فخطأ سعيد باشا انه منح المسيو فرديناند دلسبس امتياز حفر قناة السويس ، وافتتح عهد الاقتراض من الخارج ، وخطأ اسماعيل أنه كبّل مصر بالديون الجسيمة التى اقترضها من البيوت المالية الأوروبية

الفصل الثانى

النهضة الوطنية فى عهد سعيد باشا

١٨٥٤ — ١٨٦٣

من النهضات الوطنية ما يصدر عن الشعب وزعمائه ، ومنها ما يكون مصدره الملوك والحكام ، ويمتاز عصر سعيد باشا بظهور نهضة وطنية جديرة بان تعد دورا من أدوار الحركة القومية فى تاريخ مصر الحديث

وترجع هذه النهضة الى ميول سعيد باشا ذاته، فقد كان ذا نزعة وطنية ممدوحة ، نشأت فيه قبل أن يتولى الحكم ، ولازمته بعد أن تولاه ، وظهرت آثارها فى كثير من اصلاحاته واعماله ، وقوام هذه النزعة أنه كان يميل بجوارحه الى خير المصريين ورفاهيتهم ، ويعمل على تحريرهم من نير المظالم التى أصابتهم ، ويخفف عنهم عبء الضرائب التى ينوءون بها ، ويبث فيهم روح الوطنية ، ويشجعهم على تقلد المناصب العالية فى الجيش والادارة ، بعد أن كانت من قبل وقفا على الترك والشراكسة

نشأته

هو ابن محمد على الكبير ، ولد سنة ١٨٢٢ ، ونشأ فى حجر أبيه، محوطا بعطفه ورعايته ، وكان أبوه يعزه ويعنى بتربيته وتثقيفه ، وتنشئته النشأة الحسنة ، واختار له السلك البحرى ، فدربه على فنون البحرية، وجعل شأنه شأن تلاميذها ، ولعل هذه النشأة مما حبب الى نفسه مبادىء الديمقراطية ، فقد كان اثناء دراسته ومرانه زميلا لطائفة من التلاميذ ، ممن خصصهم أبوه لدراسة الفنون البحرية ، يعيش عيشتهم ، ويسير على نهجهم، وينظر اليهم كما ينظر الطالب الى اقرانه واصدقائه، ولما أتم دراسته انتظم فى خدمة الاسطول قومندانا لاحدى البوارج التى كانت ترفع علم مصر

فوق ظهر البحار ، واعتاد النظام الذى هو أساس الحياة العسكرية ، فكان يحترم رؤساءه ، ويتساوى فى ذلك وزملاؤه ضباط الاسطول ، ومما يذكر عنه أنه لما نال حظا من الفنون البحرية ، وكان وقتئذ « سعيد بك » جعله أبوه معاونا لمطوش باشا ناظر البحرية وقومندان الاسطول ، وأصدر أمره اليه بان يمتثل لأوامره ، ويؤدى اليه التعظيم العسكرى ، بوصف كونه رئيسا له ، وكان ذلك من سداد رأى محمد على ، إذ عود ابنه ، احترام النظام ، وارتقى سعيد فى المراتب البحرية حتى وصل فى أواخر عهد أبيه الى منصب « سر عسكر الدونمة » أى القائد العام للاسطول

فهذه النشأة كان لها أثرها فى إيلافه المبادىء الديمقراطية ، مما جعله عند ماتولى العرش يميل الى المصريين ، ويعمل على ترقيتهم وتقدمهم ورفاهيتهم

أخلاق سعيد

أهم الصفات البارزة فى أخلاق سعيد ، طيبة قلبه ، وسلامة قصده ، وكرمه ، وشجاعته ، وصراحته ، وميله للخير ، وتسامحه ، وحبه للعدل ، ونفوره من الظلم والارهاق .

ولكنه الى جانب ذلك ، كان ضعيف الارادة ، كثير التردد ، لايستقر على رأى واحد ، ومن هنا جاءت تقلباته فى الخطط والبرامج والاعمال ، وانصياعه لآراء خلطائه من الأوروبيين ، وسرعة تأثره بما يسمعه ، ثم سرعة غضبه ، ورجوعه عن غضبه لأوهى الاسباب ، وكانت نقطة الضعف فيه اسرافه ، والتجاءه الى الاستدانة من البيوت المالية الأوروبية ، وحسن ظنه بالأوروبيين، وشدة ركونه اليهم ، وميوله الفرنسية التى جعلته يسترسل فى الاصغاء لتأثيرات المسيو فردينان دلسبس وأضرابه ، وفى عهده أخذ الاجانب يبسطون أيديهم على مرافق البلاد ، ويستطيلون على سلطة الحكومة وسيادتها ، ويشمخون بأنوفهم ، وصار للقناصل نفوذ لم يكن لهم من قبل فى عهد محمد على وابراهيم وعباس

اصلاحاته الزراعية

واللائحة السعيدية

بذل سعيد باشا جهودا موفقة لاصلاح حالة الفلاحين والترفيه عنهم ، فخولهم حق الملكية العقارية للأراضى الزراعية ، وسنّ لهذا الغرض قانونه المشهور باللائحة السعيدية الصادرة فى ٥ اغسطس سنة ١٨٥٨ (٢٤ ذى الحجة سنة ١٢٧٤) [١] ، وهى من أعظم إصلاحاته ، لأنها أساس التشريع الخاص بملكية الأطيان فى القطر المصرى ، وهى من آثاره الخالدة التى تذكر له بالخير ، لأن الملكية هى من الدعائم الأساسية للهيئة الاجتماعية ، وكان الفلاح محروماً حق التملك فى عهد محمد على

وألغى أيضاً نظام احتكار الحاصلات الزراعية ، ذلك النظام الذى كان معمولا به فى عهد أبيه ، وأخذ فى الاضمحلال فى عهد عباس ، وصار للفلاح حرية التصرف فى حاصلاته ، وحرية اختيار أنواع الزراعة التى يبتغيها

وخفف عن الأهالى عبء الضرائب ، فقد كان عليهم متأخرات من السنين الماضية تجاوز عنها جملةً واحدة ، ولم تكن هذه المتأخرات بالشيء اليسير ، فقد بلغ مقدارها كما يقول المسيو مريو [٢] ٨٠٠٫٠٠٠ جنيه ، وهو مبلغ ضخم إذا قيس بثروة ذلك العصر ، فاستراح الفلاحون من اعباء المتأخرات القديمة التى كان عمال الجباية يرهقونهم للحصول عليها ، ويستولون على حاصلاتهم الزراعية ليستوفوا ما تأخر عليهم منها

ورغب الى الأهلين سداد الضريبة نقداً لا عيناً ، وهذا التعديل متفرع عن إلغاء نظام احتكار الحاصلات الزراعية ، فبعد أن كانت الحكومة تضع يدها على

---

(١) منشورة فى القاموس العام للادارة والقضاء لفيليب جلاد ج ١ ص ١١٨ وفي كتاب الاطيان والضرائب لجرجس بك حنين ص ٣٨٨

(٢) فى كتابه (مصر الحديثة) ص ٦٤

الحاصلات وتتصرف فيها وتحاسب الفلاح على السعر الذى تقرره هى بمطلق إرادتها ، صار للفلاحين حق امتلاك حاصلاتهم ، والتصرف فيها بالبيع بالسعر الذى يرتضونه ، وأداء الضريبة نقداً ، وبذلك نالوا حق الملكية العقارية وملكية الحاصلات ، وحرية التصرف فيها ، وحيازة ثمنها ، وصار للفلاح وجود اقتصادى مستقل عن الحكومة ، بعد أن كان مستعبداً لها ، فكان هذا الاصلاح من أسباب نهضة الفلاح من الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية

واقترن تنفيذ هذا الاصلاح بمصاعب جمة ، لأن الفلاحين لسبق استيلاء الحكومة كل سنة على حاصلاتهم ، لم يكن بأيديهم النقد الذى يستطيعون أن يؤدوا منه الضريبة بحسب النظام الجديد ، فقرر سعيد إمهالهم فى الدفع ، حتى يتسنى لهم بيع حاصلاتهم الجديدة وأداء الضريبة من ثمنها ، فشعر الفلاحون بالراحة والطمأنينة والرخاء وحسن المعاملة ، ووقف تيار الهجرة من القرى

وقد ألغى أيضاً ضريبة الدخولية التى كانت تجبى على الحاصلات والمتاجر مما تتبادله المدن والقرى فى داخلية البلاد ، وهذه الضريبة مصدر إعنات وإرهاق للأهالى ، كما أنها عقبة تحول دون حرية التجارة الداخلية ، إذ كانت الحكومة تقتضى على المتاجر ١٢ ٪ من قيمتها عند دخولها أى مدينة أو قرية ، وهذا يؤدى الى ارتفاع الأسعار واشتداد الغلاء ، ويضعف حركة المعاملات ، كما أن طريقة تحصيل هذه الضريبة تنطوى على نوع آخر من الارهاق ، إذ كانت جبايتها موكولة الى ملتزمين يبتزون الأهالى أكثر من قيمتها ، فالغاؤها فيه تخفيف عن الأهلين وتحرير للتجارة الداخلية مما كان يعترضها من العقبات والعراقيل

لائحة المعاشات

ومن أعماله الاجتماعية سنه لائحة المعاشات للموظفين المتقاعدين وهى الأساس الذى بنى عليه نظام المعاشات المتبع فى مصر لموظفى الحكومة

أعمال العمران

تطهير ترعة المحمودية

عنى سعيد باشا بتطهير ترعة المحمودية ، ذلك إنها منذ إنشائها فى عهد محمد على لم تُعْنَ الحكومة بتطهيرها ، وانقضى عهد عباس دون أن يفكر فى أمرها ، فلما تولى سعيد كاد الطمى المتراكم على مدى السنين يطمرها و يفسد استعمالها ، فلا تعود صالحة لمرور السفن ، ولا تجرى فيها مياه الرى بالمقادير التى يتطلبها العمران

فاعتزم سعيد باشا أن يطهرها ، و يكاد تطهيرها فى هذه الظروف يشبه أن يكون احتفاراً لها من جديد ، لأن الطمى كان قد سد قاعها ، وقد استشار المسيو موجيل بك كبير المهندسين فيما يلزم من العمال والجهود لاجراء هذا العمل العظيم ، فحسب مقدار ما يجب رفعه من الأتربة من قاعها ، فبلغ ثلاثة ملايين متر مكعب ، على طول الترعة الذى يبلغ ثمانين كيلو متراً ، وقدر أن العامل يرفع متراً ونصف متر فى اليوم ، فالعمل يقتضى سبعة وستين ألف عامل ، و بذلك يتم تطهير الترعة على أيديهم فى ثلاثين يوماً

فأصدر سعيد أمره الى المديريات بارسال هذا العدد من الفلاحين ، ولم تكتف المديريات بارسال العدد المطلوب ، بل ضاعفت الهمة ، وأرسلت ١١٥ ألف عامل ، فوزع هذا العدد على طول الترعة ، ووزعت عليهم الفؤوس ، بمعدل فأس لكل خمسة من العمال ، واحد منهم يحفر الأرض بفأسه ، والثانى يملأ الغلقان من الردم ، والثلاثة الآخرون يحملونها الى جانب الترعة ، حيث أمر سعيد باشا بانشاء طريق زراعى معبّد ، عرضه عشرة أمتار ، وقد سار العمل على هذه الوتيرة ، وعنى سعيد باشا بالسهر على صحة العمال ، فأحضر أطباء يلاحظون حالتهم الصحية طول مدة العمل ، وتم تطهير الترعة و إنشاء الطريق فى اثنين وعشرين يوماً ، دون أن يموت أحد من العمال ، بخلاف ما وقع حين إنشائها فى عهد محمد على ، ولم يزد عدد المرضى الذين أعياهم

العمل عن خمسة فى الألف (١)

فكان هذا العمل الضخم و إتمامه فى هذه المدة القصيرة مدعاة للاعجاب ، لما تجلّى فيه من مقدرة الفلاح المصرى على إنشاء أعمال العمران التى تنوء بها الجماعات من الشعوب الأخرى

وقد كان نجاح هذا المشروع مما شجع المسيو فردينان دلسبس على إغراء سعيد باشا بتسخير الآلاف من الفلاحين فى احتفار قناة السويس ، فرضى بتأثير هذا الاغراء أن يسخر الألوف المؤلفة منهم فى عمل عاد بالضرر الوبيل على مصر والمصريين

السكك الحديدية والتلغرافات

توفى عباس قبل إتمام الخط الحديدى بين القاهرة والاسكندرية ، فأتمه سعيد باشا سنة ١٨٥٦ وسار الخط عن طريق كفر الزيات ونها حتى وصل الى العاصمة ، ولم تكن « الكبارى » بنيت على النيل ، فكان القطار عند اجتيازه الفرعين ينقل على مراكب خاصة تسير به من بر الى آخر

وأنشأ خطوطا تلغرافية على الطريقة الحديثة من الاسكندرية والقاهرة والسويس بعد أن كان الموجود منها فى عهد محمد على على طريقة (شاب) القديمة

ومدّ الخط الحديدى بين القاهرة والسويس ، كتتمة لخط الاسكندرية والقاهرة ، وفُتح للمواصلات سنة ١٨٥٨ ، فعاد على ميناء السويس وعمرانها بالفوائد الجمة ، لأنه كان سبباً فى زيادة ورود السفن التجارية الى هذا الثغر لنقل متاجرها وركابها الى القاهرة ثم الى الاسكندرية بطريق السكة الحديدية ، فنشطت حركة العمران والتجارة فيها ، ولما كثر توارد السفن اليها شرع سعيد باشا فى إصلاح مينائها

ومن أعماله فى العمران الاحتفاظ بالآثار المصرية وجمعها فى مخازن أعدت لها فى بولاق ، وعهد بهذه المهمة الى العالم الأثرى ماريبت (باشا) كما سيجىء بيانه ، وعهد الى العلامة محمود بك (باشا) الفلكى الرحلة الى دنقله لرصد كسوف الشمس

---

(١) مريو . مصر الحديثة ص ١٢٣

بها ، فقام بهذه المهمة، واغتنم هذه الرحلة لتحقيق ٤٢ موقعاً من المواقع الفلكية بين اسوان ودنقله

وبعد عودته كلفه سعيد باشا وضع خريطة مفصلة للقطر المصرى ، فقام بهذا العمل خير قيام ، واشترك معه فى أدائه طائفة من المهندسين المصريين

اصلاحاته الحربية

وبثه الروح القوميـــة فى الجيش

اشتهر سعيد باشا بميله الى الجيش ، ولعل نشأته الأولى على ظهر الأسطول حببت اليه الحياة الحربية ، برية كانت أم بحرية ، فعنى بعد أن ولى الحكم بترقية شؤون الجند ، وكثيراً ما كان يصرف أيامه فى معسكر الجيش ، وتعرض عليه شؤون الحكومة وهو وسط جنوده ، ويطيب له أن يسير بهم متنقلا فى أنحاء البلاد

ولقد بذل جهداً كبيراً فى سبيل ترقية الجيش من الوجهتين المادية والمعنوية ، وصبغه بالصبغة الوطنية ، وذلك أن الجيش كان قد اضمحل فى عهد عباس الأول ، كما تقدم بيانه، وفقد الروح التى كانت تفيض عليه صفات العظمة والبطولة فى عهد محمد على وابراهيم، فعمل سعيد على أن يرد الى الجيش صبغته الوطنية، و بذل جهداً كبيراً فى إصلاح حالته

فقرر تقصير مدة الخدمة العسكرية ، وجعلها فى الوقت نفسه إجبارية للجميع ، وكان لهذا الاصلاح أثر حسن فى ترغيب الانتظام فى سلك الجندية الى الأهلين ، لأن التجنيد بحسب النظام القديم كان مقصوراً على الطبقات الفقيرة (وهو الآن كذلك مع الأسف) ، فوقر فى أذهان الناس أن الخدمة العسكرية سخرة تبتلى بها تلك الطبقات ، ومما زاد فى نفور الأهلين منها طول مدة التجنيد ، فكان المجندون تطول غيبتهم عن أهلهم ، وكثير منهم كانوا يلقون حتفهم فى الحروب المتواصلة التى حدثت فى عصر محمد على ، فيجهل أقرباؤهم مصيرهم

فلإصلاح هذه العيوب قصر سعيد باشا مدة الخدمة العسكرية ، ثم عممها على جميع الشبان، على اختلاف طبقاتهم ، فجعل متوسط الخدمة سنة واحدة ، و بذلك أدخل فى نفوس الناس الطمأنينة على مصير أبنائهم المجندين، وأخذوا يشعرون بأنهم سيعودون قريباً الى قراهم وعائلاتهم، وأمر أن تعمم الخدمة العسكرية، بحيث يقترع أبناء المشايخ والعمد وأقاربهم كسائر الفلاحين ، ولا شك أن هذه الوسيلة من شأنها أن تنهض بمستوى الجندية ، وترغب الشبان فى الخدمة العسكرية، لأن العمد والمشايخ هم فى الجملة خلاصة أعيان البلاد ، فدخول أبنائهم فى سلك الجيش تكريم الجندية ، وتقويم لنفوس الشبان ، إذ يشعرون أن التجنيد واجب عام ، يشترك فيه الأغنياء والفقراء على السواء

وعلاوة على ماتقدم ، فان سعيد باشا عنى بترقية حالة الجنود والترفيه عليهم من جهة الغذاء والمسكن والملبس وحسن المعاملة ، حتى أخذوا يشعرون بأنهم تحت لواء الجيش أحسن حالا مما كانوا عليه فى قراهم ، طعاماً ، ومسكناً ، وملبساً ، ومظهراً

وكان لهذا الاصلاح أثره فى إيلاف الأهالى الخدمة العسكرية ، وفى تقدم حالة البلاد الاجتماعية ، لأن المجندين إذ يعودون الى القرى بعد انتهاء مدة خدمتهم كانوا ينقلون اليها مبادىء النظام والتقدم والنظافة التى تعودوها فى ظل الجندية

ولو استمر العمل بهذا النظام طويلا لألفت الأمة الخدمة العسكرية ، ولاعتادها الشبان من مختلف الطبقات

وكان سعيد باشا ميالا الى ترقية الضباط المصريين واعطائهم حقهم فى التقدم ، وفى عهده ارتقى كثير منهم الى المراتب العسكرية العالية ، بعد أن كانت منحصرة فى الترك والشراكسة ، وقد نقل عنه عرابى باشا خطبة ألقاها فى مأدبة بقصر النيل، تدل على عواطف وطنية شريفة ، قال مخاطباً الحاضرين من العلماء والرؤساء الروحانيين وأفراد الأسرة الحاكمة ، وكبار رجال الحكومة الملكيين والعسكريين :

« أيها الاخوان ، انى نظرت فى أحوال هذا الشعب المصرى من حيث التاريخ، فوجدته مظلوماً مستعبداً لغيره من أمم الأرض ، فقد توالت عليه دول ظالمة له كثيرة ،

كالعرب الرعاة (الهكسوس) والآشوريين ، والفرس ، حتى أهل ليبيا والسودان واليونان ، والرومان ، وهذا قبل الاسلام ، وبعده تغلب على هذه البلاد كثير من الدول الفاتحة ، كالأمويين ، والعباسيين ، والفاطميين من العرب ، والترك ، والأكراد ، والشركس ، وكثيراً ما أغارت فرنسا عليها حتى احتلتها فى أوائل هذا القرن فى زمن (بونابرت) ، وحيث أنى أعتبر نفسى مصريا ، فوجب علىّ أن أربى أبناء هذا الشعب ، وأهذبه تهذيباً ، حتى أجعله صالحاً لأن يخدم بلاده خدمة صحيحة نافعة ، ويستغنى بنفسه عن الأجانب ، وقد وطدت نفسى على إبراز هذا الرأى من الفكر الى العمل »(١)

ويقول عرابى باشا فى مذكراته تعليقاً على هذه الخطبة ، إنه لما انتهى سعيد باشا من القائها خرج المدعوون من الأمراء والعظماء غاضبين ، حانقين ، مدهوشين مما سمعوا ، وأما المصريون فخرجوا ووجوههم تتهلل فرحاً واستبشاراً ، ويقول إنه اعتبر هذه الخطبة أول حجر فى أساس مبدأ (مصر للمصريين) ، قال « وعلى هذا يكون المرحوم سعيد باشا هو واضع أساس هذه النهضة الوطنية الشريفة فى قلوب الأمة المصرية الكريمة »

هذا ما يقوله عرابى باشا ، وهو قول لا غبار عليه ، ونضيف اليه أنه لو بقيت هذه الروح سائدة فى عهد خلفاء سعيد باشا لما كانت البلاد فى حاجة الى شبوب الثورة العرابية ، لأن هذه الثورة قامت لتحقيق المبدأ الذى اتبعه سعيد باشا ، فلو سار خلفاؤه على هذا المبدأ لتم الغرض الذى دعا اليه العرابيون فى سكينة وسلام ، ولكانت البلاد فى غنى عن قيام تلك الثورة ، التى مهما قيل لها أو عليها ، فلا نستطيع أن نغفل تلك الحقيقة المؤلمة ، وهى أنها أفضت بالبلاد الى الاحتلال الانجليزى ، وليس يخفى أن الاستقلال والاحتلال ضدان لا يجتمعان

ومن أعماله الحربية إنشاء (القلعة السعيدية) بالقناطر الخيرية ، وكان يقيم

(١) مذكرات عرابى (كشف الستار عن سر الأسرار) ص ١٦

بها أحياناً ، وجعلها بحيث تستطيع صد هجمات الأعداء عن القاهرة إذا جاءوا من طريق النيل .

على أن سعيد باشا كان لا يستقر على وتيرة واحدة فى اهتمامه بشؤون الجيش ، ومرجع ذلك الى ضعف إرادته ، وقلة حزمه ، وتقلبه فى الرأى ، وقد كان هذا الخلق من مواضع ضعفه ، فكثيراً ما لوحظ عليه أنه يرى فى يومه نقيض ما رآه بالأمس ، ولا يثبت على رأى واحد ، فبينما هو يعنى بزيادة عدد الجيش إذا به يصرفه ، فلا يبقى منه إلا النزر اليسير

ففى سنة ١٨٥٦ صرف معظم الجيش ، ولم يبق منه إلا ست اورط من المشاة ، وثلاثة بلوكات من الفرسان ، و بلوكين من المدفعية ، ولما سافر فى رحلة الى السودان أواخر سنة ١٨٥٦ اصطحب اورطتين من الجيش وأبقى الاورط الاربع الاخرى بالقاهرة والاسكندرية و بنى سويف ، ثم جمع الضباط وجعل منهم مدرسة بالقلعة السعيدية بالقناطر الخيرية ، وذلك لخوفه من أن يقوم الجيش بثورة فى البلاد أثناء غيابه بالسودان

وفى سنة ١٨٦٠ أعاد الجيش ثانياً ، وأعاد اليه الضباط ، ونظم فيالقه ، وكان غرضه الاستعداد للقتال حينما توترت العلاقات بينه و بين تركيا ، بسبب مسألة قناة السويس، وقاد بنفسه هذا الجيش وعسكر به فى مريوط ، وأقام هناك ثلاثة أشهر ، كان لا ينفك خلالها يجرى المناورات الحربية ، وكان عدد الجيش وقتئذ ٦٤٫٠٠٠ مقاتل كما أحصاه اسماعيل باشا سرهنك فى كتابه (ج ٢ ص ٢٧٥) ، ثم صرف معظم هذا الجيش بعد أن عادت العلاقات الودية بينه و بين تركيا

وفى سنة ١٨٦٢ أعاد تنظيم بعض الفرق ، وكان لا يقر له قرار إلا بين جنده ويلازمهم فى معظم أوقاته

وذكر عنه المسيو فردينان دلسبس أنه نقص الجيش من ستين ألفاً الى ثمانية آلاف أو عشرة آلاف مقاتل ، وذلك لكى يخصص أكبر عدد من المقترعين

لأعمال الحفر فى قناة السويس [1] ، ومن هذا يتبين لك أن القناة، علاوة على ما جلبته لمصر من المضار كما سيجيء بيانه، كانت من أسباب اضمحلال الجيش المصرى

البحرية

قلنا ان سعيد باشا نشأ نشأة بحرية ، وانتظم فى سلك الأسطول قبل أن يتولى الحكم ، فكان ميالا بطبيعة نشأته الى إحياء البحرية المصرية ، بعدما أصابها من الاضمحلال والاهمال فى عهد عباس

وقد وجه عنايته فعلا الى ترقية شأن الاسطول ، فلما عادت السفن الحربية المصرية من حرب القرم أمر باصلاحها و إنشاء سفن أخرى جديدة ، ولكن انجلترا خشيت أن تعود الى مصر قوتها البحرية، التى كانت لها فى عهد محمد على، فأوعزت الى الحكومة التركية أن تمنع سعيد باشا من تجديد الاسطول ، وزينت للسلطان هذا العمل موهمة إياه أن الاسطول المصرى إذاقوى شأنه يصبح خطراً يتهدد تركيا كما كان فى عهد محمد على ، فاستمع السلطان لدسائس انجلترا ، وأصدر أمره الى سعيد باشا بالكف عن إصلاح سفن الأسطول و إنشاء سفن جديدة إلا بأمره ، فكان ذلك سبباً لاضمحلال قوة مصر البحرية ، وقد ذكر اسماعيل باشا سرهنك فى كتابه حقائق الأخبار (ج ٢ ص ٢٧١) أن سعيد باشا إذ رأى أن معظم السفن الراسية أمام دارالصناعة بالاسكندرية إلا تصلح للقتال إلا بعد صلاح جسيم وانها إذا تركت وشأنها أصابها التلف ، أمر بتكسيرها و بيع أخشابها و إحراق ما لا يصلح منها ، وسرح معظم ضباطها ، وأدخل الكثيرين منهم فى الوظائف الملكية ، وخاصة فى مطابخه الواسعة ، ولما أنشأ إدارة للملاحة النيلية ، وهى التى دعيت مصلحة (الانجرارية) ابتاع لها كثيراً من البواخر النيلية ، واستخدم فيها بعض أولئك الضباط والجنود ، وهناك سبب آخر لاضمحلال البحرية فى عهد سعيد ، ذلك أن

---

(١) وثائق عن تاريخ القناة لمسيو فرديناند دلسبس ج ٤ ص ٣٣٣

الدول الأوروبية أخذت تستبدل بالسفن الحربية الشراعية السفن الجديدة البخارية التى صارت الأساطيل الحربية تتألف منها ، ولكن مصر قصرت عن مجاراة الأساطيل الأوروبية فى هذا المضمار ، ومن هنا أمعنت البحرية المصرية فى الضعف وآلت حالتها الى الاضمحلال

ولو كان سعيد باشا على شىء من العزيمة التى امتاز بها أبوه العظيم لما ترك الأسطول الضخم الذى بذلت مصر فى سبيل إنشائه ما بذلت من الجهود يتبدد ويتكسر ، ولما صدع بأوامر السلطان فى هذا الصدد ، بل كان عليه أن يتعهد الاسطول ، فيصلح ما يعطب من سفنه ، ويجدده بانشاء السفن الحربية البخارية بدلا من السفن الشراعية ، لكنه لم يفعل شيئاً من ذلك ، وهو الذى كان يجدر به أن يقدر قيمة الأسطول إذ نشأ فى البحرية ومارس فنونها وعرف مبلغها من الجلال وخطر الشأن

أهمل إذن سعيد شأن البحرية الحربية ، على أنه عنى بالملاحة التجارية الداخلية والخارجية ، فأنشأ شركتين للملاحة ، إحداهما بحرية ، والأخرى نيلية

شركة الملاحة النيلية

فالشركة الأولى للملاحة النيلية ، أسست سنة ١٨٥٤ ، والغرض منها نقل الحاصلات والمسافرين بطريق النيل على البواخر

والسبب الذى دعا سعيد باشا الى تأسيس هذه الشركة ان المراكب الشراعية التى تنقل الغلال والمتاجر من داخلية البلاد الى الاسكندرية عن طريق النيل وترعة المحمودية كانت تتأخر فى سيرها ، لمعاكسة الريح ، فكانت تقطع المسافة بين القاهرة والاسكندرية فى خمسة عشر يوما ، فى حين أن البواخر تقطعها فى ست وثلاثين ساعة ، ولما كانت الاسكندرية تستمد أقواتها ومواد الغذاء من الداخل ، فتأخر السفن الشراعية يؤدى الى أزمة فى الأقوات ، وخاصة بعد أن زاد عدد سكانها ، هذا الى مافى استخدام المراكب الشراعية من تعطيل المواصلات التجارية عامة ، فأسس سعيد باشا هذه الشركة لتسهيل سبل المواصلات النيلية

غير أن عيب هذه الشركة أنها شركة أجنبية ، مؤسسوها من الأوروبيين ، ومعظم رءوس أموالها أجنبية ، ولعل هذه أول شركة أجنبية أسست فى عهد سعيد باشا

ولم يكن من أعضائها من المصريين سوى رئيسها الفخرى (الذى لم يكن له عمل ما) وهو ذو الفقار باشا وزير المالية ، أما أصحاب الامتياز فهم ، فيما عدا ذو الفقار باشا جماعة من الماليين الأجانب من مختلف الأجناس ، وهم المسيو رويسنر Ruyssenærs قنصل هولندا العام فى مصر ، والمسيو بوبولانى Popolani ، وكونيج بك Kœnig Bey سكرتير سعيد باشا الأوروبى ، وموجيل بك Mougel Bey كبير مهندسى الرى ، وإيدى Aide ، وليونيداس ليغونس Lyghounes ، ومدة امتياز هذه الشركة ١٥ سنة ، ومن شروط عقد تأسيسها ، أنه عند وقوع خلاف بينها وبين الحكومة فلا يرفع الخلاف الى القنصليات بل يحسم بواسطة التحكيم ، وان بواخر الشركة ترفع العلم المصرى باعتبارها تابعة لشركة مصرية

سميت هذه الشركة (الشركة المصرية للملاحة البخارية) ، ولم تكن مصرية إلا بالاسم ، وكان فى إمكان الحكومة أن تشترى البواخر من مالها ، بدلا من الالتجاء الى رءوس الاموال الأجنبية ، وقد سوّغ أنصار سعيد باشا اعطاء هذا الامتياز لشركة أوروبية بقولهم ان الحكومة عهدت الى الشركة بالقيام ببعض أعمال الاصلاح فى ترعة المحمودية ، دون تكليف الخزانة المصرية نفقاتها ، كتوسيع مأخذ الترعة من النيل ، وتوسيع مصبها فى البحر الأبيض المتوسط ، وتطهيرها ، وانشاء طلمبات عند العطف لتغذيتها

ولعمرى إن هذه الأعمال هى من أخص واجبات الحكومة ، وقد سبق لسعيد باشا أن طهر الترعة فى أول حكمه ، ولم يكن فى حاجة الى أن يعهد بمثل هذه الأعمال الى شركة أجنبية

شركة الملاحة البحرية (الشركة المجيدية)

اما الشركة الثانية فهى شركة مساهمة للملاحة البحرية ، أسست سنة ١٨٥٧ رئيسها الأمير مصطفى فاضل بن ابراهيم باشا ، ومجلس ادارتها خليط من الوطنيين

والاجانب ، وهم نوبار باشا (وكان لم يزل بك) نائبا للرئيس ، وله فى غيبته أن يقوم باعمال الرآسة ، وعبد الله بك ، والمسيو دمريكر Dumréicher وحسن كامل بك ، واسماعيل فوزى بك ، والمسيو ليفى ، ومختار بك ، والمسيو باسترى Pastré ، والمسيو رويسنر ، وسعيد افندى ، وهوج توربرن Hugh Thurburn والمسيو زكالى Zaccali

وسميت (القومبانية المجيدية) ، نسبةً الى اسم السلطان عبد المجيد الذى كان يتولى عرش السلطنة العثمانية وقتئذ ، والغرض منها تسيير البواخر فى البحر الاحمر ، ومنه الى المحيط الهندى ثم الخليج الفارسى ، وفى البحر الابيض المتوسط ، وكانت تقوم بالملاحة بين السويس وثغور الحجاز واليمن والقصير وسواكن ومصوع ، وتنقل الحجاج ذهابا وايابا الى ثغور الحجاز ، ولها بواخر أخرى بالبحر الابيض المتوسط ، ومدة امتيازها ثلاثون سنة ، وبواخرها ترفع الراية المصرية ، ومنازعاتها لا ترفع أمام محاكم القنصليات بل أمام المحاكم التجارية المصرية ، ولها مستودعات ومحطات فى السويس والقصير ومصوع

ولكن هذه الشركة قد سرى اليها الاضمحلال فى أواخر عهد سعيد ، لفساد ادارتها ، فحلتها الحكومة ، وتولت تصفيتها على عهد اسماعل ، واعادت الأسهم الى أصحابها مقسطة على عشر سنوات فبلغت مع فوائدها ٣٤٠٫٠٠٠ جنيه ، وحلت محلها الشركة العزيزية التى انشأها اسماعيل كما سيجىء بيانه

اصلاح ميناء السويس

نشطت حركة التجارة والعمران فى السويس بعد انشاء السكة الحديدية التى تصلها بالقاهرة ، وبعد انشاء الشركة المجيدية للبواخر ، واتخاذ السويس ميناء لخطوط الملاحة فى البحر الاحمر ، فعزم سعيد باشا على اصلاح مرفئها وتوسيعه ، وعهد بذلك الى شركة فرنسية تعرف بشركة (ديسو) Dussau ، وتعاقد واياها على انشاء حوض عائم بالميناء لاصلاح السفن ، ثم على توسيع الميناء ، وقد كملت أعمال الاصلاح فى عهد الخديوى اسماعيل

حروب مصر فى عهد سعيد باشا

اشتركت مصر على عهد سعيد باشا فى حربين ، الأولى حرب القرم ، والثانية حرب المكسيك

(١) حرب القرم

تقدم الكلام عن اشتراك مصر فى هذه الحرب على عهد عباس باشا ، وحسن بلاء الجيش المصرى فى الدفاع عن (سلستريا)

وقد استمرت الحرب بعد وفاة عباس ، وأرسل سعيد باشا نجدة الى الجيش المصرى فيها

ومما يذكر عن هذه الحرب ان المصريين عانوا فيها الشدائد والأهوال ، إذ كانوا يقاتلون فى شدة البرد خلال شتاء عامى ١٨٥٤ و ١٨٥٥ ، ولقى الكثير منهم منيتهم فى ميادين القتال ، أو من فتك الامراض ، وقد دافعوا دفاعا مجيدا عن (ايباتوريا) ، وهى مدينة من ثغور شبه جزيرة القرم ، احتلها الحلفاء لمهاجمة مواقع الروس الحصينة فى شبه الجزيرة

واستشهد سليم باشا (فتحى) القائد العام للجيش المصرى فى حصار (ايباتوريا)، ذلك أن الروس هاجموا المدينة بغتة ، وكان سليم باشا يتولى قيادة المصريين فيها ، فبينما هو قائم باعباء القيادة اصابته رصاصة فى جبهته أردته قتيلا ، ومع أن الروس ارتدوا عن المدينة ، لكن مقتل سليم باشا كان خسارة كبرى أصابت الجيش ، ووقعت وقعا أليما فى نفوس الجند والضباط

ذكر المسيو (فانترينييه) Vingtrinier نبأ مقتله فى كتابه (سليمان باشا) ، قال « إن مصر شعرت بالألم الشديد لوفاته ، إذ فقدت فيه قائدا فذاً فى الكفاءة الحربية ، ورجلا نزيها محبا للخير ، اكتسب بشجاعته اعجاب رؤسائه ومحبة زملائه »

ولما قتل سليم باشا فتحى ، جعل سعيد باشا على القيادة العامة احمد باشا

المنكلى ، والاميرالاى على بك مبارك (باشا) من اركان حربه ، وكان وقتئذ ناظرا لمدرسة المهندسخانة ، واشترك فى الحرب كما تراه فى ترجمته بالفصل التاسع

ونال الجيش المصرى فى حرب القرم ثنـاء مستطابا ممن شهدوا حسن بلائه فى القتال

نقل المسيو فانترينييه فى كتابه (سليمان باشا) ماذكرته فى هذا الصدد جريدة المونيتور الفرنسية، قالت

« أثبت المصريون أنهم خير الجنود الذين دافعوا عن ايباتوريا ، ونالوا هذه المكانة ذاتها فى حرب الدانوب ، واحتملوا وحدهم معظم العبء فى الدفاع عن سلستريا »

وقالت فى موطن آخر « ان المصريين يعرفون فى الجيش التركى وفى البلاد التركية بالعرب، وطريقتهم فى القتال تشبه طريقة تلك الشعوب الحربية التى تجمع الى الشجاعة والاقدام ، الذكاء والنظام »(١)

وشهد الجنرال اسمونت Osmont أحد قواد الجيش الفرنسى فى حرب القرم شهادة قيمة للجيش المصرى ، قال (ص ٥٧٤ من الكتاب المتقدم ذكره) « لقد اشترك قسم من الجيش المصرى معنا فى حرب القرم ، وحينما كنت محافظا لاباتوريا شاهدت فرقة من ذلك الجيش يبلغ عددها ١٢ الف جندى ، يؤلفون جزءا من جيش عمر باشا ، ورأيت هذه الفرقة فى المناورات الحربية ، كما رأيتها وهى تخوض غمار الحرب ، بجانب فرقتين من الترك ، وأشهد إنهـا كانت تفوق الفرقتين التركيتين فى كل المزايا »

وقال المسيو مريو فى كتابه مصر الحديثة يصف الجيش المصرى فى عهد سعيد باشا لمناسبة حرب القرم :

« إن كفاءة الفلاح المصرى فى فهم النظام الحربى ، واتباعه اياه ، وما اشتهر

---

(١) سليمان باشا. المسيو فانترينييه ص٥٧٢ Soliman pacha par Vingtrinier

به من الثبات والشجاعة فى مواجهة الاعداء ، كل هذه المزايا قامت عليها البينات ، لا فى ميادين القتال بجزيرة العرب وسوريا فى عصر محمد على فحسب ، بل بحسن دفاع الجيش المصرى عن سلستريا وايباتوريا فى حرب القرم الأخيرة »(١)

وقد غرق الاميرال حسن باشا الاسكندرانى قائد الاسطول المصرى فى تلك الحرب ، وذلك أنه كان عائدا باسطوله الى الاستانة لاصلاح بعض السفن ، فهبت على الاسطول ريح عاصفة ، وتكاثر عليه الضباب ، فحال دون اجتيازه بوغاز البوسفور بسلام ، واشتدت العاصفة عند مدخل البوغاز ، فاصطدمت السفينتان (مفتاح جهاد) (والبحيرة) ، فانكسرتا ، وغرق من بهما من الجنود والضباط ، وعددهم ١٩٢٠ مقاتل ، لم ينج منهم سوى ١٣٠ ، وكان من الغرقى حسن باشا الاسكندرانى وسنان بك من قواد الاسطول المصرى

وانتهت حرب القرم بفوز تركيا وحلفائها على الروس وسقوط قلعةسباستبول ، وأبرم الصلح سنة ١٨٥٦ فى مؤتمر باريس الذى سلمت فيه الروسيا بمطالب الحلفاء

(٢) حرب المكسيك

والحرب الثانية هى حرب المكسيك ، وقد تأخذك الدهشة من اشتراك مصر فى حرب المكسيك بأمريكا ، إذ لا ناقة لها فيها ولا جمل ، ولكن كذلك شاءت ميول سعيد نحو نابليون الثالث امبراطور فرنسا فى ذلك العهد وصداقته له أن يلبى دعوته حينما طلب اليه أن يمده بقوة حربية مصرية تعاون الجيش الفرنسى بها

كانت المكسيك جمهورية تتخللها الفتن والثورات ، كما هو شأنها الى اليوم ، وكان يتولى رآسة جمهوريتها سنة ١٨٦١ المسيو جوارز Juarez ، فقامت بالبلاد فتنة بقصد إسقاطه وانتزاع السلطة من يده ، فصادفت هذه الحركة هوى فى نفس الامبراطور نابليون الثالث ، واعتزم أن يعضدها ليبسط نفوذه على المكسيك ويؤسس بها امبراطورية تحت رعايته ، وتذرع بما لحق الرعايا الأوروبيين فى الحرب الأهلية من

---

(١) مصر الحديثة المسيو مريو ص ٤٢

المضار ، فطالب الحكومة المكسيكية بتعويض هذه الخسائر فلما رفضت ألب عليها انجلترا واسبانيا ، ثم ما لبثت هاتان الدولتان أن نفضتا أيديهما من المسألة ، أما نابليون فقد جرد على المكسيك جيشاً كان مصيره الى الهزيمة ، واستنجد فى خلال الحرب بصديقه سعيد باشا ، فسرعان ما أمده بكتيبة من الجنود السودانيين عددهم ١٢٠٠ مقاتل ، يقودهم البكباشى جبرة الله محمد السودانى ، والصاغ محمد افندى ألماس ، فأبحرت هذه القوة الى المكسيك سنة ١٨٦٢ ، وأبلت فى الحرب هناك بلاء حسناً ، وشهد لها المارشال فورى Forey قائد الجيش الفرنسى بالشجاعة إذ قال عن جنودها « إن هؤلاء ليسوا من الجنود ، بل هم أسود »(١) واستمرت الحرب سجالا بين الجيش الفرنسى وقوات الثورة ، وأعلنت الامبراطورية فى عاصمة المكسيك فترة من الزمن ، واعتلى عرشها الأرشيدوق مكسميليان النمسوى سنة ١٨٦٤ ، ثم كانت الغلبة لقوات الثورة ، فجلا الفرنسيون عن البلاد ، وقتل الامبراطور مكسيميليان رمياً بالرصاص سنة ١٨٦٧ ، وفى غضون ذلك ظلت الكتيبة المصرية تكافح فى تلك البلاد السحيقة نيفاً وأربع سنوات ، قتل فى خلالها البكباشى جبرة الله ، فخلفه ألماس افندى ، وفنى معظم رجالها ، ولم يبق منهم بعد انتهاء الحرب سوى بقية من ضباطها ، ونحو ثلثمائة من جنودها ، ولما جلا الجيش الفرنسى عن المكسيك عادت الكتيبة الى فرنسا ، فاستعرضها الامبراطور نابليون الثالث ، يصحبه القائد المصرى شاهين باشا ، الذى كان يزور باريس وقتئذ ، فهنأ الامبراطور ألماس افندى على شجاعة الكتيبة وحسن نظامها ، ووزع الأوسمة على بعض المميزين من رجالها ، ورجعت الى مصر فى مايو سنة ١٨٦٧ ، فاستعرضها الخديوى اسماعيل بسراى رأس التين بالاسكندرية ، وأمر بترقية طائفة منها ، وأقام لطيف باشا وزير البحرية مأدبة لضباطها تكريماً لهم ولسائر رجال الكتيبة

---

(١) راجع تاريخ هذه الكتيبة في البحث المسهب المنشور فى مجلة مصر Revue d'Egypte بالسنة الأولى (١٨٩٤) ص ١٠٤ وما بعدها ، وما ذكره اسماعيل باشا سرهنك فى كتابه حقائق الأخبار ج ٢ ص ٢٧٦

السودان

مر عهد عباس الأول دون أن ينال السودان منه التفاتاً ما ، ولم يحدث فى عهده مما يسترعى النظر سوى إنشاء المدرسة الابتدائية بالخرطوم ، وقد فصلنا الكلام عنها بالجزء الثالث من تاريخ الحركة القومية (ص ٤٨٨)

وتولى منصب الحاكم العام للسودان فى عهد عباس خالد باشا الذى كان يشغله من عهد محمد على ، ثم عبد اللطيف باشا الذى أنشئت فى عهده مدرسة الخرطوم الابتدائية ، ثم رستم باشا وقد مات بالخرطوم ، ثم اسماعيل باشا أبو جبل ، ثم سليم باشا ، ثم على باشا سرى

ولما توفى عباس الأول وخلفه سعيد باشا نال السودان نصيباً من اهتمامه . فقد اقتبس من أبيه فضيلة العناية بهذا الاقليم العظيم المتمم لمصر ، وفى أول عهده جعل على باشا شركس حكمداراً للسودان ، وأوفد أخاه الأمير عبد الحليم باشا للتفتيش على إدارته ، واصلاح شؤونه ، ولكن الأمير لم يطل البقاء فيه ، لظهور وباء جعله يعجل بالعودة الى مصر .

ثم اعتزم سعيد أن يزور السودان بنفسه ليتفقد أحواله كما فعل أبوه من قبل ، فذهب اليه يصحبه طائفة من خاصة رجاله وأصدقائه ، مثل راغب باشا ، وذو الفقار باشا ، وابراهيم بك النبراوى ، والمسيو فردينان دلسبس ، والدكتور أباته باشا ، وأرا كيل بك أخى نو بار باشا وغيرهم ، ووصل إلى الخرطوم فى ١٦ يناير سنة ١٨٥٧ والتقى بأعيان الاهلين ، فقدموا له عرائض يشكون فيها من فداحة الضرائب ، ومظالم الحكام ، فاستمع لشكاياتهم ، وتألم لحالتهم ، وساورته يوما فكرة اخلاء السودان ، ولكن أعيان البلاد ومشايخها توسلوا اليه أن يعدل عن رأيه ، محتجين بأن اخلاء السودان يؤدى لا محالة الى تفاقم الحالة فيه ، إذ تعمه الفوضى ، فعدل سعيد عن رأيه ، واعتزم اصلاح حالته ، فأمر باعفاء الأهالى من المتأخر عليهم من

الأموال ، وخفض الضرائب تخفيضاً عظيما ، ووضع قاعدة ثابتة لتقدير قيمتها بأن جعلها تتبع عدد السواقى فى الأطيان ، لان السواقى تبين مبلغ خصب الارض ، ودرجة انتاجها ، فجعل على مجموع الأرض التى تروى من ساقية واحدة ٢٠٠ قرش ، وأما الاطيان التى تروى من غير حاجة الى السواقى فجعل على الفدان الواحد منها ضريبة تتراوح بين ٢٠ و ٢٥ قرشا

وقرر عزل الموظفين الترك الذين كان الأهالى يشكون من سوء معاملتهم ، واعتزم تعويد الأهلين حكم أنفسهم بانشاء مجالس محلية مؤلفة من أعضاء يختارون من رؤساء العشائر والعائلات (١) ورفع المظالم عن الأهلين ، وفك اسار الكثيرين منهم ، ورسم بالغاء السخرة ، وأمر مديرى الأقاليم السودانية بأن يحسنوا معاملة الأهلين، وألا يرهقوهم فى جباية الضرائب ، وقضى أن لا يعهد الى الجنود فى تحصيل الضرائب لما اشتهر عنهم من القسوة

ومن اصلاحاته بالسودان أنه أنشأ محطات فى صحراء (كروسكو) ، لتسهيل نقل البريد والمسافرين بين مصر والسودان ، ونظم البريد بين مختلف أنحاء السودان ، وأنشأ نقطة عسكرية على نهر سوباط لمنع تجارة الرقيق ومطاردة النخاسين

ولما عاد الى مصر عهد الى موجيل بك كبير المهندسين تسهيل سبيل المواصلات بين وادى حلفا والخرطوم ، فرأى موجيل بك أن خير وسيلة لادراك هذا الغرض إنشاء سكة حديد ووضع مشروعاً لذلك ، ولكنه لم ينفذ لكثرة ما يقتضيه من النفقات ، وقد أبطل منصب الحاكم العام (حكمدار السودان) ، وجعل من السودان خمس مديريات مستقلة فى إدارتها بعضها عن بعض ، ترجع كل منها فى شؤونها الى وزارة الداخلية ، شأن مديريات القطر المصرى ، وجعل من الخرطوم وسنار مديرية واحدة ، وعين أراكيل بك نوبار مديراً لها ، لكى يشرف على الاصلاحات التى

---

(١) ذكر ذلك المسيو فردينان دلسبس فى كتابه (ذكريات أربعين سنة) ج ٢ ص ٤٨٨

قررها ، وقد بقي يتولى منصبه الى أن توفى سنة ١٨٥٩ ، ثم خلفه حسن بك سلامه حتى عزل ، وخلفه محمد بك راسخ .

ثم رأى سعيد باشا أن استقلال مديرى الأقاليم جعلهم يجنحون الى الاستبداد والظلم ، ويسيئون الى الأهلين ، فألغى استقلالهم ، وأعاد منصب حكمدار السودان ، وقلد موسى باشا حمدى هذا المنصب ، فكان من أعظم ولاة السودان شأناً ، وله فيه إصلاحات جمة ، منها أنه عين من الأهلين نظار أقسام (مأمورى مراكز) ، ومعاونين ، وعقد ورؤساءهم مجلساً ، وسن قوانين جديدة لتنظيم الضرائب ، وتسهيل جبايتها .

وقد عضد سعيد الرحلات والاكتشافات الجغرافية فى أنحاء السودان ، فكثر عدد المكتشفين فى عهده ، ولكنه لم يحذ حذو أبيه فى ايفاد بعثات مصرية كالبعثة التى أنفذها محمد على الى السودان بقيادة البكباشى سليم بك قبطان أحد ضباط البحرية المصرية ، بل ترك أمر هذه الرحلات للمكتشفين الاجانب ، وهى ناحية ضعف وقع فيها هو واسماعيل من بعده

رحلة سعيد باشا الى الحجاز

قصد سعيد باشا الى الحجاز فى أوائل سنة ١٨٦١ ، وتدل ملابسات هذه الرحلة على أن لها غرضا سياسيا ، فانه لم يذهب الى الحجاز فى موسم الحج واقتصر على زيارة المدينة المنورة ، وكانت الرحلة أشبه بتجريدة عسكرية ، إذ كان يصحبه من الجند والحاشية نحو ألفى رجل من مشاة وفرسان ومدفعية واتباع ، واختلفت الآراء فى الباعث لسعيد على هذه الرحلة ، ويؤخذ من رواية محمد بك صادق (باشا)(١) الذى رافق الامير فى رحلته ان لها سببا سياسيا ، وهو استدعاء الحكومة التركية اياه للحضور الى الاستانة ، فرفض الذهاب اليها ، واعتزم زيارة

---

(١) فى بحثه المنشور بمجلة الجمعية الجغرافية عدد مايو سنة ١٨٨٠ ص ١٩ تحت عنوان المدينة منذ عشرين عاما Medine il y a vingt ans

المدينــة لـكى يتمحل الاعذار و يجد مسوغا للرفض، و بدأ سعيد باشا رحلته فى ١١ رجب سنة ١٢٧٧ هـ (٢٣ يناير ســنة ١٨٦١) فقصد من القاهرة الى السويس ، ومنها الى (الوجه) من ثغور الحجاز ، ثم سارت الحملة براً الى المدينــة المنورة ، فوصلتها فى أول شعبان (١٢ فبراير) ، و بعد أن زار سعيد باشا قبر المصطفى غادر المدينة فى اليوم السادس منه ، وسار الى ينبع ، ومنها استقل الباخرة (نجد) الى السويس فوصل اليهــا فى ١٧ منه (٢٨ فبراير)

التعليم

لم يوجه سعيد باشا عنايته الى إحياء النهضة العلمية ، واستمر الجمود الذى أصابها فى عهد عباس ، وهذا موضع نقد شديد فى تاريخه

وقد حاول المسيو (مريو) ، وهو من المعجبين بسعيد ، أن يتلمس مسوغاً لهذا التقصير المعيب ، فلم يجد ما ينهض بدفاعه ، قال فى كتابه (مصر الحديثة)

« لا يخفى أن المدارس قد أهملها عباس ، فأصابها الاضمحلال والتدهور ، و بلغت حين تولى سعيد الحـكم درجة من التقهقر والفوضى جعل الباشا يرى من الحـكمة إقفالها نهائياً ، بدلا من السعى فى تنظيمها ، إذ كان هذا السعى عبثاً لا يجدى »(١)

وهــذا دفاع كما ترى لايسوغ عمل سعيد ، إذ ليس من المعقول ولا ممـا يقبله المنطق أن يعالج التقهقر فى المدارس باقفــالها ، بل العلاج المشروع هو تنظيمها و إصلاحها ، و إذا كانت عزيمة محمد على قد أوجدت المدارس من العدم ، فأسهل من ذلك إصلاح ما اختل من شؤونها

تولى سعيد الحـكم وليس بالقطر المصرى من المدارس التى أنشئت فى عهد محمد على سوى النزر اليسير ، فلم يعمل على إحياء ما اندثر منها . بل ظهر عدم اكتراثه

---

(١) مصر الحديثة . للمسيو مريو ص ٨٢

بشؤون التعليم بالغاء ديوان المدارس (وزارة المعارف) وكان يديره وقتئذ عبدى شكرى باشا

وألغى أيضاً مدرسة المهندسخانة ببولاق سنة ١٨٥٤ ، وكان يتولى نظارتها العلامة على بك مبارك (باشا) فأنفذه سعيد ضمن الحملة التى أرسلها لمساعدة تركيا فى حرب القرم ، واغتنم هذه الفرصة لاقفال المدرسة ، وألغى أيضا مدرسة (المفروزة) سنة ١٨٥٥ .

وانشأ مدرسة حربية بالقلعة عهد بنظارتها الى العلامة رفاعة بك رافع وسميت مدرسة أركان حرب

ثم أعاد سعيد فتح مدرسة المهندسخانة سنة ١٨٥٨ وجعلها مدرسة حربية نقلها الى القلعة السعيدية بالقناطر الخيرية وسميت المدرسة الحربية ، وأعاد فتح المدرسة البحرية بالاسكندرية ، وفى عهده أقفلت مدرسة الطب بقصر العينى ، ثم أعاد فتحها سنة ١٨٥٦ ، وأنشأ بها مدرسة للقابلات عهد بنظارتها والتدريس فيها الى السيدة جليلة تمرهان التى تلقت علومها الطبية فى مدرسة القابلات القديمة المنشأة على عهد محمد على والملغاة فى عهد عباس

وقترت حركة البعثات العلمية فلم يرسل الى أوروبا سوى ١٤ طالباً

ومع جمود حركة التعليم الى هذا الحد فانه لم يبخل على البعثات الأجنبية الدينية بمساعداته كى تفتح مدارسها . فمنح إعانات سنوية لراهبات «البون باستور» Bon Basteur (الراعى الصالح) وكانت لهن مدرستان بمصر والاسكندرية ، ولراهبات الصدقة بالاسكندرية ، ووهب للبعثة الامريكية بناء بمصر لتتخذه مدرسة لها ، وأعطى أول مدرسة إيطالية أنشأتها الحكومة الايطالية بالاسكندرية إعانة قدرها ٢٤٫٠٠٠ جنيه ، ووهب لها قطعة أرض فى أجود جهات الاسكندرية لتنشىء بها المدرسة ، فكانت عنايته بنشر التعليم الأجنبى أكبر من عنايته بنشر التعليم الأهلى ، وهذا من متناقضاته



سعيد باشا والى مصر

من سنة ١٨٥٤ الى ١٨٦٣

نظام الحكم فى عهد عباس وسعيد

النظام السياسى

بقى الحكم فى عهد عباس وسعيد حكما مطلقا يتولاه ولى الامر إذ كان يجمع فى يده السلطة التشريعية والتنفيذية والقضائية ، فهو المرجع فى كليات الأمور وجزئياتها

واهمل (مجلس المشورة) الذى أسسه محمد على وانعقد على عهده حينا وكان نواة لنظام شورى (راجع الجزء الثالث من تاريخ الحركة القومية ص ٥٧٢) فلم يظهر له أثر فى عهد عباس وسعيد

المجلس الخصوصى

ذكرنا فى الجزء الثالث من تاريخ الحركة القومية (ص٥٧٩) ان محمد على انشأ سنة ١٨٤٧ مجلسا دعاه (المجلس الخصوصى) ، واختصاصه النظر فى شؤون الحكومة الكبرى ، وسن اللوائح والقوانين ، واصدار التعليمات لجميع مصالح الحكومة ، وكان يرأسه ابراهيم باشا

وقد أعيد تأليف هذا المجلس فى عهد عباس الأول بمقتضى لائحة صدرت فى ٨ ربيع الآخر سنة ١٢٦٥ (١٨٤٩) وتولى رآسته الكتخدا باشا وهو أكبر موظف بالحكومة ، واعضاؤه من كبار الذوات والعلماء ، واختص بنظر المسائل العامة للحكومة وسن اللوائح والقوانين وترتيب النظم العمومية وتنصيب رؤساء المصالح الكبرى ، فكان بمنزلة مجلس النظار ، وتولى السلطة التشريعية ، وشاركه فيها مجلس الاحكام ، وقد بقى هذا المجلس قائما الى أن خلفه مجلس النظار فى عهد اسماعيل

الوزارات

وفى سنة ١٨٥٧ أعاد سعيد باشا تنظيم الدواوين فجعل منها أربع وزارات وهى الداخلية ، وقد عهد بها الى الأمير احمد رفعت ، والمالية وعهد بها الى الأمير مصطفى

فاضل ، والحربية وتولاها الأمير محمد عبد الحليم ، والخارجية وتقلدها اسطفان بك أحد خريجى البعثات فى عهد محمد على

النظام القضائى

مجلس الأحكام

وكان فى البلاد منذ عهد محمد على هيئة قضائية عليا تسمى (جمعية الحقانية) انشئت سنة ١٨٤٢ وقد سميت هذه الهيئة منذ سنة ١٨٤٩ مجلس الاحكام ، وهو المجلس الذى كان له شأن كبير فى عهد سعيد واسماعيل ، وكان بمثابة الهيئة الاستئنافية العليا فى البلاد ، ويتألف من تسعة أعضاء من الكبراء ومن عالمين أحدهما حنفى والآخر شافعى ، وكان أيضا يشارك (المجلس الخصوصى) فى السلطة التشريعية

مجالس أو محاكم الأقاليم

بقيت المحاكم الشرعية كما كانت فى عهد محمد على ، وبقى لها اختصاصها فى المسائل المتعلقة بالاحوال الشخصية وانتقال الملكية ، غير أنه انشئت محاكم أو « مجالس » جديدة للفصل فى المسائل المدنية والتجارية سميت (مجالس الاقاليم) ، بلغ عددها خمسة فى بداءة تأسيسها ، وهى (مجلس طنطا) ويختص بنظر قضايا الغربية والمنوفية والبحيرة ، و (مجلس سمنود) ويختص بنظر قضايا الدقهلية والشرقية والقليوبية ، و (مجلس الفشن) ويختص بنظر قضايا الجيزة والمنيا وبنى مزار وبنى سويف والفيوم ، و (مجلس جرجا) ويختص بنظر قضايا أسيوط واسنا وقنا ، و (مجلس الخرطوم) ويختص بنظر قضايا السودان

وكان كل مجلس يتألف من رئيس وأربعة أعضاء ، وأربعة كتاب عدا (مجلس سمنود) فانه يتألف من رئيس وعضوين

وعين لكل مجلس اثنان من العلماء بوظائف مفتين أحدهما حنفى والآخر شافعى

وكان (المجلس الخصوصى) و (مجلس الأحكام) يصدران اللوائح والقوانين لهذه المجالس ، فكان بمثابة الهيئتين التشريعيتين فى البلاد ، و يتبين من ذلك أن مجلس الاحكام فوق كونه هيئة قضائية عليا كان أيضا هيئة تشريعية

ولاية القضاء

إن أهم إصلاح قضائى تم فى عهد سعيد أنه نال من السلطان حق اختيار القضاة بعد أن كان العمل جارياً على أن قاضى القضاة المولى من قبل السلطان هو الذى يعينهم (١)

وهذا الاصلاح فضلا عما فيه من تحقيق الاستقلال القضائى لمصر فانه منع مصدراً من مصادر الفساد فى النظام القضائى ، فان قاضى القضاة كان يعين القضاة حسبما تملى عليه أهواؤه ، وكثيراً ما يجعل تعيينهم مقابل جعل من المال ، وفى ذلك من إفساد القضاء ما لا يخفى عن الأذهان

إلغاء مجلس الأحكام ثم إعادته

وفى سنة ١٨٥٥ غضب سعيد باشا على مجلس الأحكام ، فأصدر أمراً بالغائه ، وقيل ان سبب هذا الالغاء اعتقاد سعيد باشا أن أعضاءه لم ينهجوا طريق الاستقامة ، وقد أمر باحالة الدعاوى التى كانت من خصائص المجلس على الأمير اسماعيل باشا (الخديوى) وكلفه عرض ما يلزم عرضه على سعيد باشا ذاته ، أى أنه لم ينشىء هيئة أخرى مكان مجلس الأحكام المذكور ، ولكنه رجع وأمر باعادة تأليف مجلس الأحكام وأسند رآسته الى الأمير اسماعيل باشا سنة ١٨٥٦ ، وألفه من عشرين عضواً منهم أحد عشر عضواً من الأعيان وتسعة من الذوات

ولم يمض عامان على تأليف هذا المجلس حتى عاد سعيد باشا وغضب عليه ، وكان سعيد مشهورا بكثرة تقلبه فى الآراء والميول ، وسبب غضبه انه انتهى اليه

---

(١) مصر الحديثة . المسيو مريو ص ١٨

أن أعضاءه ارتكبوا الرشوة فى قضية عرضت عليهم ، فارتأى الغاءه سنة ١٨٦٠ ، وألغى كذلك (مجالس الاقاليم)

على أنه عاد بعد ذلك سنة ١٨٦١ وأمر باعادة مجلس الاحكام وعين محمد شريف باشا (الذى صار فيما بعد الوزير المشهور) رئيساً له ، وكان من قبل ناظراً للخارجية ، وأعاد كذلك مجالس الاقاليم ، ولكنه اقتصر منها على مجلسين ، أحدهما بطنطا ، ويختص بنظر قضايا الوجه البحرى ، والثانى باسيوط ، ويختص بنظر قضايا الوجه القبلى

وكان العمل أمام (مجلس الاحكام) ومجالس الاقاليم يجرى طبقا للقانون العثمانى ، والقوانين التى أصدرها سعيد باشا

وكان مجلسا طنطا وأسيوط يحكمان ابتدائيا فى المنازعات ، ومجلس الاحكام ينظر فيها بصفة استئنافية ، ولما تولى الخديوى اسماعيل أعاد تأليف مجالس الأقاليم بأن عممها فى المديريات كما سيجىء بيانه

قضاء الأجانب

بقيت محاكم التجارة التى أنشئت فى عهد محمد على قائمة الى عهد سعيد واسماعيل وهى المسماة (مجالس التجار) فى الاسكندرية ومصر ، وكانت المحافظات والضبطيات تنظر فى المشاكل الخاصة بالاجانب ، ولكن كثرة نزوح الاجانب الى مصر وما استتبعه من ازدياد هذه المشاكل جعل جهات الادارة لاتستطيع التفرغ لحسمها ، فانشىء سنة ١٨٦١ مجلس خاص باسم (قومسيون مصر) أو مجلس القومسيون ، يتألف من رئيس مصرى وعضوين مصريين ، وعضو أوربى ، وآخر يونانى ، وعضو اسرائيلى ، وآخر أرمنى .(١)

ويختص بنظر القضايا التى ترفع من الاجانب على الرعايا المحليين ، وللقنصليات أن ترسل مندوبا من قبلها لحضور الجلسات ، وأحكامه تستأنف أمام (مجلس

(١) انظر كتاب المحاماة لفتحى باشا زغلول ص ٨٥ ملحقات

الاحكام) ولم يكن من اختصاصه النظر فى المسائل المتعلقة بالعقار ، بل كان النظر فيها من اختصاص المحاكم الشرعية باعتبارها وقتئذ المحاكم العادية فى البلاد

ثغرات التدخل الاجنبى

اجتمع فى سعيد باشا عيبان جوهريان ، الأول ضعف إرادته وقلة حظه من الحزم والعزم ، والثانى وهو أكبر خطراً وأسوأ أثراً من الأول ، ونعنى به ثقته بالأجانب ثقة مطلقة ، بحيث لم يكن يقوى على أن يخالف لهم رأياً ، أو يرد لهم طلباً ، وقد اتخذ منهم بطانته وموضع سره ، فانفتحت فى كيان مصر ثغرات التدخل الأجنبى ، وأهم هذه الثغرات منح امتياز قناة السويس ، والاستدانة من البيوت المالية الأجنبية

(١) امتياز قناة السويس

نظرة عامة

يعد مؤرخو أوروبا ، والفرنسيون منهم خاصة ، مشروع قناة السويس مفخرة سعيد باشا ، ويقولون إنه بهذا العمل قد أدى أعظم خدمة للانسانية والحضارة ، وهم فيما يقولون إنما ينظرون الى هذا العمل من وجهة النظر الأوروبية ، فلا شك أن قناة السويس قد أفادت التجارة الأوروبية فوائد كبرى ، بتقريبها طريق المواصلات بين أوروبا والشرق ، وأفادت أيضاً الاستعمار الأوروبى ، لأنها مكّنت الدول الاستعمارية من إرسال الحملات والتجاريد الحربية من طريق القناة الى آسيا وأفريقية لاخضاع ممالك الشرق وشعوبه ، ورفعت عن تلك الدول مشقات اجتياز طريق المحيط الأطلنطى ، ورأس الرجاء الصالح ، ذلك الطريق الطويل المحفوف بالمكاره والأخطار

فمن الوجهة الأوروبية لا جدال فى أن فتح قناة السويس عاد باعظم الفوائد على التجارة الأوروبية والاستعمار الأوروبى

أما من وجهة النظر المصرية ، فالقناة كانت شؤما على البلاد واستقلالها ، لأنها أطمعت فيها دول الاستعمار ، وجعلتها تسعى سعيا حثيثا للاستيلاء على مصر ، وتضاعف جهودها القديمة لتحقيق هـذا الغرض ، ومن المحقق أن مساعى انجلترا خاصة فى احتلال مصر قد تضاعفت واشتدت بعد أن شقت القناة أرض مصر ، وحجتها فى ذلك أنها أرادت الاطمئنان على هذا الطريق الجديد الواصل الى الهند ، وتستأثر بوضع يدها عليه ، وهى حجة لا أساس لها من الحق والانصاف ولكنها الأمر الواقع الذى توحى به مطامع الفتح والاستعمار ، فانجلترا بعد فتح القناة صارت اكثر تطلعا وأقوى تحفزا الى احتلال مصر ، فلا عجب أن كانت مصر ضحية قناة السويس ، تلك حقيقة واقعة ، كان يجب أن لا تفوت سعيد باشا عند ما منح امتياز القناة ، وان يفطن اليها اسماعيل باشا عند ما بذل تأييده للمشروع بعد اعتلائه العرش حتى وصل به الى غايته

واذا كان المؤرخون الافرنج يعدون مشروع القناة أكبر مفخرة لسعيد باشا ، فاننا نعده بالعكس أكبر غلطة له فى تاريخه ، لانه بعمله هذا قد فتح باب التدخل الاستعمارى فى مصر على مصراعيه ، وجعلها هدفا للمطامع الأوروبية

ويزيد فى تبعته انه كان عالمـا برأى أبيه العظيم محمـد على ومعارضته فى فتح القناة ، ويعلم عند مامنح امتيازه أنه خالف وصايا أبيه الذى كان يعد القناة بوسفورا ثانيا يجعل مصر واستقلالها عرضة للخطر

إن المسألة المصرية قد دخلت دوراً جديداً بعـد فتح القناة ، إذ صار يُنظر اليها كأنها هى مسألة قناة السويس ، فكأنها اندمجت فيها ، وتبدّلت أوضاعها تبعاً لهذا الاندماج، وصار النظر اليها من ناحية الدول الاستعمارية مرتبطا بوجهة نظرها فى مسألة القناة ، ومعلوم ان انجلترا جعلت خطتها فى مسألة القناة أن تسعى جهدها فى وضع يدها عليهـا وعلى الارض التى تجتازها ، وأن يكون بيدها مفاتيح القنـاة ، ولذلك وضعت نصب عينيها أن تحتل مصر بعد أن تم فتح هذا الطريق البحرية الخطيرة الواصلة الى مستعمراتها فى الشرق

ففتح القناة يعادل فى تأثيره الاستعمارى بالنسبة للمسألة المصرية غزوة نابليون بونابرت ، فكما أن الحملة الفرنسية جعلت انجلترا تتطلع الى احتلال مصر ، كذلك كان شأن قناة السويس ، والفارق بين الحادثين أن انجلترا قد أخفقت فى تحقيق مطامعها التى أثارتها الحملة الفرنسية ، وارتدت عن الكنانة دون أن تنال منها منالا ، وسويت المسألة المصرية فى عصر محمد على طبقا لمعاهدة لندن سنة ١٨٤٠ ، تلك المعاهدة التى كفلت لمصر استقلالها الداخلى التام ، وبقيت المسألة المصرية سائرة على منهاج تلك المعاهدة إلى أن تم فتح القناة ومن ثم تغيرت أوضاعها ، وسعت انجلترا من جديد فى تحقيق أطماعها القديمة التى أخفقت خلال النصف الاول من القرن التاسع عشر ، فلا جرم أن كان فتح القناة مقدمة دور جديد للمسألة المصرية ، ولقد كان هذا الدور شؤما على البلاد ، إذ اجتمعت فيه الظروف السيئة التى مكنت انجلترا من تحقيق أطماعها فى مصر ، فان فتح القناة فى ذاته ، وبيع اسماعيل أسهم مصر فيها الى الحكومة الانجليزية ، قد هيأا لانجلترا أن تخطو أول خطوة نحو الاحتلال .

فسعيد باشا لم ينظر الى القناة كعمل حيوى لمصر ، وأغلب الظن انه لم يوازن بين مزاياها ومضارها بل نظر الى فائدتها للانسانية فحسب ، ولقد زينت له نصائح المسيو فرديناند دلسبس أنه بهذا العمل يعد من أكبر خدام الحضارة ، وبديهى أن النظر الى القناة من وجهة فائدتها للانسانية هو وهمٌ لا يليق بالأمم التى تقدر معنى الوجود والحياة ، لان حياة الأمة واستقلالها مقدمان على كل خدمة عامة للانسانية ، وليس فى تاريخ الشعوب قديما وحديثا أمة رضيت أن تضحى بأية مصلحة لها مهما ضؤلت ، بَلْهَ استقلالها ، فى سبيل خدمة الانسانية ، فالحق أن هذه أوهام لا تجوز إلا على الأمم المستضعفة ، فاننا على العكس نرى الأمم التى نتخذها مثالا للتقدم والعظمة تهزأ بتلك الأوهام ، وتضحى بمصالح الأمم والانسانية جمعاء تحقيقا لاطماعها

الاستعمارية بل تستبيح كل الوسائل فى سبيل السيطرة على العالم، واستعباد الشعوب

فمن أضعف النظريات وأبعدها عن العقل والمنطق ان يقال أن سعيد واسماعيل يستحقان الاعجاب لانهما خدما الانسانية بانفاذ مشروع القناة ، والحقيقة المؤلمة انهما بعملهما هذا قد مهدا السبيل لاحتلال انجلترا مصر

والآن ننتقل من الاجمال الى التفصيل فنقول ، إن سعيد باشا بمنحة المسيو دلسبس امتياز القناة قد جلب على البلاد مضار جسيمة نذكرها فيما يلى :

اولا — ان القناة عرضت استقلال مصر للخطر ، ولم يكن هذا الخطر ليخفى على ذى بصيرة فى الأمور ، فلقد أدركه السياسيون الأوروبيون من يوم البدء فى المشروع

ومما يذكر فى هذا الصدد أنه لما تم منح الامتياز كتب المستر بروس Bruce قنصل انجلترا فى مصر وقتئذ الى حكومته ينبئها بالخبر ، ويقول فى ختام رسالته « إن فتح القناة سيؤدى الى ازدياد المواصلات التجارية بين اوروبا والبلاد الواقعة على البحر الاحمر ، وستنشأ طبعا مراكز للدول الاجنبية فى هذه البلاد ، ومن المنتظر أن تحدث منازعات بينها وبين تلك الشعوب ، فتتخذ ذريعة الى التدخل المسلح فى شؤونها ، وهذا التدخل يفضى الى الاحتلال الدائم ، ويتوقع ان تحدث هذه النتائج فى مصر ذاتها »

فهذا التنبؤ الذى أدركه القنصل الانجليزى سنة ١٨٥٤ هو ما كان يجب أن يتوقعه كل من عنده قليل من بعد النظر فى السياسة ، وهو ما وقع على مر السنين فان انجلترا بعد أن تم فتح القناة سعت سعيها فى احتلال مصر ، وتم لها ذلك سنة ١٨٨٢ أى بعد اثنى عشر عاماً من افتتاح القناة للملاحة ، إذ كان افتتاحها سنة ١٨٦٩ ، ومن مصادفات القدر أنه عند مافتحت القناة كان المستر غلادستون على رأس الوزارة الانجليزية ، وعند ما احتلت انجلترا مصر سنة ١٨٨٢ كان هو أيضاً يشغل هذا المنصب

ويدخل فى هذا السياق ، أنه لما اشتدت معارضة انجلترا فى فتح القناة ،

وجرت مفاوضات بشأن إقناعها بالعدول عن معارضتها ، كان مما اشترطته الحكومة الانجليزية لموافقتها على المشروع احتلالها السويس ، وحمايتها للقناة ، فيتبين من ذلك أن انجلترا لم تكن تخفي نياتها الاستعمارية نحو مصر عند إنشاء القناة ، ولم يكن خافياً أن هذا المشروع يجعل استقلال مصر هدفاً لمطامعها الاستعمارية

وفى هذا الصدد يقول مؤلف (تاريخ مصر المالى) وهو من الكتاب الأوروبيين المشهود لهم بالاعتدال و إصالة الرأى « إن منح امتياز القناة الى المسيو دلسبس قد فتح أبواب الدلتا على مصراعيها للأوروبيين »(١)

ويقول المسيو كوشرى Cocheris « إن بدء الارتباكات المالية والتدخل الأوروبى المشؤوم فى شؤون مصر يرجع فى الحقيقة الى سنة ١٨٥٤ وهى السنة التى منح فيها امتياز قناة السويس الى المسيو دلسبس »(٢)

(ثانيا) ان سعيد باشا بقبوله انشاء القناة على يد شركة أجنبية فتح ثغرة ثانية للتدخل الاجنبى ، وكان الضرر أخف وطأة لو فتحتها مصر بنفسها ولحسابها

(ثالثا) أنه أسرف فى منح الشركة امتيازات وحقوقا جعلتها شريكة مصر فى سيادتها وجعلت منها حكومة داخل الحكومة كما سيجىء بيانه

(رابعاً) لم تستفد مصر من الوجهة الاقتصادية فائدة ما من القناة ، بل على العكس أضرتها اقتصاديا ، لان طريق التجارة بين أوروبا والشرق تحولت من داخل مصر الى القناة المائية التى أصبحت ملكا لشركة أوروبية ، فخسرت مصر الارباح التى كانت تعود عليها من مرور المتاجر فى وسط الدلتا ، بطريق النيل أو السكك الحديدية المصرية ، وانتقلت هذه الارباح الى شركة القناة ، وهذا من غير شك خسران كبير

---

(١) تاريخ مصر المالى . ص ٣ لمؤلف لم يعلن اسمه (ولعله المسيو بابونو Paponot) ويعد كتابه من أهم المراجع فى بيان حالة مصر المالية على عهد سعيد وإسماعيل

(٢) المركز الدولى لمصر والسودان للمسيو كوشرى ص ٦٧

(خامساً) على الرغم من مضار المشروع لمصر فانها انفقت عليـه من مالها نيفا وستة عشر مليون جنيه ، بذلت فى أسهم اكتتب فيها ، وأملاك تنازلت عنهـا ، وأعمال قامت بها ، وتعويضات أدتها للشركة ، وقد خسرت هذه الملايين فى وقت كانت أحوج ماتكون اليها ، ولانفاذ مشروع كان شؤما عليها من كل الوجوه

ولئن عادت القناة يوما الى مصر فلا يمكن أن ننسى أن مصر خسرت فيها ثمناً باهظا وتضحيات جسيمة ، ويكفى أنها بذلت لها ستة عشر مليون جنيه من أموالها ، ثم حُرمت ماهو أعز من المال ، وهو الاستقلال وعندما تسترد مصر استقلالها تاما فستكون قد حُرمت استقلالهـا بسبب القنـاة ردحاً طويلا من الزمن ، وهو حرمان لا يعوض بمال

— نبذة وجيزة فى تاريخ المشروع —

لم يسبق لحكومة مصرية قديمـة أو حديثة أن وصلت البحرين الأبيض والأحمر بقناة ملحة تخترق برزخ السويس

فى عهد الفراعنة والفتح الاسلامى

وإنما وقع الاتصال عن طريق النيل ، فكانت ترعة الفراعنة القديمة تخرج من فرع النيل البيلوزى القديم ، وتسير بمحاذاة وادى الطميلات ، ثم تنثنى جنوبا فتخترق البحيرات المرة ، ثم تصب فى البحر الاحمر

وفى عهد الفتح الاسلامى انشأ عمرو بن العاص « الخليج » المعروف بخليج أمير المؤمنين بأمر الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه سـنة ٢٣ هجرية ، وكان يصل النيل بالبحر الأحمر ، ويبدأ من مصر القديمة ، حيث يبتدىء خليج مصر اليوم حتى القاهرة ، ومنها الى المطرية ، ومنها الى العباسة ، ثم يتبع آثار ترعة الفراعنة القديمة.

فى عهد الحملة الفرنسية

وفى عهد الحملة الفرنسية فكر نابوليون كما أسلفنا فى الجزء الأول من تاريخ

الحركة القومية (ص ١٢٤) فى وصل البحر الأحمر بالبحر الأبيض المتوسط ، وعهد بدرس هذا المشروع الى المسيو (لوبير) كبير مهندسى الرى والطرق والجسور ، فقضى عامين فى درسه وفحصه ، وعاونه فيه بعض مهندسى الحملة ، وقدم تقريرا الى نابليون بعد مغادرته مصر ، وكان تصميم المشروع كما وضعه المسيو لوبير ان تحفر قناة من السويس الى البحيرات المرة ، ويعاد حفر خليج أمير المؤمنين إلى ان يتلاقى مع بحر مويس بقرب بوباسط (الزقازيق) ، ومن بحر مويس الى فرع دمياط ، ومنه الى ترعة الفرعونية ، ومنها الى فرع رشيد ، ومنه الى الاسكندرية بواسطة ترعة الاسكندرية ، وحبذ المسيو لوبير أيضاً فكرة وصل البحرين رأساً بواسطة ترعة أخرى تخترق برزخ السويس ، فيما بين بيلوز (الطينة) على البحر الابيض المتوسط ومدينة السويس على البحر الأحمر ، غير انه اعتقد خطأ أن البحر الاحمر يعلو عن سطح البحر الأبيض بنحو تسعة أمتار ، وقد نشر لوبير مشروعه فى كتاب (تخطيط مصر) بالجزء الحادى عشر ، وفيه بحث مستفيض عن تخطيط ترعة الفراعنة القديمة ، وخليج أمير المؤمنين ، وتخطيط الجهات التى ينفذ فيها المشروع ، ونفقات انفاذه ، ويقع هذا البحث فى أكثر من ثلثمائة صفحة ، وهو من أجل الأبحاث التى وضعها علماء الحملة الفرنسية

فى عهد محمد على

جاء المسيو فردينان دلسبس الى مصر لأول مرة سنة ١٨٣١ على عهد محمد على باشا ، متولياً منصب مساعد للقنصل الفرنسى ، فأبدى الباشا نحوه عطفاً كبيراً لما كان بينه وبين أبيه الكونت ماثيو دلسبس Mathieu Delesseps من صلات الصداقة القديمة منذ كان قنصلا لفرنسا فى مصر سنة ١٨٠٣ ، واتصل فردينان دلسبس بالأمير محمد سعيد ، إذ عهد اليه أبوه أن يعنى بتربيته الرياضية ، فتعلم الأمير على يده أنواع الرياضة والمهارة فى ركوب الخيل ، ومن هنا نشأت صلات الود بينهما ، واستمرت صداقتهما طول حياة سعيد باشا

وقد وقع فى يد المسيو دلسبس وهو فى الاسكندرية بحث المسيو لو بير عن وصل البحر الأبيض بالبحر الأحمر ، وأكب على هذا البحث يدرسه درساً عميقاً ، فلم يلبث أن اتجهت نفسه الى تحقيق مشروع الاتصال بين البحرين بقناة بحرية ، ثم انتقل من منصبه بالقطر المصرى ، وطوحت به المناصب السياسية الى مختلف الأقطار ، على أنه كان لا يفتأ يفكر فى أمر هذا المشروع

لجنة سنة ١٨٤٦

وكان مشروع وصل البحرين بقناة ملحة موضع البحث والتفكير فى أوروبا بين مختلف المهندسين من يوم أن وضع المسيو لو بير تقريره عنه فى عهد نابليون ، وكان الخطأ الذى وقع فيه المسيو لو بير إذ ظن أن البحر الأحمر يعلو عن سطح البحر الأبيض بنحو تسعة أمتار عقبة يراها رجال الفن حائلة دون إمكان وصل البحرين عن طريق برزخ السويس

على أنه فى سنة ١٨٤٦ تألفت من بعض المهندسين من مختلف الأمم لجنة فنية لدرس مشروع حفر القناة ، وجاء أعضاؤها الى مصر لفحص المشروع فى أواخر عهد محمد على ، واستمروا على عهد عباس ، وعاونتهم الحكومة فى إجراء تلك المباحث ، وعهدت بتخطيط المواقع الى بعض كبار المهندسين مثل لينان بك (باشا) وسلامه افندى ابراهيم (باشا) و ابراهيم بك رمضان وطائل افندى وغيرهم ، وانتهت اللجنة الى أن فرق مستوى البحرين ليس أمراً ذا بال ، ورأت الوصل بينهما بشق ترعة تجتاز الدلتا

وكان محمد على منذ البداية معرضاً عن مشروع القناة ، غير راغب فيه ، لما يتوقعه إذا تم من العواقب الوخيمة ، فلم يستجب لدعوة المهندسين والماليين الأوروبيين الذين زينوا له المشروع ، بل كان يردهم بلطف وحكمة ، و يعدهم و يمنيهم ، وفى الوقت نفسه يضمر الإعراض عن هذا المشروع حتى انتهى حكمه

وقد بلغ به بعد النظر أنه لم يقبل أن يعهد الى شركة انجليزية مد سكة حديد

بين القاهرة والسويس ، حتى لا تكون هـذه السكة ذريعة الى التدخل الأجنبى ، وكذلك أعرض عباس باشا الأول عن مشروع القناة، وضرب صفحاً عن أبحاث اللجنة ، وحاول المسيو فردينان دلسبس أن يقنعه بفائدة المشروع ، وأرسل تقريراً عنـه الى المسيو رويسنر Ruyssenaers قنصل هولندا العام فى مصر ليعرضه على عباس ، ولكن الفكرة لم تلق من الأمير قبولا ، واتجه فكره الى تسهيل سبيل المواصلات بطريق البر بين الاسكندرية والسويس بدلا من شق ترعة ملحة بين البحرين ، فأصلح الطريق بين مصر والسويس وجعله صالحا لمرور العربات من غير عناء ولا مشقة ، ثم شرع فى إنشاء سكة الحديد بين الاسكندرية والقاهرة كما تقدم بيانه ، و يئس المسيو دلسبس من نجاح مشروعه على يد عباس الأول

فى عهد سعيد

فلما مات عباس وتولى الحكم سعيد باشا استبشر المسيو فردينان دلسبس خيراً بنجاح فكرته ، على يد صديقه القديم ، فأرسل اليه يهنئه بارتقاء العرش ، و يبلغه عزمه على الحضور ليقدم له فروض التهانى ، فأجابه سعيد على تهنئته ، واستدعاه الى مصر ، فسرعان ما جاء الاسكندرية (فى نوفمبر سنة ١٨٥٤) ، وقابله الباشا بحفاوة كبيرة ، ذاكراً صداقته القديمة ، ثم اصطحبه فى رحلة من رحلاته الحربية التى كان يسير فيها على رأس جنده ، وسار معه من الاسكندرية الى مصر عن طريق الصحراء الغربية ، وكان الأمير يقود فى هذه الرحلة جيشاً مؤلفاً من عشرة آلاف مقاتل .

فاغتنم المسيو دلسبس هذه الفرصة ليفاتح سعيد باشا فى أمر المشروع ، وكان لمهارته فى ركوب الخيل أثر فى تمهيد السبيل لنجاح مسعاه ، ذلك أنه امتطى صهوة جواد أهداه له الأمير ، فوثب به يوماً عن حاجز من الأحجار ، على مرأى من قواد الجند من حاشية سعيد ، فأعجبوا به و بمهارته وفروسيته ، وفى مقدمة المعجبين به ذو الفقار باشا وزير المالية الذى كانت له منزلة كبيرة لدى سعيد باشا

ففى اليوم التالى، فاتح المسيو دلسبس سعيد باشا فى أمر المشروع ، وزين له أنه إذا وفق اليه خلد ذكره واكتسب ثناء العالم بأسره[١] ، وبالرغم من أن سعيد باشا كان يصرح بأنه لايخالف وصايا أبيه فى الاعراض عن فتح القناة ، فانه ضعف أمام إغراء المسيو دلسبس ، وقبل المشروع ، ووعده بمساعدته ، وتأييده فى تحقيقه ، واستدعى قواد جنده ، وعرض عليهم الفكرة ، وكانوا متأثرين إعجاباً بفروسية المسيو دلسبس ، فسارعوا الى استحسان المشروع ، دون أن يبحثوه ، أو يوازنوا بين مضاره ومزاياه ، فكانوا هم وسعيد فى قصر النظر سواء

فانظر الى ما صارت اليه شؤون الدولة فى عهد سعيد ، وكيف كانت عظائم الأمور يبت فيها من غير بحث أو روية ، ولا نظر فى العواقب ، وهذا من أسباب الضعف الذى أصاب مصر فى عهد خلفاء محمد على ، وإنه لما يدعو الى الدهشة والألم معاً ، أن مشروعاً خطيراً كقناة السويس يقرر فى رحلة صحراوية ، من غير تمحيص ولا تفكير ، وأن مجرد إعجاب « رجال الدولة » بفروسية المسيو دلسبس ومهارته فى ركوب الخيل كان كافياً لاقرار المشروع . . !

ولم يفت المسيو دلسبس ملاحظة هذه الحقيقة المؤلمة ، فقد أشار اليها ، فى شىء من التهكم والسخرية ، قال فى هذا الصدد « جمع سعيد باشا قواد جنده ، وشاورهم فى الأمر ، ولما كانوا على استعداد لتقدير من يجيد ركوب الخيل ويقفز بجواده على الحواجز والخنادق أكثر من تقديرهم للرجل العالم المثقف ، انحازوا الى جانبى ، ولما عرض عليهم الباشا تقريرى عن المشروع ، بادروا الى القول بأنه لا يصح أن يرفض طلب صديقه ، وكانت النتيجة أن منحنى الباشا ذلك الامتياز العظيم »[٢]

وقال فى موضع آخر « بعد أن قبل سعيد باشا المشروع استدعى قواد جنده ، ودعاهم الى الجلوس أمامه ، وقص عليهم الحديث الذى دار بيننا ، وطلب اليهم أن

---

(١) مراسلات ويوميات ووثائق عن قناة السويس للمسيو دلسبس ج ١ ص ٤

(٢) أصول قناة السويس ص ١٥

يبدوا رأيهم فى مشروع « صديقه » ، فلم يكن من هؤلاء المستشارين ، وقد فوجئوا بهذا الاقتراح وهم أقدر على إبداء الرأى فى مناورات الخيل منهم فى التكلم عن مشروع عظيم لا يستطيعون فهم مراميه ، إلاّ أن نظروا إلىّ بملء أعينهم ، كأنما يريدون إفهامى أن صديق مولاهم الذى رأوه يقفز على الحائط راكباً جواده بتلك المهارة ، لا يمكن أن يدلى إلا بآراء صائبة ، وكانوا أثناء الحديث يرفعون أيديهم الى رءوسهم بين آونة وأخرى علامة على الموافقة »(١)

وذكر عن سعيد باشا ذاته (ص ٥٧) أنه قال له بعد أن منحه الامتياز « أعترف لك بأنى لم أفكر طويلا فى الموضوع ، وإنما هى مسألة شعور ، وليس من عادتى أن أقلد الناس فى ما يتبعون و يعملون »

منح امتياز القناة
٣٠ نوفمبر سنة ١٨٥٤

ولما بلغ سعيد باشا القاهرة أنزل المسيو دلسبس ضيفاً عنده ، محفوفاً بالاكرام والرعاية ، ولم تمض أيام معدودات حتى منحه بمقتضى العقد المؤرخ ٣٠ نوفمبر سنة ١٨٥٤ امتياز تأسيس شركة عامة لحفر قناة السويس ، واستثمارها لمدة ٩٩ سنة ابتداء من تاريخ فتح القناة للملاحة (٢) ، وهكذا نال دلسبس بغيته التى كان يسعى لها منذ ثلاث وعشرين سنة

وهذا العقد هو المعروف بعقد الامتياز الأول : تمييزاً له عن عقد الامتياز الثانى المؤرخ ٥ يناير سنة ١٨٥٦ الذى سيرد الكلام عنه

وقد عهد سعيد باشا الى مهندسيه لينان بك ، وموجيل بك ، أن يرافقا المسيو دلسبس الى برزخ السويس ، لدرس المشروع وتطبيقه على طبيعة الأرض ، ورفع

(١) أصول قناة السويس ص ٤٠

(٢) فتحت القناة للملاحة يوم ١٧ نوفمبر سنة ١٨٦٩ أي ان مدة الامتياز تنتهى فى ١٦ نوفمبر سنة ١٩٦٨ وتصبح القناة بعدها ملكا لمصر

تقرير اليه عن نتيجة مباحثهم ، وكان رأيهما من قبل فى جانب المشروع

فقام المهندسان الفرنسيان والمسيو دلسبس بهذه المهمة ، وانتهى بهم البحث الى الاتفاق على طريقة تنفيذ المشروع ، وهى أن تنشأ القناة مستقيمة فى أضيق نقطة فى البرزخ : بين موقع بيلوزه (بورسعيد الآن) على البحر الأبيض المتوسط والسويس على البحر الأحمر

حصص التأسيس

ثم جمع المسيو دلسبس من بعض الماليين حصص التأسيس لشركة القناة التى أزمع تأليفها ، وجعل قيمة الحصة خمسة آلاف فرنك (٢٠٠ جنيه) وخصص قيمة هذه الحصص لنفقات المشروع الأولى ، على أن تحول قيمة الحصص الى أسهم خاصة فى الشركة عند ما يتم تأليفها

لجنة دولية لدرس المشروع

وانتخب المسيو دلسبس باتفاقه مع سعيد باشا (فى نوفمبر سنة ١٨٥٥) لجنة دولية من المهندسين الفنيين لدراسة المشروع ثانية ، بعد اطلاعها على تقرير لينان بك وموجيل بك ، لتبدى رأيها فى صلاح المشروع وامكان تنفيذه ، وذلك حتى يطمئن الناس الى نجاحه ، فيقبلون على الاكتتاب فى أسهم الشركة عند تأليفها

فذهب أعضاء اللجنة الى برزخ السويس ، وأجروا مباحثهم الهندسية ، ووافقوا على المشروع كما وضعه لينان وموجيل ، بعد أن ثبت لهم أن سطح البحرين واحد ، وأن الأرض صالحة لاجتياز القناة الملحة

شروط الامتياز

٥ يناير سنة ١٨٥٦

ولما أتمت اللجنة مباحثها عرض المسيو دلسبس نتيجة هذه المباحث على سعيد باشا ، فأصدر له عقد الامتياز الثانى بتاريخ ٥ يناير سنة ١٨٥٦ م — (٢٦ ربيع

الآخر سنة ١٢٧٢ هـ) ، صدق فيه على الامتياز السابق منحه الى المسيو دلسبس ، وضمّنه شروط الامتياز التى خولها الشركة ، وكانت شروطا فادحة ، لا ترضى بها حكومة رشيدة ساهرة على مصالح البلاد ، وهاك خلاصتها

(١) منحت الحكومة الشركة امتياز إنشاء قناة السويس بين خليج الطينة على البحر الأبيض المتوسط والسويس على البحر الأحمر ، و إنشاء ترعة للمياه العذبة صالحة للملاحة النيلية تستقى من النيل ، وتصب فى القناة الملحة ، و إنشاء فرعين للرى والشرب يستمدان مياههما من الترعة المذكورة ، و يصلان الى السويس والطينة (بور سعيد) (مادة ١ من عقد الامتياز)

(٢) تنازلت الحكومة للشركة مجاناً عن جميع الأراضى المملوكة لها والمطلوبة لانشاء القناة الملحة وترعة المياه العذبة وتوابعها ، وهى مساحات شاسعة على طول القناة والترع المزمع إنشاؤها ، بعرض كيلو مترين من الجانبين [١] ، تنازلت عنها الحكومة بلا مقابل ، مع إعفائها على الدوام من الضرائب ، وتنازلت أيضاً عن جميع الأراضى القابلة للزراعة لتستصلحها الشركة وترويها وتزرعها ، مع إعفاء هذه الأطيان من الضرائب مدة عشر سنوات من تاريخ استثمارها (مادة ١٠)

(٣) خولت الشركة (عدا ما تقدم) حق انتزاع الأراضى المملوكة للأفراد مما ترى لزومها لاجراء الأعمال والانتفاع بالامتياز ، فى مقابل أن تدفع الشركة لاصحابها تعويضات «عادلة» (مادة ١٢) ، ومعنى ذلك نزع ملكية الأفراد لمصلحة الشركة

(٤) على أصحاب الأطيان الواقعة أملاكهم على ضفاف الترع التى تنشئها الشركة إذا أرادوا رى أراضيهم بمياهها أن يحصلوا على ترخيص بذلك من الشركة فى مقابل تعويض يؤدونه لها (مادة ٨)

(٥) منحت الحكومة الشركة طول مدة الامتياز الحق فى أن تستخرج من المناجم والمحاجر الأميرية كل المواد اللازمة لأعمال المبانى وصيانتها وملحقات المشروع ، دون دفع أى رسم أو ضريبة أو تعويض ، وتعفى الحكومة الشركة من

---

(١) مراسلات ويوميات ووثائق عن القناة للمسيو دلسبس ج ٢ ص ٣٥٦

الرسوم الجمركيـة ، والعوايد عن جميع الآلات والمواد التى تستوردها من الخارج (مادة ١٣)

(٦) حدد أجل الامتياز بمدة ٩٩ سـنة من افتتاح القناة البحرية للملاحة ، و بعد انتهاء هذه المدة تؤول القناة الى الحكومة المصرية (مادة ١٦)

ولـكن هذه المادة قيّدت هذا الحق بشرط قـد يؤدى الى تعطيله ، أو يفتح بابا للمشاكل ، وهو وجوب أخذ الحكومة فى هـذه الحالة جميع المهمات والمعدات المخصصةلاعمال المشروع البحرية Materiel et approvisionnements، وأن تدفع للشركة قيمتها التى تقدر سواء بالتراضى أو بناء على تقدير الخبراء

وليس مايمنع الشركة أن تبالغ فى تقويم المعدات التى خصصتها أو تخصصهـا فى المستقبل للمشروع ، أو أن تتعمد الاسراف فيها لتعجيز الحكومة ، ولـكى تخلق العقبات التى تعترض حق مصر فى استرداد القناة

ثم ان المادة ١٦ لم تذكر شيئا عن المنشآت التابعة للقناة ، كالمبانى ، وقد كان العقد الأول (مادة ١٠) ينص على أن شأنها شأن القناة فى رجوعها للحكومة ، دون مقابل ، فالعقد الثانى كما ترى صيغ فى أسلوب مجحف بحقوق مصر كل الاجحاف ، وهذا يدلك على الروح التى أملت شروطه ، وأغلب الظن أن سعيد باشا ترك تحريره الى « صديقه » المسيو دلسيبس (كما يصفه فى العقد) ولم يراجعه فى شىء من نصوصه

(٧) خُولت الشركة حق فرض ما تشاء من الرسوم على السفن التى تمر فى القناة البحرية أو الترع والثغور التابعة لهـا على شرط أن لا تزيد فى النهـاية العظمى عن عشرة فرنكات عن كل طن وكل شخص من المسافرين (مادة ١٧)

(٨) فى مقابل الاراضى والامتيازات الممنوحة للشركة تحصل الحكومةالمصرية على حصة قدرها ١٥ ٪ من صافى الارباح السنوية (مادة ١٨)

وقد خسرت مصر هذه الحصة سنة ١٨٧٩ ، وذلك أنه لما ارتبكت أحوالهـا

المالية بسبب اسراف اسماعيل باعت هذا النصيب الى البنك العقارى بفرنسا مقابل ٢٢ مليون فرنك .

(٩) يكون أربعة اخماس العمال من المصريين (مادة ٢) ، وتعهدت الحكومة ببذل مساعداتها للشركة وتكليف جميع موظفيها وعمالها فى جميع دوائر المصالح أن يمدوا الشركة بمساعداتهم لها (مادة ٢٢) ، وقد فسرت الشركة هذه النصوص على أنها تعهد من الحكومة بتسخير أربعة اخماس العدد الذى تطلبه الشركة من العمال ، وأن يكونوا من الفعلة والفلاحين المصريين لاجراء أعمال الحفر والانشاء ووضعهم تحت تصرف الشركة لتشغيلهم فيما تريده من الأعمال مقابل دفع أجورهم

وكان عقد الامتياز الأول (مادة ٢) يخول الحكومة حق تعيين مديرى الشركة ، ولكن هذا الحق لم يظهر له أثر فى عقد الامتياز الثانى ، وهذا العقد يقضى بالغاء النصوص الواردة فى العقد الأول مما يخالف أحكام العقد الثانى ، واقتصرت المادة (٢٠) من العقد الثانى على أنه « يرأس الشركة ويديرها صديقنا ووكيلنا المسيو فردينان دلسبس بصفته المؤسس لها طوال المدة التى تستغرقها الأعمال ، ثم لمدة أخرى قدرها عشر سنوات تبتدىء من تاريخ استغلال الامتياز » ، ومعنى ذلك أن الحكومة المصرية خسرت فى عقد الامتياز الثانى حق تعيين مديرى الشركة ، وحفظ لها فقط حق تعيين « مندوب » عنها لدى الشركة يمثل حقوق الحكومة ومصالحها فى تنفيذ العقد

وكان العقد الأول ينص (بالمادة ٤) على أن الحصون التى ترى الحكومة لزوم انشائها فى منطقة القناة لا تتكلف بها الشركة ، وقد أغفل هذا النص فى العقد الثانى ، وفسر اغفاله بان لا حق للحكومة فى إقامة الحصون فى هذه المنطقة

وانك لترى فى هذه الشروط روح التساهل والاسراف التى تعاقد بها سعيد باشا مع الشركة ، فانه خولها مزايا جعلها تشارك الحكومة المصرية فى حقوق ملكيتها العامة وسيادتها ، وملكها مرافق ومنافع عامة ليس للافراد من أهل البلاد حق

تملكها ، وهكذا جعل منها دولة داخل الدولة المصرية ، وليس من عجب أن يحوى عقد الامتياز تلك الشروط الفادحة فان المسيو دلسبس هو الذى تولى تحرير العقد ووضع فيه ماشاء من النصوص والاحكام

مقاومة انجلترا المشروع

اشترط سعيد باشا لصحة الامتياز أن يصدق عليه السلطان العثمانى ، على أنه كان معتزما تنفيذه بصرف النظر عن هذا التصديق ، وأعطى المسيو دلسبس العهود والمواثيق أن لاينظر الى هذا التصديق إلا كمظهر شكلى ليس بذى بال ، وفى الواقع إن مانالته مصر من حقوق الاستقلال الداخلى طبقا لمعاهدة لندن لايجعل مثل هذا التصديق ضروريا لصحة الامتياز ، ولكن دلسبس أراد زيادة الاطمئنان على مشروعه ، فذهب الى الاستانة يلتمس فرمان التصديق ، فألفى مناهضة للمشروع من السفير البريطانى بايعاز من اللورد بالمرستون وزير خارجية انجلترا فى ذلك الحين

وكانت السياسة الانجليزية ترمى حينذاك الى عرقلة المشروع خشية امتداد النفوذ الفرنسى فى مصر ، وخوفا على طريق المرور الى الهند ان يصبح تحت سيطرة دولة سواها

فقاومت المشروع من طريق الحكومة التركية ، إذ حرضتها على رفض التصديق ، ثم من طريق الاسواق المالية إذ ألقت فى روع الماليين ان المشروع خيالى لايمكن تحقيقه

معاضدة سعيد للمشروع

على أن سعيد باشا قابل هذه المقاومة بمعاضدة المسيو دلسبس فى مشروعه ، وكانت صداقته لدلسبس تدفعه الى تذليل العقبات لانجاح المشروع ، فبذل له أولا المبالغ المتوفرة فى خزانة الحكومة وقتئذ وقدرها ١٠٠ الف جنيه ليستعين بها على العمل

تأليف الشركة

وفى ٥ نوفمبر سنة ١٨٥٨ عرض دلسبس أسهم الشركة للاكتتاب العام بفرنسا وغيرها من البلدان ، فلقيت إقبالا عظيما ، وغطيت أسهم الاكتتاب عدة مرات وتألفت الشركة فى ديسمبر سنة ١٨٥٨

وجعل رأس مالها ٢٠٠ مليون فرنك (٨٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه تقريبا) موزعة على ٤٠٠ ٠٠٠ سهم ، قيمة السهم خمسمائة فرنك (٢٠ جنيها) ، ثم قسم السهم الى نصفين فصار عدد الاسهم ٨٠٠ ٠٠٠ سهم ، وقد صارت قيمة السهم الاصلى الآن (سنة ١٩٣٢) حوالى ١٥ ٠٠٠ فرنك بعد أن كانت ٥٠٠ فرنك

واكتتب سعيد باشا بـ ١٧٧٫٦٤٢ سهما [1] أى بما يقرب من نصف مجموع الاسهم ، ودفع جزءا من ثمنها وقسط الباقى على سنوات

البدء فى حفر القناة

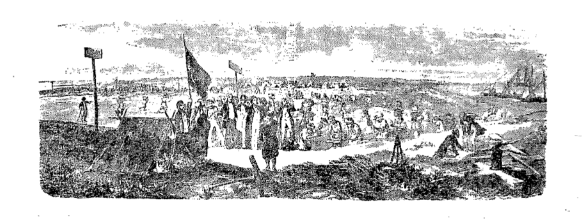
٢٥ ابريل سنة ١٨٥٩

وفى ٢٥ ابريل سنة ١٨٥٩ ذهب المسيو دلسبس يصحبه أعضاء مجلس ادارة الشركة الى شاطىء البحر الأبيض ، فى الموقع الذى انشئت فيه بعد ذلك مدينة بورسعيد ، وأقيم هناك احتفال حافل ضرب فيه دلسبس أول معول فى أرض القناة ، واقتدى به الحاضرون ، فكانت تلك الضربة إيذانا بالشروع فى العمل ، وكانت فى الواقع أول ضربة فى صرح استقلال مصر

ثم أخذ العمال يعملون فى حفر الأرض ، ولم يكن قد صدر الفرمان العثمانى بالتصديق على الامتياز ، ولكن سعيد أراد أن يضع تركيا وانجلترا أمام الأمر الواقع ، ويعضد المشروع بكل مالديه من حول وقوة ومال

---

(١) مراسلات ويوميات ووثائق عن القناة ج ٤ ص ١٣٣



ابتداء العمل فى حفر القناة (٢٥ ابريل سنة ١٨٥٩)

وترى فى الصورة المسيو دلسبس ممسكا بيده معولا للحفر وحوله العمال المصريون يبدأون فى حفر القناة

وقد هاج هذا العمل غضب الحكومة الانجليزية ، فسعت سعيها لدى تركيا لوقف العمل ، ومرت ظروف ساعدت انجلترا فى مسعاها ، ففى مايو سنة ١٨٥٩ شبت الحرب فى ربوع ايطاليا بين فرنسا والنمسا ، فمالت فرنسا الى محاسنة انجلترا ، وتراخت فى تأييد المشروع ارضاءاً للحكومة الانجليزية ، وكادت انجلترا تنجح فى مسعاها لاحباط المشروع ، ودبرت مع الباب العالى خلع سعيد باشا وجاء الاسطول الانجليزى الى ثغر الاسكندرية فى يونيه سنة ١٨٥٩ (١) ، ولكن التدبير لم يتم ، وتردد سعيد فى الأمر ، وعهد الى شريف باشا وزير الخارجية وقتئذ أن يرسل للمسيو دلسبس كتابا يطلب اليه فيه وقف العمل (٢) ، على ان الحرب بين فرنسا والنمسا ما لبثت أن وضعت أوزارها ، وعقدت بين الدولتين الهدنة المعروفة بمصالحة (فيلا

(١) ورد ذكر الاسطول الانجليزى وحضوره الى الثغور المصرية فى كتاب « مراسلات ويوميات ووثائق عن القناة » ج ٣ ص ١٢٤ —

(٢) مراسلات ويوميات ووثائق عن القناة ج ٣ ص ١٣٣

فرانــكا) Villa Franca ، فنفذت كلمة فرنسا فى ميدان السياسة العامة ، وعادت الى مناصرة المشروع وتأييده ، غير ان الحكومة الانجليزية ما فتئت تسعى لدى حكومة الاستانة حتى جعلتها تصدر أمرا الى سعيد باشا بوقف أعمال الحفر فى برزخ السويس ،وأوفدت مندوبا عنها يدعى مختار بك الى مصر يحمل هذا الامر الى سعيد

فعاد نابليون الثالث يبذل نفوذه لدى تركيا لحملها على ابطال هذا الأمر ،وهكذا كان للسياسة الفرنسية اليد الطولى فى نجاح المشروع ، واطمأن سعيد باشا الى رعايتها إياه ، وعاد الى معاضدة المشروع بكل قواه ، وبلغ به تفانيه فى تعضيده أن سخر الفلاحين ليعملوا فى حفر القناة ، وكان يأمر بجلبهم من بلادهم وقراهم ، وبلغ عددهم نحو ٢٥٫٠٠٠ عامل ، كانوا يقاسون الشدائد والأهوال فى عمل لم تنتفع منــه مصر بأية فائدة ، بل عاد عليها بالوبال والخسران .

وقد سار العمل فى انفاذ المشروع وحفر القناة الملحة الى أن جرت فيها ميــاه البحر الأبيض حتى بحيرة التمساح ، وذلك فى ١٨ نوفمبر سنة ١٨٦٢ (١) ، والى هذه المرحلة وصلت القناة فى عهد سعيد باشا ، إذ أدركته الوفاة بعــد ذلك بشهرين فى ١٨ يناير سنة ١٨٦٣ ، تاركاً لاسماعيل إتمام مابدأ به، والوصول بالمشروع الى نهايته

— ٢ —

بدء القروض الاجنبية

بدأ عهد القروض الأجنبية خلال حكم سعيد باشا ، فكانت هذه البداءة نذير الـكوارث المالية والاحداث السياسية التى أصابت البلاد فى عهد اسماعيل وتوفيق

ولا ندرى ما الذى حمل « سعيد » على أن يوجه وجهته نحو الاقتراض ، ولم يكن ذلك من سنة أبيه ، كما أن الحـكومة لم تكن فى حاجة مُلحّة الى الاستدانة من البيوت المالية ، فان سنوات سعيد كانت فى الجملة سنوات يُسْر ورخاء ، ولم تقع فى

(١) مراسلات ويوميات ووثائق عن القناة ج ٥ ص ٦

خلالها حروب طويلة تستنفد موارد الحكومة المالية

يقولون إن نفقات الجيش زادت عن المقدر لها فى الميزانية ، فاضطر سعيد الى الاقتراض ، ولكن هذا السبب لا ينهض حجة لتسويغ عمله ، فان « سعيد » ذاته كان لا يستقر على وتيرة واحدة فى تقوية الجيش وزيادة عدده ، بل كان — لأسباب غير مالية — يصرف أحياناً معظم قواته الحربية ، وقد كان أجدر به أن ينقص من ميزانية جيشه إذا وجد أن حالة الخزانة لا تسمح باستبقاء جيش عرمرم يكلف البلاد ما لا طاقة لها به من النفقات ، والواقع أن قصر النظر السياسى هو الذى دعاه الى مد يد الاستدانة من الخارج،ففتح على البلاد باب التدخل الأجنبى

وفى ذلك يقول مؤلف (تاريخ مصر المالى) « الى سعيد باشا يرجع الفضل التعس فى عقد أول قرض اقترضته مصر من أوروبا »(١)

وقال فى معرض المقارنة بينه و بين محمد على وابراهيم

« لقد استطاع محمد على وابنه الاكبر ابراهيم أن ينهضا بالبلاد ويجاهدا فى سبيل استقلالها ، ذلك الجهاد الذى كلل بالنصر ، دون أن يكون لديهما من الموارد المالية سوى ميزانية لاتتجاوز خمسين مليون فرنك »

ذلك مايقوله مالى أوروبى خبير ، لا يمكن أن يرمى بالتحامل على بلاده ، فهو يصارحنا فى كتابه بان الاستدانة من أوروبا كانت عملا تعسا

عقد سعيد أول قرض ثابت سنة ١٨٦٢ ، ومقداره الاسمى ٣٫٢٤٢٫٨٠٠ جنيه انجليزى من بنك فروهلنج وجوشن بلندن بفائدة ٧ ٪ ، أما قيمته الحقيقية فكانت ٢٫٤٠٠٫٠٠٠ جنيه تقريباً، أى ان مصر خسرت من رأس ماله ٨٠٠٫٠٠٠ جنيهوزيادة ، وتعهدت بوفاء هذا الدين على ثلاثين سنة ، قيمة القسط السنوى من رأس مال وفوائد ٢٦٤٠٠٠ جنيه،أى ان مجموع الاقساط ٧٫٩٢٠٫٠٠٠ جنيه، فى حين أن أصل الدين ٢٫٤٠٠٫٠٠٠ جنيه ،وعدا هذا القرض الثابت فانه ابتدع طريقة السندات على الخزانة ، وهى أن يستدين من المرابين ديونا سائرة

---

(١) تاريخ مصر المالى ص ١

بواسطة سندات يحررها على الخزانة بالقيمة المقترضة ، وتلك وسيلة خطرة على مالية البلاد،لأنها استدانة لاضابط لهاولا حساب ، ولا رقابة عليها ، فاذا اندفعت الحكومة فى سبيلها تورطت فى الديون المعروفة بالديون السائرة ، دون أن تلتفت الى الخطر الذى ينجم عن الاستزادة منها

وقد اختلفت الآراء فى إحصاء الدين السائر الذى استدانه سعيد باشا ، وكلها متفقة على انه كان متلافا للنقود ، لكثرة نفقاته على قصوره ، ومعيشته الخاصة ، وطمع المرابين فيه لما جبل عليه من السخاء وعدم التدقيق فى حسابه

واذا أخذنا باحصاء مؤلف (تاريخ مصر المالى) الذى عرف عنه الاعتدال فى كتابته كان الدين العام الذى تركه سعيد حين وفاته ١١ر١٦٠ر٠٠٠ جنيه (١) ، فاذا استبعدنا منه الدين الثابت بلغت الديون السائرة ٧ر٨٦٨ر٠٠٠ تقريباً ، وهو مبلغ فادح تنوء به مالية البلاد فى ذلك العصر

ولو سلم عهد سعيد من القروض الاجنبية ، ولم يمنح امتياز القناة ، لكان محتملا أن تتغير المصاير وتتبدل النتائج فى تاريخنا القومى

وفاة سعيد باشا

١٨ يناير سنة ١٨٦٣

ذهب سعيد باشا الى أوروبا ليستشفى من مرض عضال أصابه ، ولم ينجع فيه دواء ، فرجع الى الاسكندرية فى أواخر سنة ١٨٦٢ ، والداء قد استعصى علاجه ، فما زال يشتد به و يهد من قواه حتى أدركته منيته فى صبيحة ١٨ يناير سنة ١٨٦٣ (٢٧ رجب سنة ١٢٧٩) وله من العمر ٤٢ سنة ، وكانت مدة حكمه ثمانى سنوات وتسعة أشهر وستة أيام (٢) ، ودفن بالاسكندرية بمسجد النبى دانيال ، ولا يزال قبره هناك

---

(١) تاريخ مصر المالى ص ١٢

(٢) عن التوفيقات الالهامية للواء المصري محمد مختار باشا ص ٦٤٠ ، وهذا التاريخ (١٨ يناير) يوافق ما ذكره المسيو دلسبس في وثائق القناة ج ٤ ص ٢٧٦

الفصل الثالث

عصر الخديوى اسماعيل

١٨٦٣ — ١٨٧٩

نظرة عامة

ان عصر الخديوى اسماعيل هو فى مجموعه صورة لتاريخ مصر القومى والسياسى والاقتصادى فى إبان النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، الى مقدمات الثورة العرابية ، واذا أردنا أن نصفه بكلمة عامة ، فهو كما قلنا فى مقدمة الكتاب عصرٌ له أثره النافع كما له أثره الضار فى تطور الحركة القومية ، ذلك لما تفتحت فيه من آمال ، وما قام فيه من حضارة وعمران ، وما تخلله واقترن به من أخطاء وارزاء أفضت الى تدخل الدول الاجنبية فى شؤون مصر ، وتصدّعها بناء الاستقلال المالى ثم السياسى

بهذه الكلمة الوجيزة ، يمكننا ان نلخص عصر اسماعيل ، فهو يمثل من ناحية عهد تقدم وعمران ، ويعد من ناحية أخرى عهد القروض المشؤومة والاغلاط المتلاحقة التى عصفت باستقلال البلاد .

واذا كانت مصر تشعر الى اليوم بنتائج النهضة التى قامت فى ذلك العصر ، وتلمس آثارها بيديها ، فانها أيضا تعانى الى اليوم نتائج الارزاء والاحداث التى وقعت فيه ، وتدفع ثمنها غالياً ، من مالها ، وحقوقها ، وحريتها ، واستقلالها

ويعد هذا العصر أقرب العصور صلة بالعصر الحاضر ، لأن معظم القيود والنظم التى حلت بمصر على عهده لا تزال قائمة الى اليوم ، فالتشريع المختلط ، وتغلغل الاجانب فى مرافق البلاد ، والديون التى كبّلت البلاد حكومةً وشعباً ، والتدخل الاجنبى فى شؤون مصر المالية والسياسية ، كل هذه القيود ترجع الى عصر اسماعيل .



اسماعيل باشا

خديوى مصر

من سنة ١٨٦٣ الى ١٨٧٩

نشأة اسماعيل

هو اسماعيل بن ابراهيم بن محمد على ، وهو ثانى أنجال ابراهيم باشا ، من والدة غير والدتى أخويه الاميرين احمد رفعت ومصطفى فاضل

ولد فى ٣١ ديسمبر سنة ١٨٣٠ فى قصر المسافرخانة بالقاهرة (بالجمالية) ، وعنى أبوه بتربيته ، فتعلم مبادئ العلوم ، واللغات العربية والتركية والفارسية ، وقليلا من الرياضيات والطبيعيات ، وأرسله أبوه الى فينا عاصمة النمسا ، وهو بعد فى الرابعة عشرة من عمره ، ليعالج بها من رمد صديدى اصابه ، ولتكمل تربيته ، وقضى بها عامين ، ثم انتقل الى باريس لينتظم فى سلك البعثة المصرية الخامسة ، فانضم الى تلاميذها ، وكان من بينهم الأمير احمد رفعت أخوه ، والاميران عبد الحليم وحسين من أنجال محمد على ، ونال فى باريس حظا من العلوم الهندسية والرياضية والطبيعية ، وأتقن اللغة الفرنسية كتابة وكلاماً ، وبهرته باريس ومافيها من جمال ورعة ، وغواية وفتنة ، ومن هنا نشأت ميوله الباريسية ، التى لازمته طول حياته ، وجعلته بعد أن تولى الحكم يسعى فى أن يجعل القاهرة باريسا ثانية ، ولو كلفه ذلك أن يمد يده الى القروض التى ناءت بها البلاد ، وظاهرٌ من مبلغ تعلمه أنه لم ينل من المعارف والثقافة فى باريس أو فى فينا حظا كبيرا ، بل اقتصر على مبادئ من العلوم ، ولم يستفد من مكثه بباريس إلا نصيباً قليلا من العلوم الهندسية والحربية ، واتقن اللغة الفرنسية التى كان يتكلمها كأحد أبنائها ، وكان له فى ذكائه بعض العوض عما ينقصه من العلوم

عاد اسماعيل الى مصر فى عهد ولاية أبيه ابراهيم باشا ، ولما مات ابراهيم خلفه فى الحكم عباس الأول ، وكان يحقد على عمه ويجفوه ، فلما تولى الحكم شعر اسماعيل وأخوته بكراهية عباس لهم ، ثم مات محمد على ، واشتد الخصام بين عباس وبقية الامراء على تقسيم ميراث جده ، وارتحل اسماعيل و بعض الامراء الى الاستانة ، وعينه السلطان عبد المجيد عضواً بمجلس أحكام الدولة العثمانية ، وانعم عليه بالباشوية ، ولم يعد الى مصر الا بعد مقتل عباس فى أثناء حكم سعيد ، ولما عاد من الاستانة لقى من عمه سعيد باشا عطفاً كبيراً ، وعهد اليه برآسة (مجلس الاحكام) الذى

كان أكبر هيئة قضائية فى البلاد ، وأوفده سنة ١٨٥٥ فى مهمة سياسية لدى الامبراطور نابليون الثالث تتعلق بسعى سعيد لدى الدول فى توسيع نطاق استقلال مصر ، بعد اشتراكها مع الحلفاء فى حرب القرم ، فأدى اسماعيل هذه المهمة بما امتاز به من ذكاء ولباقة ، ووعده نابليون الثالث بتأييد مقترحه فى مؤتمر الصلح بباريس ، ولكنه لم يحقق وعده ، وكذلك قابل البابا (بيو التاسع) فى رحلته موفداً من قبل سعيد ، فاكرم الحبر الرومانى مثواه ، ثم عاد الى مصر

ولم يكن اسماعيل يفكر أثناء حكم سعيد باشا فى أن يؤول اليه العرش من بعده ، إذ كان يحجبه عنه أخوه الاكبر الأمير احمد رفعت ، ولكن حادثا فجائيا ساقته الاقدار سنة ١٨٥٨ أزالت العقبة القائمة فى سبيله ليكون ولياً للعهد ، ذلك أن سعيد باشا أقام بالاسكندرية حفلة دعا اليها أمراء البيت العلوى ، فلبوا الدعوة ، ومن بينهم احمد رفعت ، أما اسماعيل فقد اعتذر عن اجابتها لوعك فى صحته ، وفيما كان الأميران عبد الحليم واحمد رفعت عائدين الى القاهرة بقطار خاص مع حاشيتهما ، سقطت العربة التى تقلهما فى النيل عند كفر الزيات ، فغرق احمد رفعت ، ونجا عبد الحليم ، فأصبح اسماعيل بعد غرق أخيه ولى عهد الأريكة المصرية بحكم نظام الوراثة القديم

وقد مرن اسماعيل على بعض مناصب الدولة ، وهو بعد ولى للعهد ، فاستخلفه سعيد مرتين ، وجعله نائباً عنه (قائمقام) أثناء غيبته عن مصر ، المرة الأولى حينما زار سوريا سنة ١٨٥٩ ، والمرة الثانية حينما ذهب الى الحجاز لزيارة المدينة المنورة فى أوائل سنة ١٨٦١

وكان سعيد يبدى لابن أخيه ارتياحه من الطريقة التى أدى بها أعمال النيابة عنه ، ولما عاد للمرة الثانية الى مصر جعله سرداراً للجيش المصرى ، وعهد اليه اخماد فتنة بعض القبائل فى السودان ، فاضطلع بهذه المهمة دون أن يسفك فيها قطرة من الدماء

ولما أدركت «سعيد» الوفاة خلفه على عرش مصر فى ١٨ يناير سنة ١٨٦٣

سياسة مصر الخارجية

فى عهد اسماعيل

نبدأ بالكلام عن سياسة مصر الخارجيـة ، لانها كانت ذات الأثر الفعال فى شؤونها الداخلية ، ولعلّ ذلك ناشىء عن أن اسماعيل كان يضع السياسة الخارجية والخطط المرتبطة بها فى المكان الأول من الاهمية ، وتليها المسائل الداخلية

فلنبحث اذن عن سياسة مصر الخارجية ، ولهذه السياسة وجهان ، أولهما علاقة مصر بتركيا ، والثانى علاقتها بالدول الأوروبية

ففيما يتعلق بتركيا كانت الخطة التى تَرَسَّمها اسماعيل هى توسيع نطاق استقلال مصر ، وكسب أكثر مايمكن من الحقوق والمزايا من الحكومة العثمانية ، حتى يصل بالبلاد الى الاستقلال التام

ولا شك أن هذه نزعة ممدوحة ، تعد من مفاخر اسماعيل ، فان الوصول بالبلاد الى استقلالها التام هى الغاية التى ترمى اليها الحركة القومية

أما فيما يخص علاقات مصر بالدول الأوروبية ، فقد كان اسماعيل يصدر عن فكرة أخرى ، تنافى فكرته فى علاقته بتركيا ، فبينما هو يعمل على تحرير البلاد من بقايا السيادة التركية ، إذ هو لا يفادى مصر من النير الاجنبى المالى والسياسى ، بل كان يتسبب فى تطويقها بسلاسل التدخل الأوروبى ، بحيث لم يوشك عهده أن يقارب نهايته ، حتى تصدع بناء الاستقلال المالى والسياسى الذى كسبته مصر فى عصر محمد على

ولو أنه بذل فى سبيل بقاء البلاد حرة من اخطار التدخل الأجنبى جزءا ولو يسيراً مما كان يبذله للانفصال عن تركيا ، لحقق مشروع الاستقلال التام لمصر والسودان ، ولاقترن اسمه فى التاريخ بهذا المشروع القومى العظيم ، ولكنه كان لايحسب حسابا للتدخل الأوروبى ، وما ينطوى عليه من المطامع التى تهدم كيان الاستقلال ، وهذا الخطأ الجسيم ، فى سياسة اسماعيل الخارجية ، ناشىء عن نزعته

الأوروبية ، فان هذه النزعة جعلته يثق بأوروبا ، والدول الأوروبية ،والجاليات الأوروبية ، ثقة عمياء ، ويركن اليها ، ويعتقد فيها حسن النية ،ولا يفطن لمطامعها الاستعمارية ،ففتح أبواب البلاد على مصراعيها للتدخل الاجنبي،وسمح للأوروبيين ان يتغلغلوا فى مرافقها ، ويتولوا المناصب والمراكز الرفيعة فى حكومتها ، و بلغت به الثقة فى سلامة نيتهم حدا جعله يقترض القروض الجسيمة بلا حساب من المرابين والبيوت المالية الاجنبية ، حتى صار للاجانب فى عهده نفوذ مالى وسياسى لم يكن لهم من قبل، وانقلب هذا النفوذ الى حقوق ومزاعم ادعوها، وما لبثوا أن نالوها، بانشاء صندوق الدين ،وفرض الرقابة الثنائية على مالية البلاد ، وتعيين وزيرين أجنبيين فى الوزارة المصرية ، كما سيجيء بيانه

فسياسة اسماعيل الخارجية حيال الدول الأوروبية كانت اذن سياسة خاطئة ، أوقعت مصر تحت النير الاجنبى المالى والسياسى، مما نشعر بنتائجه السيئة الى اليوم

هذه كلمة اجمالية عن سياسة اسماعيل الخارجية ، حيال تركيا والدول الأوروبية، نمهد بها الى بيان هذه السياسة تفصيلا فيما يلى

(١) سياسة اسماعيل حيال تركيا

العلاقات الودية

جعل اسماعيل نصب عينيه تحرير مصر من قيود السيادة التركية التى فرضتها عليها معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ وفرمانات سنة ١٨٤١[١] ، أى أنه أكمل العمل الذى بدأه محمد على ، ولكن الفرق بينه و بين جده أن محمد على كسب لمصر حقوق الاستقلال بقوة الجيش المصرى ، اما اسماعيل فقد اعتمد على سلاح المال والرشوة يبذلها لرجال الاستانة ، ليحصل على الفرمانات التى وسع بها نطاق الاستقلال

وليس يخفى ان وسيلة محمد على هى صفحة مجيدة من تاريخ مصر الحديث ،

---

(١) راجع الجزء الثالث من تاريخ الحركة القومية (عصر محمد على) ص ٣١٠ وما بعدها

تقرأ فيها الاجيال المتعاقبة مفاخر الجهاد القومى ، أما وسيلة اسماعيل فلا تستثير فى النفوس احساس المجد والفجار ، هذا فضلا عن أنها من الاسباب التى دعت اسماعيل الى الاستدانة من البيوت المالية الاجنبية، فكانت من هذه الناحية ، من العوامل التى أدت الى تَصدُّع بناء الاستقلال الحقيقى ، وقد بذل اسماعيل تضحيات مالية جسيمة فى سبيل الحصول على الامتيازات التى نالها ، إذ لم تكن حكومة الاستانة تصدر فرمانا إلا فى مقابل الاموال الطائلة من الرشا والهدايا ، يقدمها اسماعيل لرجال الاستانة ، على اختلاف مراتبهم، ولا يستثنى منهم السلطان ذاته، والصدور العظام، فبلغت هذه الاموال طوال حكمه نحو اثنى عشر مليونا من الجنيهات

بدأ اسماعيل حكمه بالتودد الى السلطان عبد العزيز ، ورجال حكومته ، فلما تولى الأريكة المصرية ذهب الى الاستانة ليقدم له فروض الولاء ، وانتهز هذه الزيارة لاحكام روابط الود بينه و بين تركيا ، وتودد الى السلطان عبد العزيز ، ودعاه الى زيارة مصر ، فوعده بقبول الدعوة

زيارة السلطان عبد العزيز لمصر

ابريل سنة ١٨٦٣

بَرَّ عبد العزيز بوعده ، فجاء مصر فى شهر ابريل سنة ١٨٦٣ م (شوال سنة ١٢٧٩ هـ) ، ونزل بالاسكندرية ، ثم ذهب الى القاهرة ، وقضى فى ضيافة اسماعيل عشرة أيام ، لقى فيها من مظاهر الاكرام والحفاوة البالغة ما جعل لاسماعيل منزلة كبيرة عنده

ولا غرو فقد كان عبد العزيز هو السلطان العثمانى الوحيد الذى جاء مصر زائراً، بعد السلطان سليم الذى دخلها فاتحاً ، فكانت هذه الزيارة تكريماً كبيراً لاسماعيل، وتعظيما لشأنه

واغتنم هذه الفرصة ، فاستغل المنزلة التى نالها ليكسب من تركيا حقوقاً ومزايا جديدة ، واستخدم الى جانب ذلك المال يبذله بسخاء ، فغمر السلطان وحاشيته

بالهدايا والتحف الفاخرة ، حتى ملأ بها سفينة بأكملها ، وزوّد الصدر الأعظم فؤاد باشا وحده بستين ألفاً من الجنيهات رشوة ليتخذ منه عوناً له فى مساعيه لدى الحكومة التركية ، وعاد عبد العزيز من زيارته مغتبطاً مما لقيه من الاكرام ، ومهدت هذه الزيارة الطريق أمام اسماعيل لينال رغائبه

تغيير نظام توارث العرش

وفرمان ٢٧ مايو سنة ١٨٦٦

أول ما وجه اليه اسماعيل جهده ، هو العمل على تغيير نظام توارث العرش ، فقد كان النظام القديم الذى فرضه فرمان سنة ١٨٤١ يقضى بأن يؤول عرش مصر الى أكبر أفراد الأسرة العلوية سنا ، كالنظام المتبع فى تركيا

فسعى اسماعيل جهده فى أن يؤول العرش الى أكبر أنجاله ، ونجح فى مسعاه ، بفضل المثابرة ، والدأب على الطلب ، و بفضل الاموال الطائلة التى بذلها فى الاستانة ، وقد بلغت ثلاثة ملايين من الجنيهات ، فكان هذا السعى من الاسباب الأولى لديون اسماعيل ، وليس ثمة شك فى أن هذه التضحية المالية لا توازيها الفائدة التى نالتها مصر من هذا التغيير ، لان طريقة توارث العرش ليست مسألة جوهرية تهم البلاد حتى تبذل فى سبيلها هذه الملايين ، هذا الى أنها كلفت مصر تضحية مالية أخرى ، ذلك أن تركيا اشترطت مقابل هذا التغيير زيادة الجزية السنوية من ٤٠٠ الف جنيه عثمانى ، الى ٧٥٠ الف ، أى الى مايقرب من الضعف ، وهى زيادة فادحة ، تحملتها مصر باستمرار من ذلك الحين الى الوقت الحاضر ، فبلغت نيفاً وخمسة عشر مليون جنيه مصرى لغاية سنة ١٩١٤ ، وهى السنة التى زالت فيها السيادة العثمانية عن مصر ، واحتملتها بعد زوال هذه السيادة ، لأن الحكومة الخديوية قبلت تحويل الجزية الى دائنى تركيا ، وتعهدت بدفع أقساط ديونهم السنوية خصما من الجزية لغاية سنة ١٩٥٥ ، فاذا حسبنا خسارة مصر فى زيادة الجزية من سنة ١٨٦٦ لغاية سنة ١٩٥٥ ، لبلغت نيفا وخمسة وعشرين مليون جنيه مصرى ، عدا فوائدها ، وهى خسارة جسيمة لا مبرر ولا مسوغ لها

ومن الاسراف فى القول مايزعمه بعض المؤرخين أن اسماعيل قصد بسعيه فى هذه المسألة مصلحة البلاد ، وأغلب الظن ان الباعث له على هذا التغيير هو ما كان بينه و بين أخيه من أبيه مصطفى فاضل وعمه عبد الحليم من الشقاق والشحناء ، ولم يكن اسماعيل يخفى كرهه لهما وحقده عليهما ، وكان الاميران أيضا لا يكتمان من ناحيتهما كراهيتهما لاسماعيل ، ومن أجل ذلك سعى فى حرمانهما من وراثة العرش وجعلها فى ذريته من صلبه

وقد اغتنم حكام تركيا وذوو النفوذ فيها فرصة هـذا التنافس ، ليبتزوا من أموال مصر ما تصل اليه أيديهم ، فقد بذل الاميران عبد الحليم ومصطفى فاضل أموالا طائلة فى الاستانة ، لاحباط مساعى اسماعيل ، فاستفادت من الناحيتين ، ولكن اسماعيل كان اكثر مالا ، وأعز جانباً ، فنجح فى مسعاه ، وهكذا كان للمال الأثر الفعال فى نفوس حكام الاستانة

وساعد اسماعيل فى نجاح مسعاه عامل آخر غير المال ، وهو أن عبد العزيز سلطان تركيا وقتئذ كان يميل أيضا الى تغيير نظام توارث العرش ، و يتمنى أن يؤول عرش تركيا من بعده الى ابنه يوسف عز الدين ، فأيد اسماعيل فى مسعاه ، كى يمهد السبيل لنفسه ، ولكنه لم يستطع أن يقدم على هذا التغيير ، لما فيه من الخروج على التقاليد الموروثة عن آل عثمان

كانت نتيجة مساعى اسماعيل صدور فرمان ٢٧ مايو سنة ١٨٦٦ (١٢ محرم سنة ١٢٨٣) القاضى بانتقال مسند ولاية مصر وملحقاتها وقائمقاميتى سوا كن ومصوع الى اكبر أولاده ، ومن هذا الى أكبر ابنائه ، وهلم جرا

ونص فى هذا الفرمان على امكان زيادة الجيش المصرى الى ثلاثين الف جندى ، وكان فى الواقع يزيد على هذا العدد من قبل ، واقرار حقها فى ضرب نقود مختلفة العيار عن نقود السلطة العثمانية ، ومنح الرتب المدنية لغاية الرتبة الثانية(١)

---

(١) قاموس الادارة والقضاء لفيليب جلاد ج ٦ ص ٧٣٠

واستتبع هـذا الفرمان صدور فرمان آخر فى ٢ صفر سنة ١٢٨٣ (١٥ يونيه سنة ١٨٦٦)[1] بترتيب نظام للوصاية على من يتقلد مسند الولاية اذا كان قاصرا

وقد أبلغ الباب العالى الفرمان السابق الى الدول العظمى التى اشتركت فى ابرام معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ ، مما جعل له صفة المعاهدة التى تربط تركيا دوليا ازاء مصر ، بحيث لا تملك تعديله الا بموافقة مصر ، وخاصة لانه صدر مقابل زيادة فى الجزية

قلنا إن هذا التغيير فى نظام التوارث لا يعد مكسباً كبيراً لمصر ، حتى تبذل من أجله تلك التضحيات المالية الباهظة ، ولقد برهنت الحوادث على صحة هذا القول ، لأن النتيجة الأولى للنظام الجديد كانت أيلولة العرش الى الخديوى توفيق ، أكبر أنجال اسماعيل ، ومعلوم أن توفيق باشا لم تكن ولايته خيراً على البلاد ، وهو الذى اعتلى العرش حينما خلع أبوه ، ولم يظهر نحوه من الوفاء ما كان ينتظره الأب من ولده ، ومضى اسماعيل سنوات النفى ، واحتمل غصصه وآلامه ، دون أن يلقى من ابنه عطفاً عليه فى محنته ، وإذا أغضينا النظر عن هذه الاعتبارات العائلية ، فلا يمكننا أن ننسى انه فى عهد توفيق رزئت البلاد بالاحتلال الانجليزى ، وكان عليه جانب كبير من تبعة وقوعه ، فلو لم يتقرر نظام التوارث الجديد ، لكان جائزاً أن يخلف اسماعيل على العرش أمير أنفع للبلاد وأخلص لها من توفيق باشا

وقد كان صدور الفرمان بهذا التغيير سبباً لاتساع هوة الخلاف والنفور بين اسماعيل وأخيه مصطفى فاضل ، الذى كان وليا للعهد طبقا لنظام الوراثة القديم ، واستمر العداء بينهما طول الحياة ، وكذلك اشتدت الكراهية بينه و بين عمه الأمير عبد الحليم بن محمد على ، فانه كان يتطلع الى الأريكة المصرية ، فجاء هذا الفرمان قاضياً على آماله

وأدت هذه الحالة الى اشتداد الدسائس بين الفريقين ، مما شغل اسماعيل وجعله

---

(١) الوثائق الدولية للسلطنة العثمانية لنورادنجيان افندى ج ٣ ص ٢٥٥ . وقاموس جلاد ج ٦ ص ٧٣١

يبذل جهوداً كبيرة وأموالا طائلة فى سبيل إضعاف مركز منافسيه ، ولو بذلت هذه الجهود والأموال فى سبيل مصلحة البلاد لكان ذلك خيراً وأولى

وافضت هذه الكراهية ، وما استتبعها من الوشايات والمؤامرات ، الى رحيل الاميرين المذكورين واسرتيهما من مصر ، واتخاذهما الاستانة وأوروبا مقرا لهما ، ونقم الأمير مصطفى فاضل على حكومة السلطان عبد العزيز لتغييرها نظام توارث الأريكة المصرية ، وعلم بما بذله اسماعيل فى هذا السبيل من الأموال الطائلة ، فانضم الى أحرار تركيا الناقمين على الحكم الاستبدادى فيها ، والذين كانوا يعملون على قلب نظام الحكم ، والتخلص من استبداد السلاطين ، وعاونهم بنفوذه وماله ، ومن هنا جاءت تسميته بابى الاحرار فى تركيا

أما عبد الحليم ، فقد نفاه اسماعيل من مصر إثر اكتشاف مكيدة لاغتياله ، قيل ان الأمير دبرها ، فاتخذ اسماعيل هذه الرواية ذريعة للتخلص منه ، فقرر نفيه

فرمان ٨ يونيه سنة ١٨٦٧

والحصول على لقب خديوى

واستمرت العلاقات الودية بين مصر وتركيا ، وظل اسماعيل يبذل المال بسخاء على ضفاف البوسفور ، فحصل فى ٨ يونيه سنة ١٨٦٧ (٥ صفر سنة ١٢٨٤) على فرمان جديد ، يخوله وخلفاءه لقب (خديوى) ، بعد أن كان (واليا) ، فارتقى صاحب العرش بهذا اللقب السامى الى مرتبة تقرب من مراتب الملوك والسلاطين ، وأقر هذا الفرمان حق الحكومة المصرية واستقلالها فى ادارة شؤونها الداخلية والمالية ، وحقها فى عقد المعاهدات الخاصة بالبريد والجمارك ومرور البضائع والركاب فى داخلية البلاد ، وشؤون الضبط للجاليات الاجنبية (١)

---

(١) قاموس جلاد ج ٦ ص ٧٣٢

فتور العلاقات ثم الجفاء
بين مصر وتركيا

على أن علاقة مصر بتركيا ما لبثت ان اعتراها الفتور والجفاء ، ثم الخصام والعداء ، ويرجع السبب الجوهرى فى هذا التحول الى رغبة اسماعيل فى الانفصال عن تركيا والظهور بمظهر العاهل المستقل

ذكر محمود باشا فهمى فى كتابه (البحر الزاخر ج ١ ص ١٩٩) انه فى خلال حملة كريت (التى سيرد الكلام عنها) طلب اسماعيل من الباب العالى ان يخوله حق تعيين سفراء لمصر لدى الدول الاجنبية ، فرأى الباب العالى ان مقصده الاستقلال والانفصال عن تركيا ، فرفض طلبه ، وكان من نتائج الرفض ان غضب اسماعيل ، وتهدد الحكومة التركية بسحب جنوده من جزيرة كريت ، أو يستحوذ على الجزيرة اذا لم تجب طلباته

وذكر اسماعيل باشا سرهنك فى كتابه (حقائق الاخبار ج ٢ ص ٣٤١) ما يدل على اشتداد الجفاء بين اسماعيل وتركيا خلال حملة كريت ، مما يؤيد رواية محمود باشا فهمى ، وكلاهما معاصر لهذه الحوادث ، قال انه لما وقع هذا الخلاف أوعز الخديوى الى شاهين باشا قائد الجيش المصرى فى حملة كريت أن يعمل على ترغيب سكان الجزيرة فى الانضمام لمصر ، فاخذ هذا يتودد الى زعماء الجزيرة ، ويجتذبهم بالمال والهدايا ، فلما علمت الحكومة التركية بذلك طلبت الى الخديوى عزل شاهين باشا من قيادة الجيش المصرى فى كريت ، فاضطر الى استدعائه ، وجعل مكانه قائدا آخر هو الفريق اسماعيل سليم باشا وزير الحربية وقتئذ

وقد تعددت الحوادث والمظاهر التى تدل على سعى اسماعيل للانفصال عن تركيا فمن ذلك مفاوضته الدول الأوروبية رأسا فى صدد انشاء النظام القضائى المختلط ، دون وساطة الباب العالى ، واشتراكه فى معرض باريس العام سنة ١٨٦٧ ، وظهوره فيه بمظهر الملك المستقل ، واقامته به قسما خاصا لمصر جمع فيه صنوف البهجة

والعظمة ليكون جديرا بتمثيل مملكة مستقلة ، ثم توصيته المعامل الفرنسية على صنع ثلاث بوارج حربية مصفحة ، وعدة آلاف من البنادق الحديثة الطراز ، لتسليح الجيش المصرى ، مما جعل الحكومة التركية تتوجس خيفة من مقاصد اسماعيل وتتوقع ان يستعد ويتأهب لاعلان الاستقلال التام

واستفاضت الانباء بأن تركيا عازمة على ارسال جيوشها الى مصر بعد اخماد ثورة كريت ، وخشى اسماعيل أن تنفذ تركيا يوما وعيدها ، فاستعد للدفاع والحرب ، وانشأ حصونا جديدة بين الاسكندرية وبورسعيد ، ورمم الحصون القديمة ، وابتاع من معمل ارمسترنج بانجلترا نحو مائتى مدفع من المدافع الضخمة ، سلح بها تلك القلاع ، ويلاحظ أن كثيراً من هذه المدافع باقية الى اليوم فى حصون الاسكندرية وأبو قير ودمياط ورأس البر ، وقد علاها الصدأ من الاهمال وتوالى السنين ، وعلى أكثرها تاريخ السنة التى انشئت فيها وهى سنة ١٨٦٩ ، أى السنة التى اشتد فيها الخلاف بين مصر وتركيا

وازدادت العلاقات فتورا بين البلدين لدعوة اسماعيل ملوك أوروبا ورؤساء حكوماتها الى حضور حفلات افتتاح قناة السويس سنة ١٨٦٩ ، دون وساطة تركيا ، فاعتبر السلطان هذه الدعوة اغفالا لواجب الولاء نحوه ، واحتج لدى الدول على مسلك الخديوى ، فلم يكترث اسماعيل لهذا الاحتجاج ، واستمر ماضيا فى دعوته ، وأقام حفلات القناة برآسته ، وحضرها ملوك أوروبا وأمراؤها

وكان معتزما اعلان استقلال مصر التام فى تلك الحفلات ، ولكن الحكومات الأوروبية لم تسايره فى غرضه ، ونصحته أن يعدل عن عزمه ، وانتهت حفلات القناة والجفاء مستحكم بين اسماعيل والباب العالى

فرمان ٢٩ نوفمبر سنة ١٨٦٩

وما فيه من القيود

كان من نتائج هذا الجفاء صدور فرمان ٢٩ نوفمبر سنة ١٨٦٩ (٢٤ شعبان

سنة ١٢٨٦) ، حمله رسول من الباب العالى الى مصر عقب انفضاض حفلات القناة ، فجاء صدمة لآمال اسماعيل ، إذ بينما هو يأمل لمناسبة تلك الحفلات أن يصل الى الاستقلال التام ، كانت النتيجة صدور فرمان ينتقص من سلطته

قيد السلطان بهذا الفرمان حقوق الخديوى ، فنص فيه على أنه لايجوز له أن يقترض قروضا جديدة دون أن يبين وجه الحاجة اليها ، ويحصل على اذن من السلطان بعقدها [1] ، وكان السبب الظاهر لهذا التقييد غيرة الباب العالى على مصالح مصر ، واستياءه من تورط اسماعيل فى الديون الباهظة التى استدانها

وفى الحق ان اسماعيل كان فى حاجة الى من يغل يده عن الاسراف فى الاستدانة ، ويقيده فى تصرفاته المالية ، وحبذا لو أن هذا القيد جاء من ناحية الأمة ، أو بعبارة أخرى من ناحية مجلس شورى النواب ، الذى كان ينعقد كل عام ، على أننا لا نعتقد أن الباب العالى كان يقصد الى مصلحة مصر فى تقييد اسماعيل بهذا القيد ، بل اغلب الظن انه كان يرمى الى استرداد حقوق جديدة لكى يكيد للخديوى ويسىء اليه

وقد استاء الخديوى من هذا الفرمان ، ولم يعقد احتفالا حافلا لتلاوته بالأبهة المعتادة ، بل قرئ فى قصر النيل دون جلبة ولا اعلان

تحسين العلاقات

فرمان سبتمبر سنة ١٨٧٢

على أن اسماعيل أخذ يسعى فى تحسين علاقته بتركيا ، لما رأى انه فى حاجة الى عضدها ، بعد أن خذلته الدول الاوروبية ، واشتدت ورطته المالية ، فقصد الى الاستانة فى صيف سنة ١٨٧٢ يصحبه اسماعيل صديق باشا وزير المالية ، ونوبار باشا وزير الخارجية ، ليسعوا فى اعادة المياه الى مجاريها ، وبذلوا هناك مابذلوا من مظاهر الولاء ومن المال والرشا والهدايا ، حتى عادت علاقات الود بين الخديوى والحكومة التركية

---

(١) راجع نص الفرمان فى القاموس العام للادارة والقضاء لفيليب جلاد ج ٦ ص ٧٣٣

فنال فى سنة واحدة فرماناً فى ١٠ سبتمبر سنة ١٨٧٢ (٧ رجب سنة ١٢٨٩) يثبت الامتيازات السابق منحه اياها ، و ينسخ القيود الواردة فى فرمان سنة ١٨٦٩ ، وخطاً شريفا فى ٢٥ سبتمبر سنة ١٨٧٢ (٢٢ رجب سنة ١٢٨٩) يؤكد فيه مزايا فرمان ١٠ سبتمبر ، و يخوله صراحة حق الاستدانة من الخارج دون شرط ولا قيد

وقد ابتهج الخديوى ابتهاجا عظيما لورود الفرمان والخط الشريف الى مصر ، يحملهما كبير كتاب المابين ، وعقد لتلاوتهما احتفالا فخما فى ديوان الغورى بالقلعة ، وقرئا بحضور المدعوين ، وأطلقت المدافع ايذانا بهذا النصر المبين ، ونشر نصهما فى الجريدة الرسمية (١)

وكان من نتائج صدور الفرمان والخط الشريف المذكورين عقد قرض سنة ١٨٧٣ ، ذلك القرض المشؤوم الذى كان طامة كبرى على البلاد كما سنبينه فيما يلى

الفرمان الجامع (٨ يونيه سنة ١٨٧٣)

لم يكتف الخديوى اسماعيل بهذا الفرمان ، بل أراد أن يحصل على فرمان جامع للمزايا التى نالتها مصر منذ تولية محمد على حكم مصر بطريق التوارث الى ذلك العهد ، فقصد الى الاستانة فى صيف سنة ١٨٧٣ متذرعا بالاموال يرشو بها رجال الحكومة التركية ، وصحبه فى رحلته جمع من أركان حكومته و بطانته كنوبار باشا وزير الخارجية ، واسماعيل صديق وزير الداخلية ، ورياض باشا مستشار مجلس الوزراء (المجلس الخصوصى العالى) وغيرهم ، وما زال يسعى حتى نال الفرمان المؤرخ ٨ يونيه سنة ١٨٧٣ (١٣ ربيع الثانى سنة ١٢٩٠) ، (٢) ، وهو الفرمان الجامع الذى ثبت المزايا الواردة فى الفرمانات القديمة والحديثة ، وتتلخص هذه المزايا فى الحقوق الآتية

(١) توارث عرش مصر فى أكبر أنجال الخديوى ، ومن بعده الى أكبر أولاد هذا الاكبر وهلم جرا

---

(١) الوقائع المصرية عدد ٤٨٠ الصادر فى ٢٩ اكتوبر سنة ١٨٧٢

(٢) الوثائق الدولية للسلطنة العثمانية لنورادنجيان افندى ج ٣ ص ٣٤٧

(٢) تشمل أملاك الخديوية المصرية مصر وملحقاتها (السودان) الجارية ادارتها بمعرفتها مع ماصار الحاقه بها من قائمقاميتى سواكن ومصوع وملحقاتهما

(٣) حق الحكومة المصرية فى سن القوانين والنظامات الداخلية على اختلاف أنواعها

(٤) حق عقد الاتفاقات الجمركية والمعاهدات التجارية

(٥) حق الاقتراض من الخارج من غير استئذان من الحكومة التركية

(٦) زيادة الجيش الى أى عدد يبتغيه الخديوى

(٧) حق بناء السفن الحربية ما عدا المدرعات التى يجب لانشائها استئذان الحكومة التركية

وصفوة القول أن هـذا الفرمان الجامع قد ثبت لمصر حقوقها الكاملة فى الاستقلال التام ، فيما عدا دفع الجزية السنوية ، وقدرها ٧٥٠ الف جنيه عثمانى ، وعدم عقد المعاهدات السياسية، وحق التمثيل الخارجى، وعدم صنع المدرعات الحربية

وقد نشر هذا الفرمان فى العدد ٥١٧ من (الوقائع المصرية) الصادر فى ١٧ يوليه سنة ١٨٧٣

عود الجفاء

على أن هذه الفرمانات لم تصل الى احلال الوئام بين مصر وتركيا محل الجفاء والخصام ، بل على الرغم من الظواهر ، فان تركيا كانت لاتخلص النية نحو مصر ، كما أن اسماعيل كان يسىء بها الظن ويعتقد بحق انها لاتتردد فى استرداد الامتيازات التى نالتها مصر اذا استطاعت الى ذلك سبيلا

وبدا سوء نية تركيا نحو مصر من ممالأتها الدول الأوروبية فى خلافها مع الخديوى اسماعيل ، ذلك الخلاف الذى أدى الى خلعه ، كما سنبينه فى موضعه ، فان مطالب الحكومات الأوروبية فى هذا الخلاف كانت مطالب جائرة لا يقرها عدل ، ولا يسيغها منطق ، وظهر فيها الافتيات الصارخ على حقوق مصر ، وانتهاز الدول الارتباك المالى لتحقيق اطماعها الاستعمارية ، وبالرغم من ذلك لم يتردد الباب العالى

فى الانضمام الى الدول الأوروبية ، والنزول على ارادتها ، ولم يكد يتبين رغبتها فى التخلص من اسماعيل حتى بادره برسالته التلغرافية القاضية بخلعه من منصب الخديوية ، وتعيين نجله توفيق باشا خلفا له ، ولم يكن هذا العمل لصالح مصر ، ولا لصالح تركيا أيضا ، بل كان تمكينا للنفوذ الاجنبى فى مصر ، ولكن تخبط السياسة التركية وسوء نيتها نحو مصر جعلها تستجيب لمطالب الدول ، وتلك أول مرة خلع فيها ولى الأمر فى مصر على عهد الأسرة العلوية برغبة الحكومات الأوروبية ، وممالأة الحكومة التركية ، وفى ذلك أعظم افتيات على حقوق مصر واستقلالها

(٢)
سياسة اسماعيل حيال الدول الاوروبية

كانت القاعدة العامة لسياسة اسماعيل الخارجية الركون الى الدول الأوروبية ، وحسن الظن بها ، والعمل على كسب رضاها ، وهذا من غلطاته السياسية ، لأنه من المعلوم أن الدول والجاليات الأوروبية على اختلاف أجناسها ، إنما ترمى الى تحقيق اطماعها الاستعمارية فى بلاد الشرق قاطبة ، ومصر فى طليعتها

وتلك لعمرى حقيقة يعترف بها الأوروبيون المنصفون ، فقد كتب المسيو (فان بِمْلِنْ) Van Bemlen وهو قاض هولندى تولى القضاء فى المحاكم المختلطة على عهد اسماعيل يقول فى هذا الصدد

« إن علاقات الحكومات الأوروبية بمصر لم تقم إلا على قاعدة تحقيق مصالحها ومصالح رعاياها ، وان سياستها المبنية على الأثرة والأنانية لم يتخللها أى شعور بالعطف أو بالرأفة أو بالواجب نحو مصر ، ومعظم الأوروبيين الذين جاءوا الى هذه البلاد كانوا من أحط الطبقات ، ولم يكن همهم إلا الاثراء على حساب البلاد »(١)

هذا ما يقوله قاض أوروبى عادل مثقف سبر غور الأمور فى مصر ، وتلك هى

---

(١) مصر وأوروبا . للقاضى المختلط فان بملن ج ١ ص ١١٦

الحقيقة التى يطالعنا بها فى كتابه ، لكن الخديوى اسماعيل لم يفطن الى تلك الحقائق

وهنا يبدو الفرق جليًا بين محمد على و اسماعيل ، فمحمد على كان يقتبس من التمدن الأوربى وسائل النهضة والقوة والتقدم ، ويستعين بخبرة علماء أوروبا ومهندسيها ، ولكنه فى الوقت نفسه يحذر تدخل الأورو بيين حكوماتٍ وجالياتٍ فى شؤون البلاد ، ولا يطمئن اليهم ، ولذلك بقيت البلاد فى عهده سليمة من تدخل النفوذ الأوروبى ، سواء من الوجهة السياسية أو من الوجهة المالية والاقتصادية ، ويكفيك دليلا على بعد نظره وحكمته أنه لم يقبل إنفاذ مشروع قناة السويس ، رغم إلحاح الماليين والسياسيين الأجانب عليه ، وكذلك لم يقبل أن يعهد الى شركة مالية انجليزية إنشاء الخط الحديدى بين مصر والسويس ، ولم يمد يده الى الاقتراض من البيوت المالية الأجنبية ، كل ذلك لكى يصون البلاد من أخطار التدخل الأجنبى

لكن اسماعيل ، لنزعته الأوروبية ، لم يحسب حساباً لهذا التدخل ، ولعله كان يتوهم حسن نية الدول الأوروبية نحوه ونحو مصر ، فما زال الوهم متسلطا عليه حتى أدرك خطأه فى آخر عهده ، إذ رأى الدول والجاليات الأوروبية ، التى طالما تودد اليها ، ومكّن لها من مرافق البلاد ، تضطره الى بيع أملاكه وأملاك عائلته وفاءً لديونه ، ورأى النفوذ الأوروبى يشل سلطته ، فحاول عبثاً أن يقاومه أو يضع له حداً ، ولكن هذا النفوذ كان قد طغى واستفحل ، فلم يستطع له دفعاً ، وانتهى الامر بأن اقتلعته إرادة الدول الأوروبية عن الاريكة الخديوية

والآن نتكلم عن سياسة اسماعيل نحو الدولتين اللتين تنافستا على النفوذ والسلطة فى مصر ، وهما فرنسا وانجلترا

فرنسا

كانت السنوات الأولى من حكم اسماعيل هى الفترة التى أخذ فيها النفوذ الاجنبى يتغلغل فى البلاد ، مالياً واقتصاديا ، ثم انقلب هذا النفوذ فى أواخر عهده الى سيطرة مالية وسياسية شديدة الوطأة

وكان لفرنسا بادئ الأمر نفوذ أدبى كبير على اسماعيل، وهذا يرجع أولا ، الى تربيته الفرنسية ، والسنوات التى قضاها فى باريس ، ومعاشرته الطويلة للفرنسيين، واتصاله بهم ، وإتقانه لغتهم ، وميله الى تقليدهم فى معيشتهم ، واقتباسه أساليبهم وعوائدهم ، فيما خلا فضيلة التدبير والاقتصاد التى اشتهروا بها ، والتى تعد من أعظم فضائلهم القومية

وهناك عامل آخر ساعد على امتداد النفوذ الفرنسى ، وهو صلة الخديوى اسماعيل بالامبراطور نابليون الثالث ، وصداقته له واعجابه به ، ومحاكاته إياه فى مظاهر الأبهة والعظمة ، وسعيه فى كسب ثقته وتوثيق روابط الود بينهما

ويتجلى لك مبلغ النفوذ الفرنسى ، فى أنه لما قام الخلاف بين اسماعيل وشركة قناة السويس فى أوائل عهده بالحكم ، ارتضى تدخل الامبراطور نابليون الثالث لحسم الخلاف ، ورضى أن يجعله حكما بينه وبين الشركة ، مع أنه يعلم بالبداهة ان امبراطور الفرنسيين لا يمكن أن يكون حكما عادلا فى مثل هذا الخلاف ، وان حكمه لا يمكن أن يخلو من المحاباة للشركة الفرنسية ، وقد أصدر نابليون الثالث فعلا حكمه بإلزام الحكومة المصرية بتعويضات باهظة للشركة تبلغ عدة ملايين من الجنيهات

ويبدو هذا النفوذ أيضا فى استخدام اسماعيل لطائفة من الفرنسيين فى كثير من معاملاته المالية وقروضه ، وإسناد كثير من مشروعات العمران الى اخصائيين من الفرنسيين

وقد بلغ هذا النفوذ أقصى مداه فى حفلات افتتاح القناة سنة ١٨٦٩ ، فالقناة فى ذاتها عمل فرنسى ، وفاتحها فردينان دلسيبس يمثل كفاءة فرنسا المالية والهندسية، وكانت أوجينى امبراطورة الفرنسيين تمثل الدولة الفرنسية فى إبان مجدها وأوج عزها ، وهى التى رأست حفلات الافتتاح ، متقدمة ملوك أوروبا وامراءها وأقطابها فى السياسة والعلوم والفنون ، فكانت هذه الحفلات الفخمة إيذاناً بما بلغه النفوذ الفرنسى فى مصر من القوة وسمو المنزلة

على أن هذا النفوذ أخذ فى الاضمحلال عقب الحرب السبعينية سنة ١٨٧٠ — ١٨٧١ ، فان انتصار الالمان فى هذه الحرب زلزل سيطرة فرنسا السياسية فى أوروبا والشرق ، وثلَّ عرش الامبراطورية ، وكان من أولى نتائجها سقوط نابليون الثالث صديق اسماعيل الذى كان يعتمد عليه فى مهمات الأمور ، ومن ثَمَّ أخذ النفوذ الفرنسى يتضاءل فى مصر ، مخلياً الطريق للنفوذ الانجليزى

— انجلترا —

لايخفى أن انتصار ألمانيا فى الحرب السبعينية كان له تأثير سيء فى المسألة المصرية ، لأن إضعاف نفوذ فرنسا قد مَهَّد لانجلترا السبيل لتكون صاحبة الصوت الأعلى فى هذه المسألة ، ومَكَّنها من الانفراد بالتدخل فى شؤون مصر ، حتى انتهى الى الاحتلال الانجليزى سنة ١٨٨٢ ، فلا يغيبنَّ عنك انه كان ثمة تنافس بين الدولتين على كسب النفوذ فى مصر ، وقد اشتد هذا التنافس من عهد انشاء قناة السويس ، وكان التعادل بين قوتيهما يحول دون سيطرة إحداهما على مصير البلاد ، ولكن صوت فرنسا فى المسألة المصرية أخذ يضعف من نهاية سنة ١٨٧٠ ، فاغتنمت انجلترا هذه الفرصة لانفاذ ارادتها فى وادى النيل ، اعتبر ذلك فيما وقع حين قامت الحوادث العرابية سنة ١٨٨١ ، واعتزمت انجلترا احتلال مصر ، فقد كان هذا المشروع مهدداً بالاخفاق لو اشتركت فرنسا معها فى العمل ، ولكن فرنسا تركت انجلترا تحتل البلاد وحدها ، وهذا يرجع الى أسباب عدة لامحل لبسطها الآن ، وسنتكلم عنها فى موضعها ، ولكن لاشك أن من بين هذه الاسباب ضعف فرنسا بعد هزيمتها فى الحرب السبعينية ، وخوفها من الخطر الذى يتهددها من ناحية ألمانيا

ولو بقيت فرنسا على قوتها ونفوذها قبل الحرب السبعينية لكان من تنافسها هى وانجلترا فى المسألة المصرية مايكفل لمصر التخلص من مطامع الدولتين ، ولكن التوازن بينهما قد اختل بعد هزيمة فرنسا سنة ١٨٧٠ ، فأخذت كفة انجلترا ترجح

فى شؤون مصر ، وأخذ اسماعيل من ناحيته ينصرف عن فرنسا لما أصابها من الضعف ، ويتجه ببصره تلقاء انجلترا ، ويتودد اليها

على أن انجلترا منذ افتتاح قناة السويس سنة ١٨٦٩ بدأت فعلا فى العمل على تثبيت مركزها فى مصر تمهيداً لاحتلالها ، وأخذت فى الوقت نفسه تتطلع الى السودان ، وتمد أصبعها اليه تمهيدا لفصله عن مصر ، يدلك على ذلك سلسلة من الاعمال ترمى الى تحقيق تلك المطامع ، فمنها أنها أوعزت الى الخديوى اسماعيل أن يعين السير صمويل بيكر الرحالة الانجليزى الشهير حاكما لمديرية خط الاستواء ، ولما انتهت مدته عملت على أن يخلفه فى هذا المنصب انجليزى آخر وهو الكولونل غردون (باشا) ، وسعت لتخويله سلطة كبرى لارقابة عليه فيها للحاكم المصرى العام كما سيجىء بيانه

وفى سنة ١٨٧٠ عهد الخديوى الى شركة انجليزية تدعى شركة جرنفلد انفاذ مشروع توسيع ميناء الاسكندرية والقيام بأعمال الاصلاح فيها مقابل عدة ملايين من الجنيهات

وانتهزت انجلترا فرصة ارتباك اسماعيل المالى لكى تزيد فى ورطته ، وتجلت هذه النية واضحة فى شرائها أسهم مصر فى قناة السويس سنة ١٨٧٥ ، فان هذه الصفقة كانت أول ضربة صوبتها انجلترا الى صرح الاستقلال المصرى

وفى سنة ١٨٧٧ أوعزت الى الخديوى ان يعين غردون باشا حكمدارا (حاكما عاما) للسودان ، وهو منصب من أكبر مناصب الدولة وأعظمها خطرا ، وتلك أول مرة فى تاريخ مصر أسند فيها هذا المنصب السامى الى أجنبى

فهذه الحوادث لم تقع عبثاً ، بل هى مظاهر لامتداد النفوذ الانجليزى فى بلاط الخديوى منذ سنة ١٨٧٠

وقد توثقت العلاقات الودية فى هذه الحقبة من الزمن بين الخديوى وانجلترا ، وتعددت مظاهرها ، فعقدت انجلترا ومصر فى ١٨ مايو سنة ١٨٧٣ معاهدة لتسهيل تبادل البريد

وعقدتا فى ١٤ اغسطس سنة ١٨٧٧ معاهدة للتعاون على ابطال الرقيق

ويظهر لك مبلغ حرص اسماعيل على كسب رضا انجلترا ، وتجنب مجافاتها ، انه لما جرد سنة ١٨٧٥ حملة الى شواطىء السومال الواقعة على المحيط الهندى لبسط نفوذ مصر فى شرق افريقية والوصول من هذه الجهة الى املاكها فى خط الاستواء ، استاءت انجلترا من هذه الحملة ، وأرسلت الى اسماعيل تعترض على إنفاذها ، فبادر الخديوى الى الاستجابة لاحتجاجها ، واسترجع الحملة الى مصر استبقاء لعلاقات الود بينهما

وفى ٧ سبتمبر سنة ١٨٧٧ عقد واياها معاهدة اعترفت فيها انجلترا بسلطة مصر فى بلاد السومال الشمالية ، فكانت هذه المعاهدة مظهرا من مظاهر «العلاقات الودية» بين مصر وانجلترا

على ان هذا «الود» لم يمنع انجلترا من ان تضمر الشر لمصر ، وتعمل على إخضاعها للرقابة الاجنبية ، ولما اشتد الخلاف بين الخديوى والدائنين سعت سعيها فى خلعه ونجحت فى مسعاها سنة ١٨٧٩ ، فكان هذا ختام « السياسة الودية » التى اتبعها اسماعيل حيالها

الفصل الرابع

قناة السويس

إن مسألة قناة السويس من أولى المسائل السياسية التي واجهت اسماعيل في أوائل عهده بالحكم ، إذ كانت أنظار الأوروبيين متطلعة الى ما يؤول اليه مصير القناة بعد وفاة سعيد الذي عرف عنه أنه سند المشروع وقوامه ، فلما مات قلق المسيو فرديناند دلسبس على مشروعه ، وخشي أن يكون نصيبه الاخفاق ، ولكن اسماعيل باشا بادر في أول اجتماع له بوكلاء الدول وأفضى اليهم بعزمه على تأييد المشروع

فقناة السويس يرجع إتمامها الى تعضيد إسماعيل ورعايته ، لأن سعيد باشا لم يكد يتولى المشروع في خطواته الأولى ، حتى عاجلته المنية ، فلولا اتجاه إرادة اسماعيل الى تعضيد المشروع وانفاذه ، لكان مصيره الحبوط لا محالة ، ولعجز المسيو دلسبس عن المضي فيه ، ولعل اسماعيل أراد كما أراد سلفه أن يكسب رضا الأوروبيين من أنصار المشروع ، وينال إطراءهم وثناءهم ، ويستحق في نظرهم لقب « فاتح القناة » ، فعضد المشروع بكل قوته ، واحتمل تبعة إتمامه ، كما احتمل سعيد تبعة البدء فيه والتصميم على إنفاذه

سعي اسماعيل في تخفيف شروط الامتياز

على أنه من الحق أن نقرر أن اسماعيل باشا قد هالته فداحة المزايا التي نالتها الشركة في عقد الامتياز ، فسعى جهده في تخفيفها ، وكان من هذه الوجهة أكثر مراعاة لمصلحة مصر من عمه سعيد

ومما يؤثر عنه أنه قال يوماً « إني أريد أن تكون القناة لمصر ، لا أن تكون مصر للقناة » ، وقيل إنه فكر يوماً في أن يتولى بنفسه تنفيذ المشروع ، ولو حقق هذه الفكرة لجعل القناة حقيقة ملكا لمصر ، ولكنه لم يفعل ، واكتفى بالاعتراض على أوجه أربعة من شروط الامتياز وسعى في إبطالها وهي :—

(١) تعهد الحكومة بتقديم العمال الذين تحتاج اليهم الشركة لغاية عشرين الفا باستمرار (١) ، وزعم الشركة أن لها مطالبة الحكومة بتعويض فى حال تقصيرها أو عجزها عن تقديم هذا العدد

(٢) ملكية الشركة لترعة المياه العذبة التى كلفت بمقتضى العقد انشاءها واستغلال رى الاطيان المملوكة للافراد على جانبيها مقابل أجر تقتضيه منهم حسب تقديرها

(٣) ملكية الشركة لجميع الاراضى التى ترى انها فى حاجة اليها لحفر القناة وانشاء الترعة العذبة ، واعفاؤها على الدوام من دفع الأموال الاميرية عنها ، وملكيتها لجميع الاراضى التى تستصلحها وتزرعها ، واعفاؤها من دفع أموالها مدة عشر سنوات

(٤) اضطرار الحكومة الى نزع ملكية الاطيان المملوكة للافراد إذا احتاجت اليها الشركة لاستغلال امتيازها

وقد فاوض اسماعيل الشركة لالغاء هذه الشروط ، واعتمد فى مفاوضاته على وزيره نوبار باشا ، وقدم حججاً وأسانيد قوية تأييداً لطلباته ، وكانت حجته فى الغاء الشرط الأول رغبته فى الغاء السخرة ، لان هذا الشرط هو إقرار فعلى لتسخير العمال والفلاحين فى العمل لفتح القناة ، وهذا مالا يتفق ومبادئ الانسانية

وحجته بالنسبة للشرط الثانى والثالث أن قوانين الدولة العثمانية الخاصة بالملكية العقارية والتى كانت متبعة فى مصر وقتئذ لا تجيز التنازل للاجانب عن ملكية الاراضى والعقارات

وكانت أولى خطواته فى تخفيف الشروط أن أبرم اتفاقا مع الشركة فى ١٨ مارس سنة ١٨٦٣ (٢) يقضى بأن تتولى الحكومة انشاء الترعة فى القسم الممتد

---

(١) بلغ هذا العدد ٢٢ ألفاً فى أواخر عهد سعيد (ج ٤ ص ٣٤٤ من وثائق القناة للمسيو دالسبس)

(٢) وثائق القناة للمسيو دالسبس ج ٤ ص ٢٩٠

بين النيل ووادى الطميلات ، ووصلها بالجزء الذى أنشأته الشركة من ترعة الوادى الى القناة ، وقد عرفت هذه الترعة من منبعها إلى مصبها بالترعة الاسماعيلية ، وغرض الخديوى من هذا الاتفاق تجنب المنازعات الخاصة بتملك الشركة للترعة ، وانتزاعها ملكية الافراد من الاطيان التى يقتضيها انشاؤها ، وكان عمله فى هذا قرين الحكمة والسداد

وأوفد اسماعيل وزيره نوبار باشا الى الاستانة ، ثم الى فرنسا ، للسعى فى تخفيف شروط الامتياز ، وأوضح مطالبه فى رسالة بعث بها نوبار الى الشركة[1] وتتلخص فيما يلى

(١) انقاص عدد العمال الذين تلتزم الحكومة بتقديمهم للشركة الى ستة آلاف لأن تسخير العدد الحالى (٢٠ ألفاً) يضر بالبلاد و بالزراعة

(٢) زيادة أجورهم ، وجعلها فرنكين لكل عامل فى اليوم ، لكى يعوض الفلاح مايخسره من ترك بلده وأرضه ومايبذله من الجهد للعمل فى حفر القناة

(٣) الغاء امتياز ملكية الشركة للاراضى ، وفى مقابل ذلك تأخذ الحكومة المصرية على عهدتها اتمام الترعة العذبة ، وأن تعوض الشركة قيمة النفقات التى بذلتها فى القسم الذى انشأته منها

وقد عارضت الشركة فى هذه المطالب ، بحجة أن انقاص عدد العمال من عشرين الفاً الى ستة آلاف يعطل اتمام المشروع ، و يطيل مدة العمل من ثلاث سنوات الى عشر ، مما يكبد الشركة خسائر جسيمة ، وان تملكها للاراضى القابلة للاستصلاح ، وللترعة من رأس الوادى الى القناة ، من المسائل الجوهرية التى لاتتنازل عنها

تحكيم نابليون الثالث

وقد اشتد الجدل حول مطالب اسماعيل ، وهبت الصحف والدوائر السياسية والمالية فى فرنسا للدفاع عن شروط العقد ، والمعارضة فى ابطالها ، وارتضى الخديوى

---

(١) بتاريخ ١٢ اكتوبر سنة ١٨٦٣ — وثائق القناة للمسيو دلسبس ج ٤ ص ٣٥٠

أخيراً تحكيم الامبراطور نابليون الثالث امبراطور الفرنسيس ، للفصل فى النزاع ، فكان هو الخصم والحكم ، لما كان معروفا عنه من تأييده للشركة ، وعطفه على المسيو فردينان دلسبس ، ويرجع هذا العطف الى أن المشروع فى ذاته عظيم النفع لفرنسا ، والى أن دلسبس يمت الى الامبراطورة أوجينى بصلة قرابة بعيدة

الحكم فى النزاع

أصدر الامبراطور نابليون الثالث حكمه فى ٦ يوليه سنة ١٨٦٤ وهو يقضى بما يأتى : —

(١) ابطال حق الشركة فى مطالبة الحكومة بتقديم العمال المصريين ، والزام الحكومة فى مقابل ذلك بتعويض مالى تدفعه للشركة ومقداره ٣٨٫٠٠٠٫٠٠٠ فرنك

(٢) تنازل الشركة للحكومة عن كل حق فى ترعة المياه العذبة ، والتزام الحكومة باتمامها مع احتفاظ الشركة بحق الانتفاع بها ، والزام الحكومة مقابل هذا التنازل بأن تدفع للشركة تعويضا قدره ١٦٫٠٠٠٫٠٠٠ فرنك

(٣) جعل الأراضى المملوكة للشركة واللازمة للمشروع ٢٣٫٠٠٠ هكتار تقريباً [١] ، منها ١٠٫٢٦٤ هكتاراً على جانبى القناة البحرية وملحقاتها ، و ٩٫٦٠٠ هكتار للترعة العذبة ، وثلاثة آلاف هكتار لمبانى الشركة

(٤) إعادة الأراضى الأخرى التى اتضح عدم لزومها للمشروع ومساحتها ٦٠٫٠٠٠ هكتار ، مقابل تعويض تدفعه الحكومة وقدره ٣٠٫٠٠٠٫٠٠٠ فرنك [٢]

فداحة التعويضات

فكان مجموع ما ألزمت به الحكومة من التعويضات للشركة طبقاً لحكم الامبراطور نابليون الثالث ٨٤٫٠٠٠٫٠٠٠ فرنك = (٣٫٣٦٠٫٠٠٠ جنيه) ، و بيانها كما يأتى بالجنيهات :

---

(١) الهكتار عشرة آلاف متر أى أكثر من فدانين

(٢) رسائل ويوميات ووثائق عن القناة للمسيو دلسبس ج ٤ ص ٤٧٦

جنيـــــه	
١٫٥٢٠٫٠٠٠	مقابل إعفاء الحكومة من تقديم العمال المصريين لحفر القناة
٦٤٠٫٠٠٠	مقابل تنازل الشركة عن حق إنشاء الترعة العذبة
١٫٢٠٠٫٠٠٠	مقابل تنازل الشركة عن دعواها فى ملكية الأراضى
٣٫٣٦٠٫٠٠٠	مجموع التعويضات

وإذا علمتَ أن رأس مال الشركة هو ثمانية ملايين جنيه ، أمكنك أن تقدر فداحة التعويضات التى حكم على مصر بأدائها ، وانها تبلغ على وجه التقريب نصف رأس مال الشركة

ويُعد هذا الحكم من الاحكام الجائرة فى التاريخ ، لانه بنى على أسباب لا يسيغها عدل ولا منطق ، فقد ألزم الامبراطور نابليون الثالث الحكومة المصرية بتعويض عن أمور ثلاثة وهى

(الأول) اعفاؤها من تقديم العمال المصريين ، وبنى هذا التعويض على أنها ملتزمة أصلا بتقديم هؤلاء العمال للشركة ، وان إخلالها بهذا الالتزام سيضطر الشركة الى جلب عمال من أوروبا ، فتدفع لهم فروقا فى الاجرة ، والى استحضار آلات تغنى عن الايدى العاملة ، وتكلفها نفقات طائلة ، وأن الحكومة المصرية مسؤولة عن هذه الفروق والنفقات، وقدقدرها بهذا المبلغ الضخم (١٫٥٢٠٫٠٠٠ جنيه)

ولامراء فى ان هذا السبب ظاهر فيه التعسف والهوى ، لانه من التأمل فى شروط الامتياز يتبين أنها لا تتضمن « التزاما » من الحكومة بتقديم أى عدد من العمال ، بل كل ما ورد فى العقدان أربعة أخماس العمال يكونون من المصريين (مادة٢) ، وأن الحكومة تعهدت ببذل مساعدتها للشركة (مادة ٢٢) ، فليس فى العقد « التزام » بالمعنى القانونى يؤدى الى الحكم بتعويضات فيما اذا لم تسخر الحكومة العدد الذى تبتغيه الشركة من العمال، بل كان على الشركة أن ترغب العمال فى العمل بالاجور التى تعرضها عليهم ، أما جعل العمل اجباريا بواسطة سلطة الحكومة، فأمر لم تلتزم به الحكومة أصلا فى عقد الامتياز

(الثانى) تنازل الشركة للحكومة عن اتمام ترعة المياه العذبة ، وعن الجزء الذى انشأته فيها ، وقد رتب الحكم على هذا التنازل الزام الحكومة بتعويض الشركة مقابل النفقات التى بذلتها فى الجزء الذى انشأته وحرمانها من الارباح التى كانت تنالها من استغلال الترعة بعد تمامها،وقدر هذا التعويض بمبلغ ١٦٫٠٠٠٫٠٠٠ فرنك (٦٤٠٫٠٠٠ جنيه) ، وكانت العدالة تقضى بأن لا تلزم الحكومة الا بما أنفقته الشركة فعلا على الجزء الذى انشأته ، مادامت قد تنازلت عنه للحكومة ، وهذا ما كان اسماعيل باشا مستعداً لادائه،ومقداره باعتراف الشركة ٧٫٥٠٠٫٠٠٠ فرنك (٣٠٠٫٠٠٠ جنيه) ، ولكن التحيز والهوى جعلا نابليون الثالث يكيل المال جزافا للشركة

(الثالث) تنازل الشركة عن ملكية الاراضى التى تبين من الحكم عدم لزومها لانفاذ المشروع ، وقد قدرت فى الحكم بـ ٦٠٫٠٠٠ هكتار ، وهنا أيضا ظهر الغرض والتحيز للشركة ، لان هذه الاراضى هى جهات صحراوية جرداء ، لم تكن الشركة قد استصلحتها بعد ، واتضح ان انفاذ المشروع لا يقتضيها ، وبالرغم من ذلك قدر نابليون الثالث ثمنا لها على اعتبار ما سيؤول اليه أمرها فى المستقبل ! ! فجعل لكل هكتار (فدانين تقريبا) خمسمائة فرنك (٢٠ جنيها) ، وحكم على مصر بأن تدفع للشركة فى هذا الباب وحده ثلاثين مليون فرنك (١٫٢٠٠٫٠٠٠ جنيه) ، وهكذا قضت « عدالة » نابليون الثالث أن تدفع مصر هذا الثمن الباهظ لبقاء ملكها فى حوزتها ، وهذا من أغرب ما سمع فى معرض الظلم والجور

والخلاصة أن مصر خرجت من هذا التحكيم بصفقة المغبون ، وعدت الشركة حكم الامبراطور فوزاً مبيناً كفل لها اتمام المشروع على حساب مصر ، فلا غرو ان وصفه المسيو فردينان دلسبس بانه « السند الاساسى للشركة ووثيقة الكفالة والاطمئنان لها (١) » ، وكذلك كانت مراحل المشروع منذ البدء فيه الى ما بعد اتمامه شؤما ووبالا على البلاد

---

(١) وثائق القناة للمسيو دلسبس ج ٥ ص ٢١٨

وغنىٌّ عن البيان ان الحكمة كانت تقضى بأن لا يتورط الخديوى اسماعيل فى مثل هذا التحكيم، الذى جر على مصر هذه الخسائر الجسيمة ، ولو انه استمسك بشروطه ولم يقبل تحكيما لما استطاعت الشركة أن تخطو خطوة فى العمل ، إذ كان كل شيء معلقاً على الأيدى العاملة المصرية ، ولولا تلك الأيدى النشيطة القوية، لوقف المشروع وقضى عليه بالحبوط ، دون أن تحرك مصر ساكناً ، ولكن شاء جدُّ مصر العاثر أن يركن اسماعيل الى « العدالة الاوروبية »، فوقع على يدها مارأيتَ من الظلم والاعتساف

اتفاق ٣٠ يناير سنة ١٨٦٦

وعقد اسماعيل والشركة اتفاقاً فى ٣٠ يناير سنة ١٨٦٦ لتسوية النزاع بينهما مع مراعاة حكم نابليون الثالث ، وهذا الاتفاق يقضى بما يأتى :

(١) تحديد مواعيد الأقساط المقدرة لأداء قيمة التعويضات المحكوم بها للشركة

(٢) استعمال الأراضى المخصصة للشركة بصفة ملحقات للقناة الملحة

(٣) التنازل للحكومة عن ترعة المياه العذبة مع الأراضى والمبانى والأعمال الفنية التابعة لها ، على أن تدفع لها الحكومة ثمن هذه المبانى

(٤) مبيع أراضى تفتيش الوادى [1] للحكومة بثمن قدره عشرة ملايين فرنك (٤٠٠ ألف جنيه)

(٥) حق الحكومة فى احتلال أى جهة فى الأراضى المعتبرة حرماً للقناة وأى موقع حربى لازم للدفاع عن البلاد على شرط أن لا يكون ذلك الاحتلال عائقاً للملاحة

(٦) شغل الحكومة ما تراه من تلك الأراضى بمبان تنشئها لمصلحتها كالبريد والثكنات والجمارك وغيرها ، على شرط أن تراعى كل ماتقضى به ضرورة الانتفاع

---

(١) هي أطيان تبلغ ٢٣٫٧٨٠ فدان سبق للشركة ان اشترتها من تركة الهامي باشا بثمن بخس قدره ١٫٧٠٠٫٠٠٠ فرنك (نحو ٦٨٫٠٠٠ جنيه) ولم تدخل فى التحكيم لأنها ملك خاص للشركة

بالقناة ، وان تدفع للشركة المبالغ التى تكون قد صرفتها على تلك الأمكنة

ثم أبرم فى ٢٢ فبراير سنة ١٨٦٦ اتفاقا كاملا مع الشركة يتضمن الشروط الواردة فى عقد الامتياز الاصلى مع التعديلات الطارئة عليه (١)

تصديق السلطان — واتفاق ٢٣ ابريل سنة ١٨٦٩

وفى ١٩ مارس سنة ١٨٦٦ صدر فرمان السلطان بالتصديق على اتفاق ٢٢ فبراير سنة ١٨٦٦ (٢)

وعقد اسماعيل والشركة اتفاقا آخر فى ٢٣ ابريل سنة ١٨٦٩ ، الغى فيه الشرط الخاص باعفاء مستوردات الشركة من الخارج من الرسوم الجمركية ، واعطاها مقابل ذلك تعويضا قدره عشرون مليون فرنك ، وتنازلت الشركة للحكومة عن بعض المبانى والمستشفيات مقابل عشرة ملايين فرنك (٣)

انتهاء العمل وافتتاح القناة (نوفمبر سنة ١٨٦٩)

وانتهى العمل فى حفر القناة واتصلت مياه البحر الابيض المتوسط بالبحر الاحمر فى نوفمبر سنة ١٨٦٩ ، فكأن العمل قد استمر عشر سنوات ، وبلغ طول القناة ١٦٤ كيلو مترا ، وانشئت على شاطئها مدينة بور سعيد ومدينة الاسماعيلية ، وافتتحت القناة للملاحة يوم ١٧ نوفمبر سنة ١٨٦٩

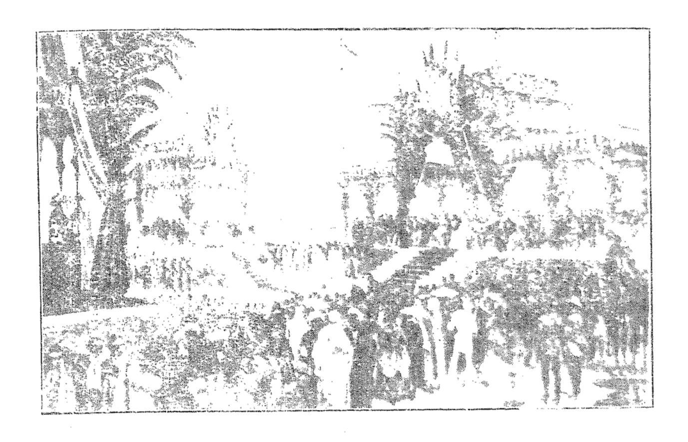
وأقام اسماعيل لمناسبة افتتاح القناة تلك الحفلات الفخمة التى لم يعرف التاريخ احتفالا يدانيها فى الاسراف والتبذير

ويكفيك دليلا على مبلغ ذلك الاسراف أن تعرف نفقات الحفلات ، فقد بلغت على أصح تقدير ١٫٤٠٠٫٠٠٠ جنيه ، ولا توجد حكومة رشيدة تكلف خزانتها هذا المبلغ الضخم يضيع فى حفلات لا طائل لها فى الوقت الذى استهدفت فيه الحكومة والبلاد لاشد ضروب الضيق المالى

---

(١) و (٢) وثائق القناة ج ٥ ص ٢٣١ و ٢٦٥

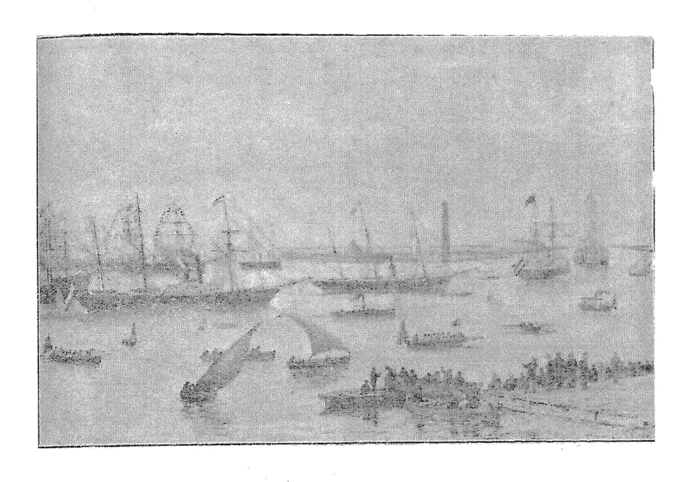
(٣) كتاب « برزخ وقناة السويس » ، للمسيو شارل رو Roux ج ١ ص ٥٠١



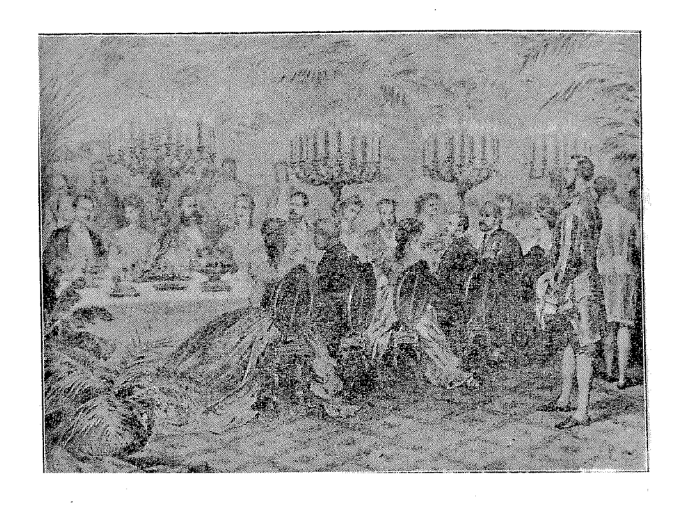
حفلة افتتاح قناة السويس ببورسعيد
يوم ١٦ نوفمبر سنة ١٨٦٩

وقد أقيمت في هذه الحفلة ثلاث منصات ، خصصت المنصة الكبرى للملوك والامراء وكبار المدعوين ، والثانية لرجال الدين الاسلامي ، والثالثة لرجال الاكليروس ، وجلس في المنصة الكبرى : الخديوى اسماعيل . أوجيني امبراطورة الفرنسيين . فرنسوا جوزيف امبراطور النمسا وملك المجر . الامير فردريك ويلهلم ولى عهد بروسيا . الامير هنري أخو ملك هولندا والاميرة قرينته . السير هنرى اليوت سفير انجلترا بالاستانة وعقيلته الليدي اليوت . الامير مورا . الامير محمد توفيق باشا ولى العهد . الامير هو هنلوه . الجنرال اجناتيف سفير الروسيا فى الاستانة ومدام اجناتيف . الامير طوسون باشا ابن محمد سعيد باشا . شريف باشا وزير الداخلية ورئيس المجلس الخصوصي العالى (مجلس الوزراء) . نوبار باشا وزير الخارجية . شاهين باشا وزير الحربية والبحرية . رياض باشا خازندار الخديوى . المسيو فرديناند دلسبس . الامير عبد القادر الجزائري . المسيو دوبست والكونت اندراسي من وزراء النمسا . البارون بروكتش سفير النمسا فى الاستانة الخ الخ ..

وقد القى الشيخ ابراهيم السقا في هذا الاحتفال كلمة تبريك باللغة العربية . ثم تلاه المونسنيور (بوير) واعظ نابليون الثالث الذى جاء خصيصا من فرنسا لحضور الاحتفال والقى خطبة تبريك باللغة الفرنسية

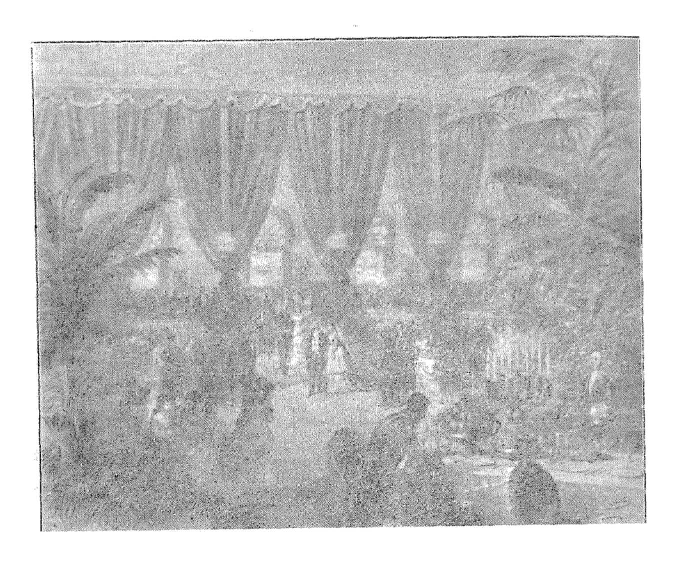


دخول البواخر المقلة للملوك والامراء قناة السويس
فى صبيحة ١٧ نوفمبر سنة ١٨٦٩
ايذاناً بافتتاح القناة للملاحة
وترى فى مقدمة البواخر السفينة(ليجل) L'Agle تقل الامبراطورة اوجينى



احدى الحفلات الفخمة التي أقيمت ابهاجا باقتتاح قناة السويس

وليمة العشاء التي أعدها الخديوى اسماعيل لضيوفه في قصره بمدينة الاسماعيلية ليلة ١٨ نوفمبر سنة ١٨٦٩ ، وقد مدت الموائد في هذه الحفلة لا لاف المدعوين ، وترى في صدر المائدة الرئيسية الامبراطورة أوجيني امبراطورة الفرنسيين ، وعن يمينها فرنسوا جوزيف امبراطور النمسا ، وعن يسارها الامير فردريك ويلهلم ولي عهد بروسيا ، والى يمين الامبراطور فرنسوا جوزيف عقيلة السير اليوت سفير انجلترا بالاستانة ، ثم الجنرال اجناتيف سفير الروسيا في الاستانة ، والى يسار ولى عهد بروسيا عقيلة سفير الروسيا ، ثم السير هنرى اليوت سفير انجلترا بالاستانة ، وأمامهم الخديوى اسماعيل ، والى يمينه أميرة هولندا ، فالامير مورا ، والى يسار الخديوي أمير هولندا ، ثم مدام دى بوراز ، ثم المسيو فردينان دلسبس



(البالاو) أو حفلة الرقص التى أقامها الخديوي اسماعيل في قصره بالاسماعيلية ليلة ١٨ نوفمبر سنة ١٨٦٩ ابتهاجاً بافتتاح قناة السويس

(اقتبسنا هذه الصورة والصور الثلاث السابقة من كتاب افتتاح قناة السويس Inauguration du Canal de Suez للمسيو نيكول Nicole ، وهذا الكتاب وضع خصيصاً لوصف حفلات القناة ، والصور التى فيه للرسام ريو Riou)

خسائر مصر المالية فى انشاء القناة

يقدر مؤلف « تاريخ مصر المالى » ما خسرته مصر فى انشاء القناة ، من ثمن اسهمها فى الشركة ، وما بذلته لها من التعويضات ، وما دفعته فى انشاء ترعة الاسماعيلية ، واسترداد أطيان الوادى ، ونفقات حفلات القناة بمبلغ ١٦٫٨٠٠٫٠٠٠ جنيه[1]

وهذا التقدير هو أقرب الاحصاءات للواقع ، وهو قريب من البيان الذى قدمته الحكومة لمجلس شورى النواب بجلسة ٢٠ رجب سنة ١٢٩٣ هـ عن ديون الحكومة وايراداتها ومصروفاتها ، فقد جاء فيه أن مجموع مادفعته فى قناة السويس ١٦٫٠٧٥٫١١٩ جنيه مصرى ، وهذا الاحصاء يقل عن احصاء المستر ادوين دى ليون Edwin de Leon قنصل الولايات المتحدة العام فى مصر على عهد اسماعيل ، فانه قدره بمبلغ ١٧٫٤٢٣٫١٧٨ جنيه انجليزى[2]

ومن هذه المقارنة يتضح ان احصاء مؤلف تاريخ مصر المالى هو الرقم الوسط الذى يصح الاعتماد عليه ، وسنجتهد هنا فى أن نضع مفردات لهذا الاحصاء طبقا للبيانات التى أوردناها

جنيه	
٣٫٤٢٦٫٠٠٠	قيمة اسهم مصر فى القناة
٣٫٣٦٠٫٠٠٠	قيمة التعويضات المحكوم بها للشركة
٠٫٤٠٠٫٠٠٠	ثمن أراضى تفتيش الوادى
١٫٢٠٠٫٠٠٠	تعويض مدفوع للشركة بمقتضى اتفاق ٢٣ ابريل سنة ١٨٦٩
١٫٢٠٠٫٠٠٠	نفقات الترعة العذبة
١٫٤٠٠٫٠٠٠	نفقات حفلات القناة
١٠٫٩٨٦٫٠٠٠	

(١) تاريخ مصر المالي ص ١٣٢ ، ولم يذكر المؤلف مفردات هذا الاحصاء

(٢) فى كتابه (مصر الخديوى) The Khedive's Egypt طبع سنة ١٨٧٧ ص ٤١٧

٥٫٨١٤٫٠٠٠ فوائد وسمسرة ونفقات التحكيم وما الى ذلك
١٦٫٨٠٠٫٠٠٠ المجموع بالجنيهات

ولا تحسبنّ أن فى رقم الفوائد وما اليها مبالغة ، فان المستر ادوين دى ليون يقدرها فى احصائه بمبلغ ٦٫٦٦٣٫٠٠٠ جنيه (ص ٤١٧ من كتابه)

واذا علمت أن نفقات انشاء القناة با كلها بلغت بحسب احصاءات الشركة ٤٥١٫٦٥٦٫٦٦٠ فرنك ، أى نحو ١٨٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه ، أدركت أن مصر احتملت وحدها معظم هذه النفقات ، واذا بحثنا عما نال مصر من بذل هذه المبالغ الجسيمة التى كانت من أسباب ارتبا كها المالى ، كان الجواب أنها لم تنل من القناة أية فائدة ، بل عادت عليها بالوبال والخسران ، إذ كانت مقدمة الاحتلال الانجليزى ، وفى ذلك يقول المرحوم محمد بك فريد « يمكننا القول بأنه لولا نقود مصر وفلاح مصر الذى مازال يجبر على الاشتغال قهراً باجرة زهيدة لما أمكن دى لسبس أن يتم هذا المشروع الذى كان سبباً فيما نحن فيه من الاحتلال الاجنبى ، وما سنراه نحن وأولادنا ان لم تساعدنا المقادير »(١)

بيع أسهم مصر فى القناة

كان لمصر من أسهم شركة القناة ١٧٦٫٦٠٢ (٢) سهما ، وهو مقدار عظيم يكاد يساوى نصف اسهم الشركة لان مجموع الاسهم ٤٠٠ الف سهم

وقد اكتتب فيها سعيد باشا واشتراها بمبلغ ٣٫٤٢٦٫٠٠٠ جنيها ، ولا ريب ان امتلاك هذا المقدار من الاسهم كان من شأنه ان يجعل لمصر شيئا من الهيمنة على الشركة وادارتها ، ويخولها حق التدخل فى شؤونها ، كما انها مورد ارباح وفيرة

---

(١) تاريخ الدولة العلية العثمانية ص ٣١٧ المرحوم محمد فريد بك

(٢) عددها في الاصل ١٧٧٫٦٤٢ ، باعت منها الحكومة من قبل ١٠٤٠ سهما فصار الباقى ١٧٦٫٦٠٢

تعود على الخزانة المصرية بانفع الثمرات ، وخاصة بعد تقدم أعمال الشركة وارتفاع اسهمها بدرجة فاقت كل تقدير

ولكن اسراف اسماعيل ابى إلا ان يحرم مصر هذه الثروة الضخمة ، ففى سنة ١٨٧٥ أخذ معين المال ينضب بين يديه ، بعد القروض الباهظة التى استدانها ، والاعباء الجسيمة التى ناءت بها الخزانة ، ففكر فى بيع اسهم مصر فى القناة وعرضها فعلا للبيع

وقد بدأ بعرضها على فرنسا ، فترددت فى الأمر ، ولكن الحكومة الانجليزية مالبثت ان علمت بالمسألة حتى بادرت بشرائها ، لانها وجدت فى هذه الصفقة فرصة سانحة لوضع يدها على القناة

فاشترت هذه الاسهم بثمن بخس اربعة ملايين من الجنيهات الانجليزية ، وبهذه الصفقة أضاع اسماعيل على مصر الميزة التى بقيت لها من مشروع القناة

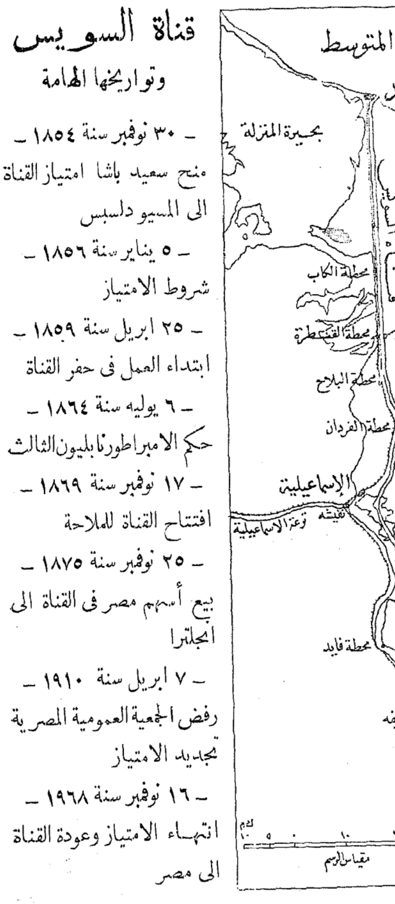
خسائر فادحة

وقد بلغت قيمة هذه الاسهم (فى سنة ١٩٢٩) ٧٢ مليون جنيه ، وربحت منها الخزانة البريطانية (الى أواخر سنة ١٩٢٩) ٣٨٫٦٠٠٫٠٠٠ جنيه ، ومجموع ذلك نيف ومائة مليون جنيه وعشرة ملايين من الجنيهات ، أى ان خسارة مصر من هذه الناحية بلغت الى تلك السنة :

١١٠٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه — ٤٫٠٠٠٫٠٠٠ = ١٠٦٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه

وثمة خسارة أخرى أصابت مصر إذ تنازلت عن ١٥ ٪ من أرباح القناة التى كانت تؤول لها بمقتضى عقد الامتياز ، تنازلت عن هذه الحصة بسبب قروض إسماعيل مقابل ٢٢ مليون فرنك أى ٨٨٠٫٠٠٠ جنيه ، وقد بلغت قيمة هذا التصيب الآن نحو ٢٠ مليون جنيه ، وهو يغل إيرادا لا يقل عن ٨٦٩٫٠٠٠ جنيه فى السنة

وهذه الأرقام تدلك على مبلغ ما أصاب مصر فى الصفقتين من الخسران المبين .



خريطة قناة السويس

قناة السويس

وتواريخها الهامة

— ٣٠ نوفمبر سنة ١٨٥٤ —

منح سعيد باشا امتياز القناة الى المسيو دلسبس

— ٥ يناير سنة ١٨٥٦ —

شروط الامتياز

— ٢٥ ابريل سنة ١٨٥٩ —

ابتداء العمل فى حفر القناة

— ٦ يوليه سنة ١٨٦٤ —

حكم الامبراطور نابليون الثالث

— ١٧ نوفمبر سنة ١٨٦٩ —

افتتاح القناة للملاحة

— ٢٥ نوفمبر سنة ١٨٧٥ —

بيع أسهم مصر فى القناة الى انجلترا

— ٧ ابريل سنة ١٩١٠ —

رفض الجمعية العمومية المصرية تجديد الامتياز

— ١٦ نوفمبر سنة ١٩٦٨ —

انتهاء الامتياز وعودة القناة الى مصر

الفصل الخامس

السودان فى عهد اسماعيل

من مآثر الخديوى اسماعيل التى تخلد ذكره فى تاريخ مصر القومى انه وجه عنايته وهمته الى إتمام فتح السودان ، والوصول الى حدود مصر الطبيعية ، ومعلوم أن هذه الحدود تشمل وادى النيل وملحقاته ، من البحر الأبيض المتوسط شمالا ، الى منابع النيل والاقيانوس الهندى جنوباً ، ومن البحر الأحمر شرقاً ، الى صحراء ليبيا (لوبيه) غرباً

ولقد أكمل اسماعيل من هـذه الناحية العمل الذى بدأ به محمد على ، فوسع نطاق السودان ، و بسط الحـكم المصرى فى أنحائه ، ومد رواق الحضارة والعمران على ربوعه

توسيع نطاق السودان

بينا فى الجزء الثالث من تاريخ الحركة القومية (ص ١٩٢) مدى فتوح مصر فى السودان على عهد محمد على ، وذكرنا أن حدود السودان المصرى وصلت شرقاً الى البحر الأحمر ، وضمت إقليم التاكا (كسلا) الواقع شرقى نهر عطبره ، ووصلت من جهة الحبشة الى القضارف والقلابات ، ودخلت سواكن ومصوع فى نطاقها ، و بلغت الحملات والتجاريد جنوباً الى جزيرة (جونكر) تجاه غندكرو الواقعة على النيل الأبيض

فلنذكر الآن الفتوح المصرية فى الأقطار السودانية على عهد أسماعيل ، وخلاصتها أن مصر ، فتحت مديرية فاشوده ، وضمت محافظتى مصوع وسواكن نهائيًا الى أملاكها ، وفتحت إقليم خط الاستواء ومملـكة (أونيورو) ، و بسطت حمايتها على مملـكة (أوغنده) ، وفتحت إقليم بحر الغزال ، ثم سلطنة دار فور ،

وتسعت أملاك مصر بين الحبشة والبحر الأحمر بفتح سَنْهيت ، و بلاد البوغوس ، وامتدت سلطتها الى سواحل البحر الأحمر حتى بوغاز باب المندب ، وضَمّتْ محافظتى زيلع وبربره الواقعتين على خليج عدن ، فيما يلى بوغاز باب المندب ، وفتحت سلطنة (هرر) الواقعة فى الجنوب الشرقى من الحبشة ، ودخلت سواحل السومال الشمالية فى أملاك مصر حتى رأس جردفون (جردفوى) على المحيط الهندى ، ثم الى رأس (حفون) ، و بذلك كله انفسحت رقعة الفتوح المصرية ، فوصلت جنوباً الى بحيرة البرت و بحيرة فكتوريا ، وشرقاً الى البحر الأحمر وخليج عدن ، وغرباً الى حدود (واداى)

وسنذكر فيما يلى هذه الفتوح تفصيلا

فتح فاشوده

سنة ١٨٦٥

فى سنة ١٨٦٥ احتلت الجنود المصرية فاشوده احتلالا رسميا ، وذلك على عهد جعفر صادق باشا حكمدار السودان ، واتخذت الحكومة بها نقطة حربية دائمة لمنع تجارة الرقيق ، فَسَدَّت الطريق أمام النخاسين الذين كانوا يجلبون الأرقاء بطريق النيل من أقاليم بحر الغزال وخط الاستواء ، وصارت فاشوده عاصمة المديرية المسماة باسمها

ولفاشوده أهمية كبرى ، نالتها من موقعها الجغرافى والحربى ، فانها تعد مفتاح النيل الأعلى ؛ لوقوعها على ملتقى الطرق المختلفة الواصلة من الخرطوم والحبشة الى جنوبى السودان ، وعلى مقربة من ملتقى روافد النيل كنهر سوباط و بحر الغزال والنيل الأبيض وبحر الزراف ، وهى نقطة الاتصال بين السودان وجهات خط الاستواء ، ومن يملكها يضمن النفوذ فى شمالى السودان وفى الجهات الجنوبية منه الى البحيرات الاستوائية ، فلا غرو أن يكون لها مكانة كبيرة من الوجهتين السياسية والاقتصادية

ولا يخفى أن فاشوده هذه هى التى قامت بشأنها تلك الأزمة السياسية المشهورة بين انكلترا وفرنسا ومصر سنة ١٨٩٨ ، حين احتلتها كتيبة من الجنود الفرنسية

بقيادة الكولونل (مرشان) Marchand ، فاحتجت الحكومة الانجليزية على هذا الاحتلال ، وارتكنت على أنها من الأراضى المصرية ، ثم انتهى النزاع بانسحاب الفرنسيين منها وبقائها من أراضى مصر ، وقد اكتسبت شهرة ذائعة بسبب هذا النزاع الذى دار حولها

وقد غيّر الانجليز اسمها ، وسموها الآن (كودوك) ، وغيروا اسم مديرية فاشوده ، فجعلوها مديرية (النيل الأعلى) ، وذلك لكى يمحوا من الأذهان اسم فاشوده وما يثيره من ذكرى الخلاف السياسى الذى قام بشأنها سنة ١٨٩٨ ، والذى كانت حجة انجلترا فيه أن هذا البلد من أملاك مصر

فليذكر المصريون على الدوام اسم (فاشوده) ، فانه من الأعلام التاريخية التى تسجل فى وجه الغاصب حق مصر الخالد فى السودان

ضم سواكن ومصوع

قلنا فى الجزء الثالث من تاريخ الحركة القومية (عصر محمد على) ص ١٩٣ إن سواكن ومصوع دخلتا فى حدود السودان المصرى على عهد محمد على ، لأنه إذ رأى ضرورتهما للسودان ، وأنهما منفذاه على البحر الأحمر ، وخاصة لاقليم التاكا (كسلا) ، استأجرهما من السلطان (وكانتا من أملاك السلطنة العثمانية) مقابل إيجار سنوى قدره ٢٥٫٠٠٠ جنيه ، وبذلك دخلتا فى ظل الحكم المصرى

على أن اسماعيل رأى إلحاقهما بصفة نهائية الى أملاك مصر ، فاستصدر فى سنة ١٨٦٥ فرماناً من السلطان باحالة قائمقاميتى سواكن ومصوع الى عهدته ، وجعلهما فرمان ٢٧ مايو سنة ١٨٦٦ الذى تكلمنا عنه (ص ٨٠) من ملحقات مصر ، وصارت كل منهما محافظة قائمة بذاتها ، فمحافظة سواكن تمتد على البحر الأحمر من رأس علبه الى رأس قصار (راجع الخريطة الملحقة بهذا الفصل) ، ومحافظة مصوع امتدت من رأس قصار حيث تنتهى محافظة سواكن الى حلة (رهيطه) عند بوغاز باب المندب

وقد عمرت مصوع وسواكن فى ظل الحكم المصرى ، ذلك أن مدينة مصوع

كانت قائمة على جزيرة بالبحر ، فوصل بينها و بين اليابسة بجسر طوله ١٨٠٠ متر وعرضه عشرة أمتار ، وتم انشاؤه سنة ١٨٧٢ ، فعمرت المدينة واتسعت ، و بُنى فيها ديوان للمحافظة ، وآخر للجمرك ، ومساكن للموظفين ، وشيدت بها قلعة منيعة ، وانشئت ترعة صغيرة لتوصيل المياه العذبة الى سواكن ، وهذه الترعة تستمد الماء من خزان أقيم لجمع مياه الامطار فى سفح جبل قريب من المدينة [1]

وظلت المحافظتان ملكا لمصر الى شبوب الثورة المهدية ، فلما اضطرت انجلترا الخديوى توفيق الى القرار باخلاء السودان سنة ١٨٨٤ ، وصار فى نظر الدول الاستعمارية نهباً مقسماً ، انتهزت إيطاليا هذه الفرصة بتواطؤها مع الانجليز ، واحتلت محافظة مصوع سنة ١٨٨٥ ، وما زالت تحتلها الى اليوم ، وتسمى هى وملحقاتها مستعمرة (الأريتريه) ، أما سواكن فقد جعلت بعد اتفاقية سنة ١٨٩٩ الباطلة محافظة تابعة لحكومة السودان

فتح إقليم خط الاستواء
والوصول الى منابع النيل

أسلفنا القول ان الحملات والتجاريد المصرية التى قادها البكباشى سليم بك قبطان فى عهد محمد على بلغت جزيرة جونكر تجاه غندكرو (راجع عصر محمد على ص ١٩٠) ، ولكن هذا الفتح لم يكن إلا وقتيا ، بمعنى انه لم يقترن بوضع حاميات عسكرية دائمة فى تلك الجهات تقر سلطة الحكومة فيها ، فاعتزم اسماعيل أن يبسط نفوذ مصر بصفة دائمة فى تلك الأصقاع ، وما يليها جنوباً حتى منابع النيل ، ولكنه لم يحذ حذو جده فى أن يعهد بهذه المهمة القومية الى ضباط الجيش المصرى ، بل عهد بها الى جماعة من الانجليز ، وهذا موطن ضعف فى سياسته أدى الى عواقب وخيمة سنذكرها فيما يلى

---

(١) الوقائع المصرية العدد ٣٥١

مهمة السير صمويل بيكر Samuel Baker

فناط بالسير صمويل بيكر الرحالة الانجليزى المشهور الزحف الى الجهات الجنوبية لغاية منابع النيل وضمها الى أملاك مصر

رحلته فى عهد سعيد باشا

بدأت رحلات السير صمويل بيكر فى السودان على عهد سعيد باشا ، فقد قصد من تلقاء نفسه الى تلك الأقطار ، لاكتشاف منابع النيل الأبيض ، وكان الرحالتان اسبيك Speke وجرانت Grant قد سبقاه الى تحقيق هذا الغرض ، وفدين من قبل الجمعية الجغرافية الانجليزية ، فجاءا بطريق زنجبار ، واكتشفا بحيرة (اكروى) ومنبع النيل منها ، وكان ذلك فى ٢٨ يوليه سنة ١٨٦٢ ، وسمياها باسم الملكة فكتوريا ، ملكة انجلترا فى ذلك الحين ، فصارت تعرف من ذلك الحين باسم بحيرة (فكتوريا)

أما السير بيكر فآثر أن يسلك فى اكتشافه طريق الخرطوم ، وصعد جنوباً فى النيل فبلغ فى ٢ فبراير سنة ١٨٦٣ غندوكرو التى وصلت اليها حملات البكباشى سليم بك قبطان فى عهد محمد على سنة ١٨٤٠ ، وأخذ يتأهب لمتابعة سيره ، وإذا بالرحالتين اسبيك وجرانت قد التقيا به ، وأبلغاه اكتشاف بحيرة فكتوريا ، وأنهيا اليه أن هناك بحيرة أخرى أخبرهما بها الأهلون ، لم يتم اكتشافها بعد ، فتابع سيره حتى اكتشفها فى ١٤ مارس سنة ١٨٦٤ ، وسماها بحيرة (البرت) باسم الأمير البرت زوج ملكة انجلترا

ثم عاد الى غندكرو ، وسار منها الى الخرطوم فبلغها فى ٣ مايو سنة ١٨٦٥ ، وعاد من هناك الى بربر فسواكن ، وأقلع الى انجلترا ، وقد صحبته امرأته النبيلة ، فى هذه الرحلة الطويلة ، وقاسمته مخاطرها ومتاعبها ، وكان لها الفضل الكبير فى نجاحه فى مهمته التى رفعته الى مستوى كبار المكتشفين ، ولا غرو فان اسمه يقرن دائماً باكتشاف بحيرة البرت إحدى منابع النيل الكبرى

مهمته فى عهد اسماعيل

١٨٧١ — ١٨٧٣

انقضت خمس سنوات تقريباً على رحلة صمويل بيكر الأولى ، ثم جاء مصر سنة ١٨٦٩ يصحب الأمير ادوارد ولى عهد انجلترا لحضور حفلات افتتاح قناة السويس ، فرغب الأمير الى الخديوى اسماعيل أن يعهد اليه بمطاردة الاتجار بالرقيق فى السودان نيابة عن الحكومة المصرية ، فلم يتردد اسماعيل فى قبول الطلب ، إذ كان يبغى التودد الى الحكومة الانجليزية

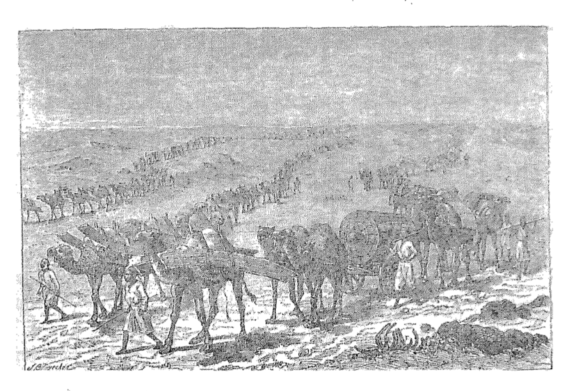
لم يكن الغرض من هذه المهمة خدمة الانسانية ، بل كانت الحكومة الانجليزية ترمى الى تمهيد السبيل لتحقيق اطماعها الاستعمارية فى وادى النيل . و بيان ذلك أن انجلترا بعد انفاذ مشروع قناة السويس أخذت تتطلع الى احتلال مصر ، وترمق أملاكها فى السودان ، وتعمل على استطلاع أحواله ، والتدخل فى شؤونه ، لكى تخلف مصر يوماً ما فيه ، وما إرسالها السير صمويل بيكر ، ثم الكولونل غردون من بعده ، إلا تمهيداً لهذه الغاية الاستعمارية

ولو كان الخديوى اسماعيل بعيد النظر ، بمقدار ما كان عليه من الذكاء ، لما ارتضى أن يبسط نفوذ مصر فى السودان على أيدى بيكر وغردون وأضرابهما ، من دعاة الاستعمار الانجليزى ، لأن هؤلاء لا يمكنهم أن يخلصوا لمصر ، بل هم يعملون على خدمة السياسة الانجليزية التى كانت ولا تزال ترمى الى اقصاء النفوذ المصرى عن السودان

قبل اسماعيل إذن ما عرضه عليه ولى عهد انجلترا ، وأصدر مرسوماً الى السير صمويل بيكر عهد اليه فيه بسط نفوذ مصر فى الأصقاع الكائنة جنوبى غندكرو ، وتنظيمها ونشر التجارة بها ، ومطاردة الاتجار بالرقيق ، وإنشاء المحطات الحربية فيها ، وجعله قائداً لحملة جردها لهذا الغرض مؤلفة من ١٧٠٠ مقاتل ، وأنعم عليه برتبة فريق فصار يعرف ببيكر باشا ، وجعله حاكما على مديرية خط الاستواء لمدة أربع

سنوات ، تبتدىء من أول ابريل سنة ١٨٦٩ براتب قدره ١٠٠٠٠ جنيه فى السنة

وقد صحبته فى هذه الحملة زوجته النبيلة كما صحبته فى رحلته الأولى ، ورافقته فى الرحلات البعيدة التى قطعها ، وشهدت الوقائع التى خاضها، فكانت له نعم العضد الصادق الأمين، وامتدح بيكر صفاتها فى كتاب (الاسماعيلية) الذى أفرده لذكر هذه الحملة ، وأشاد بما بذلته من الجهود فى معالجة المرضى والجرحى ، وما كانت تبعثه فى النفوس من روح الصبر والشجاعة والاقدام ، وما أسدته من حسن التدبير لنجاح مهمته ، فكانت مضرب الأمثال فى ما تؤديه الزوجة لزوجها من جليل الخدمات ، ومشاركتها إياه فى المهام الجسام



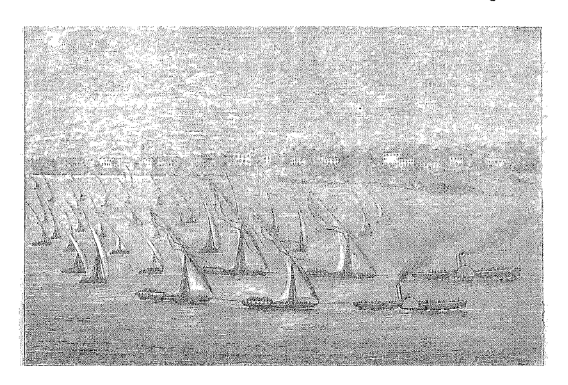
نقل أجزاء البواخر النيلية على ظهور الإبل من مصر الى السودان فى صحراء النوبة أواخر سنة ١٨٦٩ استعداداً لفتح إقليم خط الاستواء

جهزت الحكومة الخديوية معدات الحملة ، وأقلت السفن معظم مهماتها من القاهرة الى الخرطوم ، واقتضى نقلها متاعب جمة ، إذ لم يكن فى استطاعة البواخر

(١) الاسماعيلية للسير صمويل بيكر باشا ص ٢١

اجتياز الشلالات ، فنقلت أجزاؤها مفككة على ظهور الإبل فى صحراء النوبة ، وكذلك نقلت المهمات الثقيلة بهذه الوسيلة ، أما بيكر باشا فقد سار بحراً من السويس الى سواكن ومنها الى بربر على ظهور الإبل فقطع المسافة بينهما فى أربعة عشر يوماً ، واستقل من بربر باخرة نيلية بلغ بها الخرطوم

وصل بيكر باشا الى الخرطوم ، فى عهد حكمدارية جعفر مظهر باشا ، ثم قام منها يوم ٨ فبراير سنة ١٨٧٠ (١) فى حملة تقلها ثلاثون سفينة وباخرتان قاصداً جهات خط الاستواء



الاسطول النيلى الذى تحرك من الخرطوم يوم ٨ فبراير سنة ١٨٧٠ لفتح اقليم خط الاستواء وكان مؤلفا من ثلاثين سفينة شراعية وباخرتين

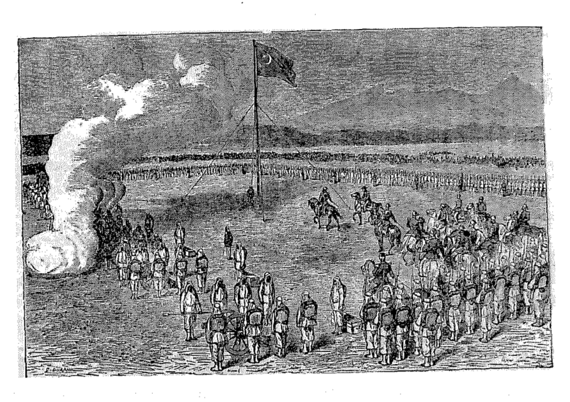
فرسا بالقرب من ملتقى نهر السوباط بالنيل (جنوبى فاشوده) ، وبنى هناك محطة اسماها (التوفيقية) باسم الأمير محمد توفيق ولى عهد الاريكة الخديوية فى ذلك العصر ، وأقام فى هذه المحطة عدة أشهر ، ثم سار جنوباً حتى بلغ غندكرو التى وصل اليها من قبل البكباشى سليم بك قبطان فى عهد محمد على

(١) و (٢) الاسماعيلية للسير صمويل بيكر باشا ص ١٠١ و١١٣

رفع العلم المصرى على غندكرو

بلغ بيكر باشا غندكرو فى ١٥ ابريل سنة ١٨٧١[١] ، فرفع عليها العلم المصرى يوم ٢٦ مايو[٢] ، فى احتفال عسكرى مهيب ، أعلن فيه رسميا ضم هذه البلاد الى أملاك مصر

كان هذا اليوم يوما مشهودا فى تاريخ السودان ، إذ اصطفت الجنود المصرية بغندكرو فى صعيد واحد ، على أكمة تشرف على النيل ، و بلغ عدد الجند الذين حضروا الاحتفال ١٫٢٠٠ مقاتل ، وقفوا صفوفا يرتدون ملابسهم البيضاء الرسمية ، وعلى رؤوسهم الكوفيات المتدلية على اكتافهم ، وساروا تتقدمهم الموسيقى الى مكان الاحتفال ، حيث نصبت سارية علوها ٢٥ مترا ، وهناك أخذوا أماكنهم فى نظام عسكرى بديع ، تصحبهم أسلحتهم ومدافعهم ، وشهد الاحتفال رؤساء العشائر الذين جاءوا من مختلف النواحى ، ووقف بيكر باشا تحت السارية ، وقرأ على الجميع الاعلان

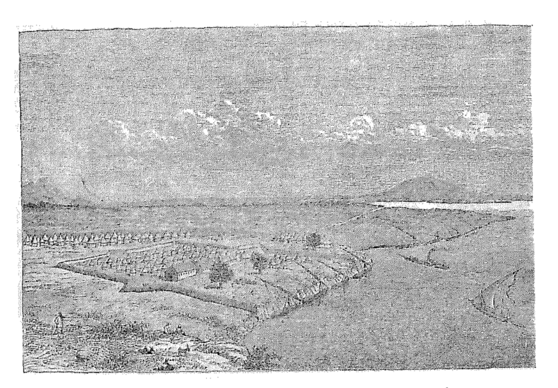


حفلة رفع العلم المصري على غندكرو (الاسماعيلية)
اعلانا بضمها الى أملاك مصر (٢٦ مايو سنة ١٨٧١)

الرسمى الذى قرر فيه باسم الخديوى ضم هذه الجهات الى أملاك مصر ، وعند ما أتم تلاوة الاعلان رفع العلم المصرى على السارية الكبيرة ، فحياه الجند جميعا بالسلام العسكرى ، وأطلقت المدافع تحية واجلالا

وقد أسمى بيكر باشا غندكرو (الاسماعيلية) باسم الخديوى اسماعيل ، وجعلها عاصمة مديرية خط الاستواء (أنظر الخريطة ص ١٢٨)

وفى ٢٢ يناير سنة ١٨٧٢[1] استأنف السير فى النيل الأبيض[2] ، فأسس نقطا عسكرية وحصونا فى عدة بلاد بأعالى النيل ، منها (الابراهيمية) على بحر الجبل (بحر الرجاف) ، وقد سماها بهذا الاسم تذكارا لابراهيم باشا ابى الخديوى اسماعيل ، وانشأ حصونا أخرى فى (فاتيكو) ثم فى (فويره) الواقعة على نيل فيكتوريا



المعسكر المصرى فى غندكرو (الاسماعيلية) سنة ١٨٧٢

(١) الاسماعيلية للسير صمويل بيكر ص ١٩٢

(٢) يطلق اسم النيل الابيض على نهر النيل من منابعه الى الخرطوم ، ويسمى نيل فيكتوريا او نهر السومرست من منبعه من بحيرة فيكتوريا الى مصبه في بحيرة البرت ، ومن مخرجه من بحيرة البرت الى التقائه ببحر الغزال ثم بنهر سوباط يسمى

فتح مملكة اونيورو (سنة ١٨٧٢ — ١٨٧٣)

وتقدمت الحملة فى زحفها ، ففتحت مملكة « اونيورو » المتاخمة لبحيرة البرت شرقاً ، واحتلت عاصمتها « ماسندى » فى ابريل سنة ١٨٧٢ ، وكان بها ملك يدعى (كابريقه) ، فأظهر خضوعه لسلطة الحكومة المصرية ، وأعلن بيكر باشا باسم الخديوى دخول هذه المملكة فى أملاك مصر (١٤ مايو سنة ١٨٧٢) ، وبنى فى ماسندى دارا للحكومة المصرية بالقرب من دار الملك كابريقه ، وشيد حصنا لاقامة الحامية المصرية

على ان كابريقه مالبث ان ظهرت خيانته ، فانتقض على الحامية المصرية ،



ريونجا ملك أونيورو يصافح بيكر باشا ، والجنود المصرية مصطفة لاستقباله بقيادة القائممقام عبد القادر بك حلمى سنة ١٨٧٢

بحر الجبل (او بحر الرجاف) ، ويتفرع عنه قبل التقائه ببحر الغزال فرع يسمى (بحر الزراف) ويسير البحران شمالا متفرعين على شكل دلتا الي ان يلتقيا النيل، ويستمر باسم النيل الابيض الي أن يلتقى بالنيل الازرق عند مدينة الخرطوم ، ويقصر بعض علماء الجغرافية اسم النيل الابيض على مجرى النهر من ملتقى السوباط بالنيل الى الخرطوم

وقامت الحرب بينهما ، وانتهى القتال بهزيمته وفراره

ثم انسحبت الحامية المصرية من ماسندى الى شاطىء نيل فيكتوريا ، لتأوى الى مكان أمين

وأعلن بيكر باشا خلع الملك كابريقه ، وولى مكانه ملكا آخر من الأسرة الحاكمة ، يدعى (ريونجا) ، كان يزاحم كابريقه على عرش أونيورو ، منذ وفاة الملك السابق ، فتقبل هذا التنصيب بالإخلاص والابتهاج ، وبقى على ولائه لخديوى مصر ، وجرد حملة على كابريقه غلبته على أمره

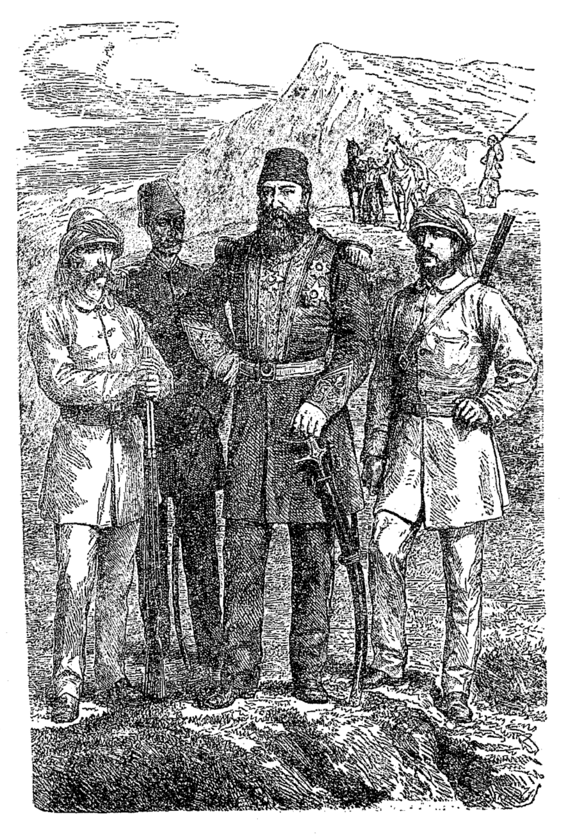
ولاء ملك أوغنده لمصر

وقد وفد على بيكر باشا رسل من الملك (امتيسى) ملك أوغنده المجاورة لمملكة أونيورو ، والواقعة شمالى بحيرة فكتوريا وغربيها ، وعرضوا إخلاص مليكهم لخديوى مصر ، فأكرم بيكر وفادتهم ، وبادل مليكهم الرسائل والهدايا ، وبقى (امتيسى) موالياً لمصر ، ونقم على كابريقه خيانته ، وهاجمه من الجنوب جزاء انتقاضه ، وبفضل ولاء امتيسى لمصر انفتحت الطريق بين أعالى النيل وزنجبار على شاطىء المحيط الهندى

وعاد بيكر الى الاسماعيلية (غندكرو) فى ابريل سنة ١٨٧٣ إذ انتهت مدة خدمته ، فغادرها ، واستخلف فى قيادة الجند وإدارة المديرية رءوف بك أحد ضباط الجيش المصرى ، ورجع الى الخرطوم ، ومنها الى مصر عن طريق سواكن والبحر الأحمر ، وقابل الخديوى بالقاهرة (اغسطس سنة ١٨٧٣) ، فأنعم عليه بالنيشان العثمانى ، وأنعم على القائمقام عبد القادر بك حلمى برتبة الميرالاى ، والملازم محمد افندى برتبة الصاغ مكافأة لهم على خدماتهم فى بسط سلطة مصر فى منطقة خط الاستواء

وقد بلغت نفقات هذه الحملة ٨٠٠,٠٠٠ جنيه ، تحملتها خزانة مصر فى وقت اشتد بها الضيق المالى ، فكان هذا المبلغ من تضحيات مصر فى سبيل نشر لواء الحضارة والتقدم فى ربوع السودان

والميرالاى عبد القادر بك هو من أركان حرب بيكر باشا ، وهو ضابط كفء شجاع ، كان له فضل كبير فى نجاح الحملة ، وقد امتدحه بيكر فى مواطن كثيرة ، وأشاد



صمويل بيكر باشا مدير خط الاستواء فى عهد اسماعيل
وحوله أركان حربه وهم القائممقام عبد القادر بك حلمى فالمهندس
هيجنبوتام Higginbotham ، ثم الملازم بيكر

بصفاته فى كتابه (الاسماعيلية) ، وأثنى على شجاعته و إخلاصه[١] وترى رسمه فى الصور التى نقلناها عن هذا الكتاب

وعبد القادر بك هو الذى صار فيما بعد عبد القادر باشا حامى حكمدار السودان سنة ١٨٨٢ [٢] وله المواقف المحمودة فى المدافعة عن سلطة مصر فى السودان ، مما سيجىء بيانه فى موضعه

وكان يعاون السير بيكر فى مهمته جعفر مظهر باشا حكمدار السودان حينذاك ، (لغاية سنة ١٨٧١) ، على أن جعفر باشا رأى بثاقب نظره ان فى إسناد هذه المهمة الى أجنبى خطراً على مصالح مصر ، وكتب بذلك تقريراً أرسله الى الخديوى اسماعيل ينبهه فيه الى ذلك الخطر ، وأشار باسناد هذه المهمة الى ضباط أركان الحرب من الجيش المصرى ، ولكن اسماعيل لم يلتفت الى هذا الرأى الحكيم ، ولم يعمل به ، واستمر يحسن الظن برواد الاستعمار

تعيين الكولونل غردون (باشا)

مديراً لخط الاستواء (١٨٧٤ — ١٨٧٦)

لم يكد يمضى قليل من الزمن على انتهاء خدمة السير صمويل بيكر ، وخلو منصب مدير خط الاستواء ، حتى خلفه انجليزى آخر ، وهو الكولونل غردون الذى صار فيما بعد (غردون باشا)

ومن الغرابة بمكان أن يتعاقب على هذا المنصب الخطير انجليزيان لهما مقام معلوم فى نظر الجمهور البريطانى والحكومة الانجليزية ، ولم يكن ذلك من قبيل المصادفات ، بل إن اصبع السياسة الانجليزية كان لها دخل فى هذا التعيين ، فكما أن الحكومة الانجليزية هى التى أوعزت الى الخديوى اسماعيل بوساطة ولى عهد انجلترا أن يسند هذا المنصب الى السير بيكر ، فانها هى أيضاً التى سعت لديه فى إسناده الى الكولونل غردون سنة ١٨٧٤

---

(١) الاسماعيلية للسير صمويل بيكر ص ٦٨ و ٤١٢

(٢) كوشرى . المركز الدولى لمصر والسودان ص ٢٦٦

فالسياسة الانجليزية كانت تنفذ خطتها من التمهيد للتدخل فى شؤون السودان ، واختارت بداءة ذى بدء منطقة خط الاستواء ، لأنها المنطقة التى جعلتها المرحلة الأولى لبرنامجها ، إذ فيها منابع النيل ، فهى مفتاح السودان من جهة الجنوب ، كما أنها مصدر الحياة لمصر

وليس من المصادفات أن يقع اختيارها على الكولونل غردون بالذات ، فانه الرجل الذى كان قلبه يفيض وطنية وإخلاصاً لبلاده ، فلا جرم أن يبذل كل مالديه من تضحية فى سبيل التوسع البريطانى ، وقد دلت خاتمته المحزنة على أنه كان أكبر ضحية قدمتها انجلترا لتضع يدها على السودان بعد شبوب الثورة المهدية

ويدلك على تدخل السياسة الانجليزية فى تعيينه أنها أقنعت الخديوى بأن يجعل له من السلطة أكثر من مما كان للسير صمويل بيكر باشا ، فقد كان هذا خاضعاً لحكمدار عموم السودان ، لكن غردون عين حاكما لإقليم خط الاستواء ، على أن يكون مستقلا فى عمله ، وقصر الخديوى سلطة حكمدار السودان على الجزء الشمالى لغاية فاشوده ، وجعل الأقاليم الاستوائية التى تمتد من جنوبى فاشوده (١) الى خط الاستواء تحت سلطة غردون ، وفى هذا من إطلاق يده فى الجزء الجنوبى من السودان وإضعاف سلطة الحاكم العام المصرى ما لا يغيب عن البال ، كل هذا بسعى السياسة الانجليزية وتدبيرها

جاء الكولونل غردون الى مصر سنة ١٨٧٤ ، وقابل الخديوى وكافه الرحلة الى السودان لتولى منصبه فيها ، وكان حكمدار السودان وقتئذ (اسماعيل باشا أيوب) ، فأرسل له الخديوى أوامره فى هذا الصدد ، وأمره بتنفيذها والحفاوة بغردون عند قدومه ، وإجابته الى كل مايطلبه ، فاضطر للعمل بهذه الأوامر على مافيها من غضاضة

وأنعم الخديوى على الكولونل غردون سنة ١٨٧٥ برتبة الفريق ، فصار يعرف بغردون باشا ، وصارت رتبته العسكرية مساوية لرتبة حكمدار السودان ، مع أن

---

(١) لم توضع حدود دقيقة بين مديريتى فاشوده وخط الاستواء ، ويقول فوزى باشا إن جهات خط الاستواء تبدأ من ملتقى نهر سوباط بالنيل ، ويرى آخرون أنها تبدأ من (شامبه) على بحر الجبل (أنظر الخريطة ص ١٢٨)

منصبه الرسمى لم يزد عن كونه (مدير خط الاستواء)

توسيع نطاق الحكم المصرى فى مديرية خط الاستواء

مضى الكولونل غردون الى السودان عن طريق البحر الأحمر وسواكن ، ولما بلغ الخرطوم أعد حملة من الجيش المصرى تصحبه الى مقر سلطته ، فتحركت الحملة جنوباً على ظهر البواخر المصرية ، وصحبه من الخرطوم إبراهيم افندى فوزى أحد ضباط الجيش المصرى الذى صار فيما بعد اللواء إبراهيم باشا فوزى ، وشهد وقائع السودان من سنة ١٨٧٤ الى شبوب الثورة المهدية ، وشهد معظم وقائع الثورة الى سقوط الخرطوم ومقتل غردون سنة ١٨٨٥ ، وحضر استرجاع السودان سنة ١٨٩٨ ، وله فى ذلك كله كتابه المشهور (السودان بين يدى غردون وكتشنر)

وصلت الحملة الى فاشوده ، بعد مسير سبعة أيام فى النيل ، فاستقبلها مديرها بالحفاوة اللائقة ، وشهد غردون وابراهيم افندى فوزى « ما وصلت اليه البلاد وقتئذ من العمران والتقدم والحضارة بعناية الحكومة (١) »

وتابعت الحملة سيرها حتى وصلت الى محطة سوباط ، وهى الكائنة على ملتقى نهر سوباط بالنيل ، ثم سارت جنوباً حتى بلغت الاسماعيلية (غندكرو) حيث يقيم رءوف بك ، الذى استخلفه السير صمويل بيكر فى الحكم وقيادة الجند بمديرية خط الاستواء ، فقابل غردون بالحفاوة والتكريم ، وأطلعه على أحوال البلاد وشؤونها ، وقد أبقاه غردون قليلا ، ثم ما لبث ان أقاله من عمله وأمره بالعودة الى مصر

وقد رأى غردون أن مناخ الاسماعيلية ليس صحيا ، فنقل مركز الحكومة الى (اللادو) ، فصارت من ذلك العهد عاصمة مديرية خط الاستواء

و بعد أن تولى شؤون الحكومة فى تلك الجهات تابع السير جنوباً حتى بلغ بحيرة (البرت) ، واستولى على عشرة مراكب من سفن الأهلين ، استخدمها لاكتشاف شواطىء البحيرة ، واستقدم من الخرطوم العدد الكافى من البواخر النيلية ومن آلات الترسانة المصرية بالخرطوم وعمالها ، وأنشأ بالدفلاى شمالى بحيرة البرت

---

(١) السودان بين يدى غردون وكتشنر ج ١ ص ٥

(ترسانة) لتنظيم الملاحة فى أعالى النيل وفى البحيرة ، واستطاع عمال الترسانة أن يفكوا أجزاء بعض البواخر ، ويُركبوها ثانية فى البحيرة ، ولما تم تركيب أول باخرة ، استقلها الكولونل غردون باشا وحاشيته وابراهيم فوزى (باشا) ، فساروا بها فى لجج البحيرة ، فكانت هذه أول مرة رأت فيها بحيرة البرت السفن البخارية ، وقد كان منظر الباخرة موضع دهشة الأهلين ، قال ابراهيم فوزى (باشا) فى هذا الصدد « كان الأهالى يقفون على شواطىء البحيرة كلما اقتربنا منها صفوفاً معجبين مندهشين من رؤية الوابور ، إذ لم يكونوا رأوا السفن البخارية من قبل ، وكان يزيد عجبهم كلما شاهدوا ضخامته ، ويحارون فى كيفية نقله مع جسامته الى البحيرة »

وهكذا كان الفتح المصرى يحمل معه أينما سار أسباب الحضارة والعمران

وقد أنشأ الكولونل غردون باشا عدة نقط عسكرية حصينة على شاطىء النيل ، وحصن النقط التى أنشأها بيكر باشا من قبل ، فمما أنشأه نقطة (سوباط) على ملتقى نهر سوباط بالنيل ، و (الناصر) على نهر سوباط ، و (شامبه) و (بور) و (اللادو) و (لابورى) و (الرجاف) و (الدفلاى) على النيل الأبيض (بحر الجبل) ، و (مكركه) جنوبى بحر الغزال و (مرولى) على نيل فيكتوريا ، و (مقانقو) الواقعة على مصب نيل فيكتوريا فى بحيرة البرت (انظر مواقع هذه البلاد على الخريطة الملحقة بهذا الفصل ص ١٢٨)

وقد لقى الجنود المصريون فى هذه الحملات البعيدة المتاعب المضنية لبعد المسافات وصعوبة المواصلات ورداءة الطقس ، وكانت الأمطار تهطل عليهم ليل نهار كأفواه القرب ، واستهدفوا للمخاطر والمفاجآت الجمة ، واحتملوا كل هذا العناء بصبر وثبات وشجاعة تسجل لهم فى أنصع صفحات تاريخنا القومى

بسط حماية مصر على مملكة أوغنده

سنة ١٨٧٤

بسطت مصر حمايتها على مملكة أوغنده سنة ١٨٧٤ ، على يد الكولونل شايى لونج بك Chaillé Long bey ، وهو ضابط أمريكى ، دخل فى خدمة الجيش

المصرى سنة ١٨٧٠ ، وعين سنة ١٨٧٤ رئيساً لأركان حرب غردون باشا حين ولايته على مديرية خط الاستواء ، وأخلص النية لمصر ، وخدمها بنزاهة وأمانة أثناء مقامه فى السودان ، ودافع بعد ذلك بقلمه ولسانه عن حقوق مصر الخالدة فى كتب قيمة ، تعد من أهم المراجع فى تاريخ السودان الحديث ، منها : كتاب (مصر ومديرياتها المفقودة) و (الأنبياء الثلاثة غردون والمهدى وعرابى) ، و (أفريقية الوسطى) ، عدا ما نشره فى المجلات الكبرى دفاعاً عن مصر واستنكاراً لمطامع الانجليز فى وادى النيل

ذكر شايي لونج بك فى كتابه (مصر ومديرياتها المفقودة) انه هو الذى أنفذه غردون الى عاصمة الملك (امتيسى) ملك أوغنده ، وأنه أدّى مهمته ، ووصل الى عاصمة أوغنده ، وعقد مع ملكها سنة ١٨٧٤ ، معاهدة بمقتضاها قبل وضع مملكته تحت حماية مصر ، وقد أرسل المعاهدة الى الخديوى اسماعيل ، وهذا أبلغ الدول أن مصر ضمت اليها جميع البلاد الواقعة حول بحيرة فيكتوريا وبحيرة البرت [1] ، وقال (ص ٢٥) إن هذه المعاهدة أودعت محفوظات وزارة الخارجية المصرية ، ولكنها فُقدت بعد ذلك ، وذكر أن أحد ضباط الجيش البريطانى أحرقها (بعد الاحتلال) ضمن وثائق أخرى نفيسة

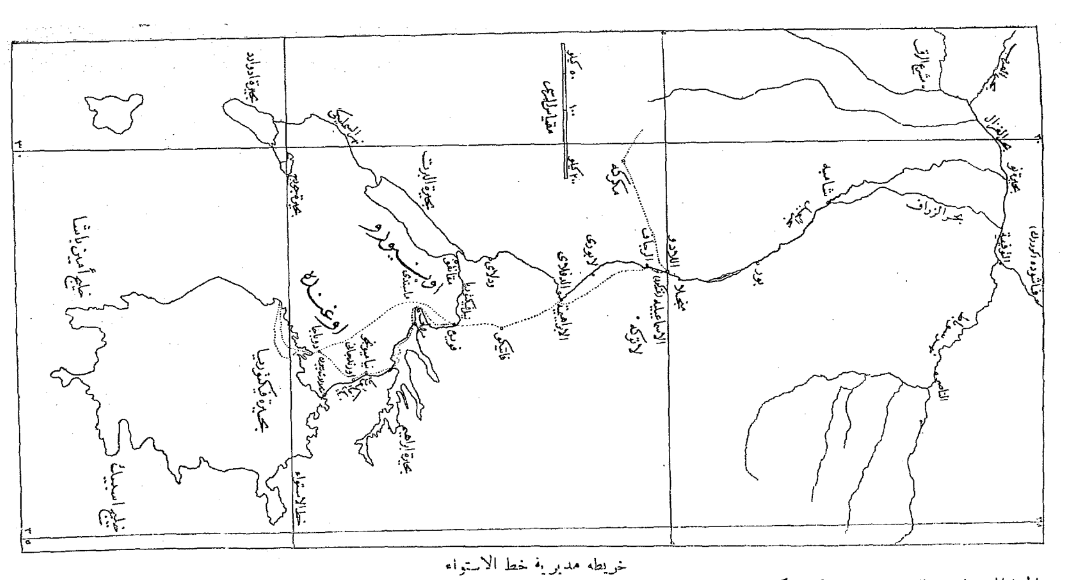
وقال فى موضع (آخر ص ٢٦) إنه لما وصلت البعثة الانجليزية الى أوغنده فى ابريل سنة ١٨٧٥ وجدت بحاشية الملك امتيسى ، ارنست لينان دى بلفون (ابن لينان باشا) الذى أرسله غردون بعد معاهدة الحماية مندوباً عن الحكومة المصرية فى بلاط الملك [2] ، وذكر أن نفوذ مصر قد امتد الى كل الأصقاع التى تحيط ببحيرة فيكتوريا ، وخاصة مملكة أوغنده ، وان الملك امتيسى كان يفتخر بتبعيته لسلطان مصر [3]

---

(١) مصر ومديرياتها المفقودة ص ١٢ للكولونل شايي لونج بك
L,Egypte et ses Provinces Perdues par Chaillé Long bey

(٢) وقد قتل في عودته من أوغنده الى الرجاف فى اغسطس سنة ١٨٧٥

(٣) مصر ومديرياتها المفقودة للكولونل شايي لونج ص ٢٠٤



خريطه مديرية خط الاستواء

والخط المنقوط يمثل الطريق الذى سلكه الكولونل شايي لونج بك في مسيره الى اوغنده حيث عقد مع ملكها سنة ١٨٧٤ المعاهدة التى قبل بمقتضاها حماية مصر على مملكته

مذكرة شريف باشا الى الدول

عن امتلاك مصر منطقة البحيرات

وأورد فى كتابه (ص٢٦) المذكرة التى أرسلها شريف باشا (الوزير المشهور) وزير خارجية مصر فى ذلك الحين الى الدول خاصة بضم منطقة البحيرات الى مصر ، وخلاصتها أن غردون استولى على منطقة (مرولى) الواقعة على نهر سومرست [١] ، وان الجنود المصرية أسسوا محطة فى (ماسندى) عاصمة مملكة (أونيورو) ، ومحطة أخرى فى (اورند جانى) على نهر السومرست ، بالقرب من بحيرة فيكتوريا ، وأخرى على بحيرة فيكتوريا ذاتها بالقرب من شلالات (ريبون [٢]) ، وأخرى فى كل من (ماقنقو) و (الدفلاى) ، وعلى ذلك بسطت مصر سلطتها على جميع البلاد الواقعة حول بحيرة فيكتوريا وبحيرة البرت ، وسننشر نص هذه المذكرة فى قسم الوثائق التاريخية

ونشرت (الوقائع المصرية) البيان الآتى عن أوغنده « ورد تلغراف الى المعية السنية من سعادة غردون باشا فى ٢ أغسطس سنة ١٨٧٦ يتضمن أن الملك ميتسا طلب منى عساكر لاجل اقامتها فى بندر حكومته ، فأرسلت اليه مائة وخمسين عسكريا ، ورتبت ثلاثين عسكريا فى بلدة (اورندجانى) ، ومثلها فى بلدة (بكبتيشه) ، فكانت تلك الجهات والحالة هذه فى حوزة الحكومة المصرية ، وقد وصلنا الى (مقانقو) فى ٢٧ جمادى الثانية (سنة ١٢٩٢) بعد سفر سبعة أيام من (روفلى) ، والبحر هناك [٣] جيد صالح لسير السفن فيه بسهولة ، وشطوطه معمورة بكثرة الناس فيه ، وأراضيه صالحة للزراعة »

---

(١) هو الاسم الذى أطلقه الرحالة اسبيك على النيل بين منبعه من بحيرة فيكتوريا الى مصبه فى بحيرة البرت ، ويسمى أيضاً نيل فيكتوريا

(٢) حيث يخرج النيل من بحيرة فيكتوريا

(٣) يريد النيل

« و بعد ثلاثة أيام نتوجه الى (مرولى) و (اورندجانى) و (امتيسا) عاصمة أوغنده ، و يمكننا الوصول الى سائر تلك الجهات بغاية الراحة التامة والسهولة » (١)

هذا ماذكرته « الوقائع المصرية » ، وهى الجريدة الرسمية للحكومة ، وفيها تأييد للحقائق التى أوردها شايلى لونج بك ، ومن كل ذلك يتبين انضمام أوغنده ومنطقة البحيرات الى مصر فى عهد الخديوى اسماعيل

— موقف غردون —

ذكر غردون فى رسائله الى أخته ان شايلى لونج بك أرسل الى الخديوى اسماعيل تقريراً امتدح فيه ولاء امتيسى ، فنال رضاء الخديوى وأرسل الى لونج بك عربة جميلة هدية للملك (٢) ،

وظاهرٌ من لهجة غردون فى رسائله الى أخته انه لم يكن مرتاحاً الى إحكام مصر روابطها بأوغنده وملكها ، فقد ذكر (٣) ان الملك امتيسى أقسم يمين الولاء لمصر فى مارس سنة ١٨٧٦، وانه (أى غردون) كان يبغى بقاء ملك أوغنده مستقلا ، ولكنه هو الذى دعا الحامية المصرية التى كان غردون معتزماً جعلها فى (أورندجانى) الى الاستقرار فى عاصمة أوغنده (دوباجا) (٤) وقد استقرت بها فعلا فى أغسطس سنة ١٨٧٦ (٥)

وغنىٌ عن البيان أن غردون لم يكن يبغى من استقلال أوغنده دفاعاً عن مصلحتها ، بل كل ما يبغيه أن تكون بعيدة عن التبعية المصرية ، حتى تصير فيما

---

(١) الوقائع المصرية عدد ٦٧٤ الصادر فى ٢٢ شعبان سنة ١٢٩٢ هـ (سبتمبر سنة ١٨٧٦ م)

(٢) رسائل الكولونل غردون الي أخته ص ١٤٢

(٣) رسائل الكولونل غردون الى أخته ص ١٦٨

(٤) وتسمى أيضاً امتيسى على اسم الملك — (٥) رسائل غردون الى أخته ص ١٧٦

بعد لقمة سائغة لانجلترا ، وقد بسطت فعلا حمايتها عليها بعد فصل السودان ، وهكذا يتبين لك أن غردون لم يكن خالص النية لمصر مثل شايي لونج بك ، بل كان يخدم السياسة الانجليزية أثناء تقلده منصب الحكم فى مديرية خط الاستواء ، وكذلك عند ولايته حاكما عاما للسودان سنة ١٨٧٧ كما سيجيء بيانه

اكتشاف بحيرة (ابراهيم)

سنة ١٨٧٤

اكتشف الكولونل شايي بك لونج سنة ١٨٧٤ ، بحيرة (ابراهيم) إحدى البحيرات التى ينبع منها النيل ، وهى الوقعة شمالى بحيرة فيكتوريا ، وقد سماها بحيرة (ابراهيم) باسم ابراهيم باشا أبى الخديوى اسماعيل ، وكانت تسمى من قبل بحيرة (كيوجا) ، وقد غلب عليها الاسم الأصلى فى مصورات الجغرافية (الأطالس) الحديثة وكتبها ، لأن معظم الجغرافيين من الافرنج يأبون أن يطلقوا اسماً عربيا مصريا على منابع النيل ، أما البحيرات الأخرى فيسبغون عليها أسماء أوروبية ويسمونها بحيرة (فيكتوريا) وبحيرة (البرت) ، وبحيرة (جورج) وبحيرة (ادوارد) ، أما بحيرة (ابراهيم) فلا يروق لهم تسميتها بمثل هذا الاسم المصرى فيبقون اسمها القديم (كيوجا) ، وهذا لعمرى ليس من الحق ولا من الانصاف فى شيء

ومن واجب مهندسى مصر وأساتذة الجغرافيا والتاريخ أن يعبروا عن هذه البحيرة باسم (بحيرة ابراهيم) ، ويتخذوه علماً لها فى مباحثهم ودروسهم ومؤلفاتهم وأطالسهم ، حتى يرسخ هذا الاسم فى أذهان النشء والجمهور ، وفى وثائق الحكومة وخرائطها ، ويذيع بين النـاس فى مصر والشرق ، ثم فى أوروبا ، كما ذاعت أسماء بحيرة (فيكتوريا) وما اليها ، وإن اسم بحيرة (ابراهيم) أحق بالاذاعة من الأعلام الانجليزية التى أطلقت على البحيرات الاستوائية الأخرى ، فان اكتشاف هـذه البحيرة تم على يد ضابط من ضباط الجيش المصرى ، باسم مصر ولحساب مصر، فى عهد اسماعيل بن ابراهيم ، وبجهوده ورعايته ، ومكتشفها قد اختار

لها هذا الاسم تحقيقاً لرغبة الخديوى اسماعيل ذاته ، فواجب الوفاء والمنطق يقضى باحترام هذه التسمية واتباعها (أنظر الخريطة ص ١٢٨)

وقد ذكرها العلامة جورج شونفرت Schweinfurth فى خريطته التى وضعها لبيان خط سير ارنست لينان دى بلفون من الرجاف الى بحيرة فيكتوريا سنة ١٨٧٥ ، وسماها باسمها الصحيح (بحيرة ابراهيم) ، وكتب بجانبها العبارة الآتية (اكتشفها لونج بك فى اغسطس سنة ١٨٧٤) ، وتجد هذه الخريطة ملحقة بالعدد الأول من السنة الأولى لمجلة الجمعية الجغرافية الخديوية (نوفمبر سنة ١٨٧٥ — فبراير سنة ١٨٧٦) ، وسماها غردون فى خريطته (بحيرة كيوجا أو بحيرة ابراهيم) ، وهى تشمل بحيرة كيوجا وبحيرة كوانيا المتصلة بها

وللكولونل شايى لونج بك رسالة مسهبة فى مجلة الجمعية الجغرافية (مجموعة ٣ عدد ٧ – سبتمبر سنة ١٨٩١ ص ٥٤٠) اعترض فيها على اغفال اسم بحيرة ابراهيم ، وذكر وثائق هامة عن اكتشافاته وخدماته لمصر فى مديرية خط الاستواء

وفى الحق ان الكولونل شايى لونج بك يجب أن يقترن اسمه باسماء مكتشفى منابع النيل ، فالرحالتان (اسبيك) و (جرانت) اكتشفا بحيرة فيكتوريا ومنبع النيل منها ، والسير (صمويل بيكر) اكتشف بحيرة البرت ، و (شايى لونج بك) اكتشف بحيرة ابراهيم ، ومجرى النيل من أورندجانى الى مرولى ثم الى فويره

وقد ذكر فى كتابه (مصر ومديرياتها المفقودة) ص ١٤٨ انه بعد أن اكتشف بحيرة (ابراهيم) قصد الى (ماسندى) عاصمة (اونيورو) ، فألفى ملكها القديم (كابريقه) يناصب الحكومة العداء ، وان كابريقه هذا هاجمه فى قوة من ٦٠٠ مقاتل ، فانسحب لونج بك الى (فويره) الواقعة على نيل فيكتوريا

وذكر غردون باشا [1] ان كابريقه اخلى (ماسندى) فى يناير سنة ٨٧٦ وان المواصلات أعيدت الى هذه العاصمة

---

(١) فى رسائله الى اخته ص ١٦٥ – ١٧٦

استعفاء غردون من منصبه سنة ١٨٧٦

بقي الكولونل غردون مديراً لعموم خط الاستواء الى أن استعفى من منصبه سنة ١٨٧٦ ، وعاد الى القاهرة ، ومنها الى انجلترا ، ولعله رحل اليها ليطلع حكومته على احوال المنطقة التي تولى حكمها ، وليتلقى تعليماتها الجديدة فيما تأمره به ، لانه لم يلبث فى انجلترا ثلاث سنوات الا قليلا حتى تدخلت الحكومة الانجليزية لدى الخديوى لتعيينه فى منصب اكبر من منصبه القديم ، إذ جعله حكمدار عموم السودان ، فصارت اقاليم السودان تحت مطلق سلطته كما سيجيء بيانه

مصير مديرية خط الاستواء

عند ماغادر غردون باشا منصبه الاول سنة ١٨٧٦ استخلف فى خط الاستواء وكيله الكولونل (بروت)Prout ، وهو ضابط امريكى التحق بخدمة الجيش المصرى وخدم تحت لواء غردون ، وفى عهد حكمدارية غردون باشا للسودان جعل ابراهيم بك فوزى مديرا لخط الاستواء ، ثم فصله وعين مكانه الدكتور ادوار شنتزر Eduard Schnitzer ، وهو طبيب المانى صحب غردون فى السودان واعتنق الاسلام ، وعرف بأمين بك ، وأخلص لمصر ، فبقى يتولى الحكم فى خط الاستواء الى شبوب الثورة المهدية ، ولم تستطع قوات المهدى ان تستولى على هذه المديرية وظل أمين بك يحكمها باسم الحكومة الخديوية ، ونقل عاصمتها من اللادو الى فرادلاى جنوبا ليكون بعيدا عن غزوات المهديين ، و بقى فى مركزه حتى اضطرت الحكومة المصرية بضغط الانجليز الى اخلاء السودان ، وأنعم عليه الخديوى توفيق برتبة الباشوية جزاء اخلاصه لمصر ، فصار يعرف بامين باشا ، وأرسل اليه نوبار باشا رئيس مجلس الوزراء وقتئذ يبلغه قرار الجلاء عن السودان وتركه وشأنه ، فآثر البقاء فى منصبه ، مخلصا لمصر وحكومتها ، معتمدا على ولاء الضباط والجنود المصريين والسودانيين الذين تحت امرته ، ولكن الانجليز ابوا عليهم

البقاء، فارسلوا الرحلة استانلى بحجة «انقاذ امين باشا»، والواقع لاجلائه عن مديرية خط الاستواء والقضاء على سلطة مصر فيها ، فاضطره استانلى سنة ١٨٨٩ الى الجلاء عنها، و بانسحاب امين باشا من مديرية خط الاستواء تقلص ظل السلطة المصرية عن هذا الاقليم ، وانتهزتها انجلترا فرصة فاحتلت اوغنده وجعلتها تحت حمايتها (سنة ١٨٩٣) والحقت بها الجزء الجنوبى من مديرية خط الاستواء

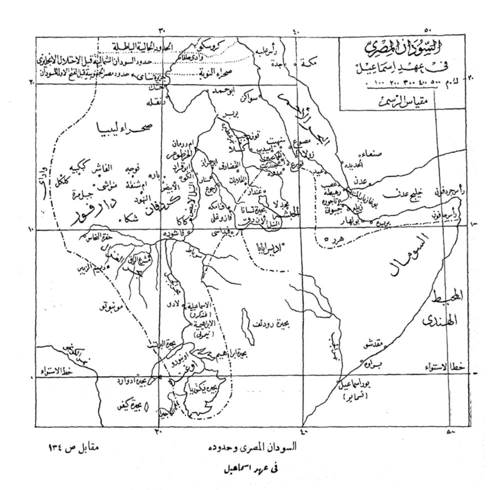
ولما تم استرجاع السودان سنة ١٨٩٨ اكرهت مصر على توقيع اتفاقية سنة ١٨٩٩ الباطلة التى جعلت ادارة السودان مشتركة بين مصر وانجلترا ، وعدلت حدوده طبقاً لاهواء الانجليز ، فبعد أن كانت حدود السودان المصرى تنتهى عند بحيرة فيكتوريا صارت بعد اتفاقية سنة ١٨٩٩ تنتهى عند (منجلا) شمالى غندكرو ، والآن تنتهى عند (نيمولى) — الابراهيمية — ، و بذلك اغتصبت انجلترا معظم مديرية خط الاستواء القديمة ، وخسرت مصر تلك المديرية الشاسعة بعد أن بذلت فى سبيل فتحها وتعميرها مابذلت من الجهود والاموال والضحايا والرجال

منع الاتجار بالرقيق

كان الاتجار بالرقيق ممنوعا من عهد محمد على ، لكن هذا المنع لم يكن الا اسميا ، و بقيت تجارة الرقيق فى السودان قائمة الى عهد سعيد باشا ، بعين الحكومة و بصرها ، و بتأييد موظفيها ، وكان يتولاها تجار أقوياء لهم بيوت تجارية كبيرة تتجر فى حاصلات السودان وفى الرقيق ، وتربح من كل ذلك الارباح الطائلة ، وكان تجار الرقيق لما لهم من النفوذ والسطوة والمال يقيمون فى مختلف الجهات معاقل حصينة اتخذوها مراكز للتجارة واصطياد الرقيق

فلما تبوأ اسماعيل عرش مصر اعتزم أن ينضم الى حركة العاملين على تحرير الارقاء فى انحاء العالم ، وأن يكسب ثناء الانسانية فى مقاومة تجارة الرقيق ، و بذل جهوداً كبيرة فى هذا السبيل

ففى سنة ١٨٦٣ أرسل الى موسى باشا حمدى حكمدار السودان وقتئذ يأمره



مقابل ص ١٣٤

السودان المصري وحدوده
في عهد اسماعيل

بتعقب تجار الرقيق وحربهم ، فصدع الحكمدار بالامر ، وضبط سبعين سفينة مشحونة بالأرقاء بين (كاكا) و (فاشوده) وأطلق سراحهم ، وأعادهم الى بلادهم ، واعتقل التجار الذين جلبوهم ، ولم يفرج عنهم الا بعد أن أعطوه العهود والمواثيق أن لايعودوا الى النخاسة

وكان لاحتلال فاشوده سنة ١٨٦٥ أثر كبير فى سد طريق النيل فى وجه تجار الرقيق الذين كانوا يقتنصون الارقاء فى جهات بحر الغزال وخط الاستواء ويشحنونهم فى السفن ، واصدر اسماعيل امره بتحرير كل عبد أو جارية يثبت على سيدهما انه أساء معاملتهما

وفى عهد حكمدارية جعفر مظهر باشا واسماعيل ايوب باشا بذلت الحكومة جهودا موفقة فى محاربة تجارة الرقيق ، وقد عهد الخديوى أيضا الى السير صمويل بيكر ثم الى غردون باشا من بعده العمل على تحقيق هذه الغاية كما تقدم بيان ذلك تفصيلا .

ففى الحق أن الخديوى اسماعيل قام بعمل مجيد ، وأسدى الى الانسانية خدمة جليلة فى منع هذه التجارة الممقوتة

لكن من الحق أن نقول ايضا ان عمله كان فى حاجة الى شىء من الحكمة والروية ، فان تجارة الرقيق كان يقوم بها اناس أقوياء فى السودان ، لهم من أعيان البلاد أنصار وتتألف منهم طبقة كبيرة من الأهلين

كانت هذه التجارة مصدر ثروتهم ، فضلا عن أن الأيدى العاملة فى الزراعة ورعى الماشية وغير ذلك كان معظمها من الرقيق ، وقد ألف اعيان السودان والطبقة المتوسطة من أهله استخدام الارقاء كاتباع لهم وموال ، ونظموا حياتهم على هذا الاساس ، فمفاجأة السودان بتحرير الارقاء دفعة واحدة كانت مجازفة لا تحمد عواقبها ، هذا. الى أن الخديوى قد جعل على رآسة مقاومة الاتجار بالرقيق جماعة من الاجانب ، فاستثار وجودهم عواطف الاهلين الدينية ، وكراهيتهم للحكومة ، فاجتمعت هذه العوامل وكانت من أسباب قيام الثورة المهدية

فالامر اذن كان فى حاجة الى التأنى والحكمة ، اعتبر ذلك فى أن الحكومة الانجليزية حينما قررت ابطال الرقيق فى أملاكها خصصت عدة ملايين من الجنيهات لتعويض موالى الارقاء المحررين .

فكان من الواجب على اسماعيل باشا أن يأخذ فى مشروعه بالهوادة و بعد النظر ، وحسن السياسة ، لكنه لم يفعل ، واعتزم مقاومة تجارة الرقيق ومنع الاسترقاق فحسب ، فاستهدفت الحكومة لعداء طبقة كبيرة من أعيان السودان وتجاره ، مما ظهر أثره فى نجاح دعوة المهدى أوائل عهد توفيق باشا إذ انضم الى الثورة تجار الرقيق فى السودان

وفى هذا الصدد يقول المسيو (داريل) Daryl فى مقدمة « رسائل غردون الى أخته » ما يأتى : « عهد الخديوى اسماعيل الى الكولونل غردون مطاردة تجار الرقيق فى السودان ، ولكن المجهودات العنيفة التى بذلها ذلك الضابط الانجليزى لم يكن لها من نتيجة عملية سوى إثارة الطبقة التى كانت مصر تعتمد عليها فى السودان »

وقد أبرم اسماعيل فى ٤ اغسطس سنة ١٨٧٧ معاهدة مع الحكومة الانجليزية(١) للتعاون على منع الاتجار بالرقيق ، احتوت نصوصا تمكن الانجليز من الافتيات على سيادة مصر ومصالحها ، اذ اباحت لهم الرقابة على السفن الحاملة للراية المصرية وتفتيشها وضبطها بحجة تعاطيها تجارة الرقيق ، فكانت معاهدة لا خير فيها ، ولا فائدة منها لمصر

---

(١) مجموعة المعاهدات لدى مارتانس . سلسلة جديدة ، ج ٢ ص ٤٩٣
De Martens. Nouv. Recueil gén. des Traités II p. 493
وتجد نصها العربى فى قاموس جلاد ج ٢ ص ٢٣٨ طبعة سنة ١٩٠٠

ظهور الزبير باشا رحمت[1]

كان الزبير أكبر تجار السودان ، وخاصة فى تجارة الرقيق ، وله نفوذ واسع وسلطان كبير فى اقليم بحر الغزال

وقد شبت حرب بينه و بين أحد ملوك بحر الغزال انتهت بهزيمة هذا الملك ، فامتلك الزبير بلاده ، واتخذ عاصمته مقرا له ، وسماها (ديم الزبير) ، فصار فيها ملكا ، ودانت له جهات بحر الغزال ، وتقاطر الناس اليه للانتظام فى خدمته ، فجمع لنفسه جيشاً قويا لتأييد سلطته ، واقتناص الرقيق ، وفتح طريق التجارة من بحر الغزال الى كردفان

وفى سنة ١٨٦٩ جاء بحر الغزال رجل يدعى (البلالى) قادماً من الخرطوم ومعه نفر من الجند لاحتلال هذا الاقليم باسم الحكومة الخديوية ، ومعه فرمان بتسميته مديراً لبحر الغزال ، ولكن الزبير جمع جيشه، وكمن أتباعه للبلالى فقتلوه ،ثم خشى الزبير عاقبة عدائه الحكومة المصرية ، فجنح الى مسالمتها ، وأظهر ولاءه لها ، واعترف بسلطة الخديوى

واتسع سلطانه ففتح بلاد (شكا) الواقعة بين بحر الغزال ودارفور ، ووضع بين يدى الحكومة الخديوية الأقاليم التى دانت له لتنصب لها الحكام ، وجعل تقدمته لها دليلا على ولائه ، وقد أخلص فعلا لمصر ، و بقى على ولائه طول حياته

فشكره الخديوى على إخلاصه ، وأنعم عليه برتبة بك ، وعهد اليه حكم البلاد التى فتحها باسم الحكومة الخديوية ، وهى بحر الغزال وشكا فصار مديراً لبحر الغزال ، وجعلت مدينة شكا عاصمة للمديرية

---

(١) استخلصنا ماذكرناه عن الزبير من ترجمة حياته بقلمه المنشورة فى كتاب السودان لنعوم بك شقير ج ٢ ص ٦٧، وما ذكره ابراهيم باشا فوزى فى كتابه ج ١ ص ١٣٦

فتح سلطنة دارفور

سنة ١٨٧٤

رغب الزبير باشا الى حكمدار السودان (اسماعيل باشا أيوب) فتح دار فور ، وكانت الى ذلك العصر مملكة مستقلة ، ولئن أدخلتها الفرمانات الصادرة لمحمد على ضمن أملاك مصر (انظر عصر محمد على ص ٣٤٧) إلا أنها بقيت مستقلة فعلاً عن الدولة المصرية الى ذلك الحين ، وكان عليها ملك يسمى السلطان ابراهيم يناوئ الزبير و يعمل على إجلائه عن « شكا » ، فأيدت الحكومة مشروع الزبير ، وعهد الخديوى الى اسماعيل باشا أيوب فتح دارفور باشتراكه مع الزبير بك

معركة منواشي (٢٥ اكتوبر سنة ١٨٧٤)

فجهز جيشا فى كردفان ، وعهد الى الزبير بك حشد جيشه فى بحر الغزال كى يحاط بدارفور من الشرق ومن الجنوب

فسار الزبير من الجنوب ، وتلاقى مع قوات سلطان دارفور ، وكانت تتألف من نحو عشرين الف مقاتل ، فهزمها الزبير غير مرة ، واشتبك الجمعان فى (منواشى) حيث نشبت بينهما فى ٢٥ اكتوبر سنة ١٨٧٤ معركة فاصلة ، انتهت بانتصار الزبير انتصاراً مبيناً ، وقتل السلطان ابراهيم وتشتت جيشه ، فدانت البلاد للحكم المصرى ، ودخل الزبير مدينة الفاشر عاصمة دارفور

ثم جاء اسماعيل باشا أيوب على رأس الفرقة الزاحفة من الشرق ، فدخل المدينة فى ١١ نوفمبر سنة ١٨٧٤ (٢٧ رمضان سنة ١٢٩١) ، وانتهت الحرب بضم سلطنة دارفور الى املاك مصر

وأرسل الحكمدار يبشر الخديوى باخبار الفتح ، فابتهج بهذا النصر المبين ، وانعم على اسماعيل باشا ايوب حكمدار السودان برتبة الفريق ، وعلى الزبير برتبة اللواء فصار يعرف بالزبير باشا ، وعهد الى الحكمدار تبليغ أفراد الجيش الذى تولى

هذا الفتح ثناءه وتحياته ، لما أبلوه فى فتح دارفور ، فلما تلقى الحكمدار هذه الرسالة جمع الجيش فى الفاشر ، وتلا عليهم تبليغ الخديوى فى احتفال عسكرى مهيب ، وأطلقت المدافع ابتهاجا واجلالا (١)

و بفتح دارفور زاد عدد سكان الدولة المصرية نحو ثلاثة ملايين نسمة

وأقام اسماعيل باشا أيوب حصناً منيعاً فى الفاشر ، و بنى دارا للحكومة ، ومنزلا للحاكم ، وثكنة للجنود ، ووطد دعائم الأمن والطمأنينة ، وأقام فى المدينة سوقا عامرة للتجارة

على أن الزبير باشا شكا من فداحة الضرائب التى فرضها اسماعيل باشا ايوب على الأهلين ، فاستاء الحكمدار من هذه الشكوى ، ورفع الامر الى الخديوى ، فأرسل يأمر الزبير باشا بعدم التعرض للحكمدار فى ادارة البلاد ، فطلب الزبير من الخديوى أن يجىء الى مصر ليعرض عليه حقيقة الحال ، و يفضى اليه بآرائه فى تنظيم الاقليم ، فأجابه الخديوى الى طلبه وأذن له بالحضور ، فسار الى مصر ، واستخلف ابنه سليمان فى قيادة جنده

ولما جاء مصر أكرم الخديوى وفادته ، ولكنه لم يأذن له بالعودة الى السودان ، فأدرك أن المراد من ابقائه أن يكون رهينة لولائه للحكومة ، فأذعن للبقاء والاقامة فى مصر مشمولا بعطف الحكومة واكرامها

ضم زيلع وبربره (سنة ١٨٧٥)

(زيلع) و (بربره) من بلاد السومال الشمالية الواقعة على خليج عدن ، ذكرها ياقوت فى معجم البلدان ج ٢ ص ١٠٦ و ج ٤ ص ٤٢٥

وأهم مدنها ثغور (زيلع) و (بربره) و (بولهار) ، وتعد الأولى ميناء سلطنة هرر على خليج عدن ، وملتقى متاجر هذه البلاد من البن وسن الفيل والجلود وريش النعام والصمغ العربى والمر وغير ذلك ، ولهذه الثغور عامة أهمية بحرية ، لأن من

---

(١) عن الوقائع المصرية ، العدد ٥٨٥ الصادر فى ٣ ديسمبر سنة ١٨٧٤

يملكها يتسلط على الملاحة فى خليج عدن الى مدخل البحر الأحمر

ومن بلاد زيلع بلدة (جبرت) التى نشأ منهـا أجداد (الجبرتى) المؤرخ المصرى المشهور ، فقد ارتحل جده السابع (الشيخ عبد الرحمن) الى مصر فى أوائل القرن العاشر للهجرة ، واستوطنت أسرة الجبرتى مصر من ذلك العهد

كانت زيلع و بربره من أملاك تركيا ، تابعتين للواء (الحديدة) باليمن ، ففكر الخديوى اسماعيل فى ضمهما الى أملاك مصر حينما اعتزم فتح سلطنة (هرر) لأن زيلع هى ميناء هرر كما قدمنا ، فسعى الى ذلك لدى الحكومة العثمانية ، ونجح فى مسعاه ، إذ صدر له فرمان من السلطان فى أول يوليه سنة ١٨٧٥ (٢٧ جمادى الأولى سنة ١٢٩٢) بالتنازل له عن (زيلع) وملحقاتها ، وذلك مقابل زيادة فى الجزية السنوية قدرها ١٥،٠٠٠ جنيه عثمانى [1] (١٣،٣٦٥ جنيه مصرى) ، و يدخل فى ملحقات زيلع ثغور (بربره) و (بولهار) و (تاجوره)

وقد جعل الخديوى من هذه البلاد محافظتين عرفتا بمحافظة (زيلع) ، ومحافظة (بربره)، وأرسل الحاميات المصرية الى الثغرين المذكورين ، فجاءت زيلع كتيبة من الجند بقيادة محمد رءوف باشا الذى مر ذكره فى الكلام عن مديرية خط الاستواء ، وجعل رءوف باشا محافظاً لزيلع ، والأميرال رضوان باشا محافظاً لبربره ، وكان هذا الأميرال يقود السفينة الحربية المصرية التى أقلت الحامية الى الميناء المذكور

وجعل الأمير أبو بكر ابراهيم أمير زيلع السابق وكيلا لمحافظتها وملحقاتها ، وأنعم عليه بالرتبة الثالثة [2] ثم رقى الى منصب المحافظ [3]

وعين الحكام العسكريون والملكيون فى المحافظتين ، وعنوا بعمرانهما ، فأقاموا بهما عدة مبان للحكومة وللجمارك والثكنات العسكرية ، وأنشأوا مسجداً فى (بربره) ، وصهريجاً لخزن المياه العذبة بها، ومدوا أنابيب الماء فيها ، وأنشئت مكاتب

---

(١) الوقائع المصرية العدد ٦١٥ (١٥ يوليه سنة ١٨٧٥)

(٢) و (٣) الوقائع المصرية العدد ٦٢٨ — ١٧ أكتوبر سنة ١٨٧٥ — والعدد ٦٣١ — ١٤ نوفمبر سنة ١٨٧٥

للبريد فى كلا الثغرين ، قال غردون باشا فى رسائله (ص ٢٧) إن المنشآت التى أقيمت فى بربره كلفت مصر سبعين ألف جنيه

و بضم زيلع وبربره امتدت سلطة مصر من سواحل البحر الأحمر الى سواحل خليج عدن الشمالية ، أى من سواكن الى مصوع ، فزولا ، فعيد ، فعصب ، فتاجوره ، فزيلع ، فبولهار ، فبربره ، ثم وصلت الى رأس جردفون (جردفوى) على المحيط الهندى

وقد بقيت محافظتا زيلع وبربره ملكاً لمصر ، الى أن اغتصبها الانجليز بعد شبوب الثورة المهدية ، إذ أكرهوا الحكومة المصرية على الجلاء عن السودان ، وشمل القرار هاتين المحافظتين ، فأخلتهما الحامية المصرية فى مايو سنة ١٨٨٥ ، واحتلها الانجليز من ذلك الحين ، وما زالوا يحتلونها الى اليوم ، ولكنه احتلال غير شرعى ، لأن مصر لم تتنازل عن حقوقها فى تلك البلاد ، ولم تقر الاحتلال الانجليزى بها

فتح هرر (سنة ١٨٧٥)

تقع سلطنة (هرر) شرقى الحبشة وغربى زيلع ، وهى إمارة إسلامية مستقلة ، يبلغ عدد سكانها نحو مليونى نسمة ، وأرضها زراعية ، تجود فيها زراعة البن والقمح والذرة والفول والعدس والموز والفاكهة والقصب ، ويزرع فيها أيضاً القطن وهو أقل مرتبة من القطن المصرى ، وتنسج منه أقمشة متينة ، وأهم حاصلاتها البن الذى لا يقل جودة عن البن اليمنى

وتتبادل هرر المتاجر مع الخارج ، فتصدر البن والصمغ وريش النعام والزعفران والمر والزبد والجلود على اختلاف أنواعها ، وتستورد الأقمشة والمنسوجات والنحاس والزجاج وما الى ذلك

وعاصمتها مدينة (هرر) الواقعة على بعد ٢٣٢ ميلا من زيلع ، وهى من المدن العامرة ، يسكنها ٣٥ ألف نسمة ، وهم على جانب من الحضارة ، ذكر عنهم اللواء محمد مختار باشا ان التعليم منتشر بينهم ، وفيهم الشعراء والأدباء ، وان جميع الصغار

فيهم يتعلمون القراءة والكتابة والرياضيات والفقه على مذهب الامام الشافعى ، وان عادة تعدد الزوجات معدومة بين أهلها ، والطلاق نادر فيهم ، قال ، إنه قضى فى المدينة سنة كاملة (من أواخر سنة ١٨٧٥ الى ١٨٧٦) لم يشهد فيها إلا حادثة طلاق واحدة (١) ، وكان على هرر قبل الفتح المصرى أمير يدعى محمد عبد الشكور ، سار فى حكمه سيرة ظلم ، وإرهاق ، فتبرم منه الأهلون اعتسافه وتمنوا أن يدال منه

واعتزم اسماعيل فتح هذه السلطنة لما لموقعها من الاهمية ، ولانها تعد من البلاد المكملة للسودان ، فأخذت الجنود المصرية المرابطة فى زيلع تستطلع احوالها وتتعرف طرق الوصول اليها ، و بعد ان تم لها ذلك زحفت فرقة من الجيش المصرى بقيادة محمد رءوف باشا فى سبتمبر سنة ١٨٧٥ قاصدة الى (هرر) عاصمة الامارة ، ورافق الحملة بعض ضباط أركان الحرب بقيادة البكباشى محمد مختار بك ، وهو الذى صار فيما بعد اللواء محمد مختار باشا صاحب الكتاب القيم « التوفيقات الالهامية فى مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الافرنجية والقبطية » ، وله المحاضرات النفيسة فى الجمعية الجغرافية

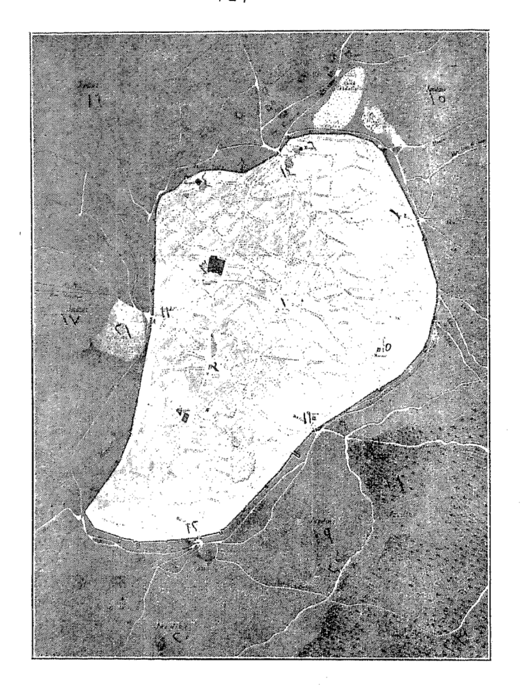
لم تلق الفرقة فى زحفها مقاومة تذكر ، اللهم إلا ما كان من بعض قبائل الجلا اذ اعترضوا زحفها ، واصطدموا بالحملة فى معركتين ، دامت احداهما سبع ساعات وانتهت بتسليم القبائل (٢) ، واستأنفت الحملة سيرها الى أن وصلت الى مدينة هرر ، وفتحتها فى ١١ اكتوبر سنة ١٨٧٥ و رفعت العلم المصرى على أبوابها وفوق قصر أميرها ، و بذلك ضمت تلك السلطنة الى أملاك مصر (٣)

---

(١) انظر مبحث اللواء محمد مختار باشا عن هرر — تلاه بالجمعية الجغرافية بجلسة ٢ فبراير سنة ١٨٧٧ ونشر بمجلة الجمعية مجموعة ١ عدد ٣ ص ٣٥١ و ٣٦٦

(٢) هرر فى ظل الحكم المصرى . للاستاذ بوليتشكي Paulitschke — مجلة الجمعية الجغرافية مجموعة نمرة ٢ عدد ١٠ — (مارس سنة ١٨٨٧) ص ٥٧٥ ، والمسيو بوليتشكى هذا هو عالم نمسوى جاء هذه البلاد فى بعثة علمية وشهد الحكم المصري بها

(٣) الوقائع المصرية العدد ٦٣١ — ١٤ نوفمبر سنة ١٨٧٥



خريطة مدينة هرر سنة ١٨٧٦

مصغرة عن خريطة بالفرنسية وضعها محمد مختار بك « باشا » وعبد الله بك فوزي « باشا » من ضباط اركان حرب الجيش المصرى في حملة هرر ، وتجد بالخريطة المعالم الآتية

١ سوق المدينة — ٢ ميدان — ٣ و ٤ و ٥ و ٦ و ٧ و مساجد — ٨ و ٩ سور المدينة — ١٠ باب السلام (من أبواب المدينة) ـ ١١ باب الحاكم ـ ١٢ باب النصر ـ ١٣ ـ باب الفتوح — ١٤ باب الرحمة — ١٥ و ١٦ و ١٧ و ١٨ و ١٩ و ٢٠ حدائق ـ ٢١ مدافن — ٢٢ نهر هرر

ثم ظهرت بوادر الانتقاض بين بعض قبائل الجلا التى كانت لها الصولة والسطوة فى عهد الامير محمد عبد الشكور ، فطلب رءوف باشا مددا من الجند على سبيل الاحتياط ، فجاءه المدد من السويس الى زيلع على ظهر الباخرة (المحروسة) ، ووصل الجند الى هرر ، فأذعنت القبائل ، واستتب الامن فى انحاء البلاد ، وانتظمت الادارة فيها

وجعل رءوف باشا حكمدارا (حاكما عاما) لهرر ، وعين أميرها السابق محمد عبد الشكور محافظا لمدينتها[١] واطمأن الاهلون الى الحكم المصرى

لكن رءوف باشا لم يلبث ان تنكر لامير هرر وقتله ، بعد ان كان يثنى عليه فى تقاريره الى الحكومة و يمتدح ولاءه ، ولم يعرف السبب الذى دعاه الى قتله ، ولكن الآراء متفقة على ان قتله كان عملا لامبرر له ، و يقول غردون باشا فى رسائله[٢] ان هذا العمل لم يكن له مسوغ ، وان ابن الامير ذهب الى مصر ليشكو الحكمدار الى الخديوى ، فغضب اسماعيل لهذا العمل ، لكنه لم يفعل شيئا

وقد رسم الضباط المصريون الذين شهدوا فتح هرر خريطة تلك البلاد ، ومن هؤلاء الضباط محمد مختار بك (باشا) وعبد الله فوزى بك (باشا) ، وخططوا المعالم والمواقع بين زيلع وهرر والجهات المجاورة

وفى عهد الحكم المصرى بنيت دار للحكومة ، وأقيم مسجد جديد ، وشيدت أربع ثكنات لاقامة الجند ، وعدة منازل للموظفين ، ولم يسخر أحد من الاهلين فى اقامة هذه المبانى ، بل تولى الجنود المصريون اقامتها

و بقى رءوف باشا يتولى الحكم الى ان اقاله غردون باشا حين عين حاكما عاما للسودان ، واعاده الى مصر ، وعهد بالحكم الى رضوان باشا محافظ بربره ، ثم

---

(١) الوقائع المصرية العدد ٦٣١ — ١٤ نوفمبر سنة ١٨٧٥

(٢) رسائل غردون الى اخته ص ٢٧٤

خلفه سنة ١٨٨٠ محمد نادى باشا ، فعنى بضبط الامن وتحصين المدينة ، و بقى يتولى الحكم الى ان شبت الثورة العرابية فى مصر ثم الثورة المهدية فى السودان ، فلم يضطرب حبل النظام بين الجند فى هرر ، وفى سنة ١٨٨٢ عين على رضا باشا ، خلفا لنادى باشا ، وظل الحكم المصرى مستقرا فى تلك البلاد ، الى ان اكرهت انجلترا حكومة مصر على اخلاء السودان وملحقاته ، فارسلت تدعو القوات المصرية الى الجلاء عن هرر ، فصدعت بالأمر وانسحبت منها سنة ١٨٨٥ ، وكان عددها حين الجلاء ٣٤١١ جندى ، يصحبهم ١٦٠ من الموظفين ورجال البوليس والعمال ، و٥٠٠٠ من النساء والاطفال من عائلات الجند والموظفين ، فكان مجموع المصريين الذين انسحبوا من هرر ٨٥٧١ قصدوا الى زيلع ، واقلعت بهم البواخر الى مصر

طوى العلم المصرى من تلك البلاد ، بعد أن ظل يخفق على ربوعها عشر سنوات سويا ، كان فى خلالها رمزا للنظام والحضارة ، فقد استتب فيها الامن ، وانتظمت الادارة ونشطت الزراعة والتجارة ، وعوّد المصريون الأهالى بعض الزراعات والفواكه المصرية ، كالعنب والخوخ واللوز والليمون ، وقصب السكر والبطاطس والخضر وما الى ذلك ، وازدادت عدد القوافل التى تنقل المتاجر من داخل البلاد الى السواحل ، فبينما كان عددها سبعين قافلة على عهد الامراء السابقين ، بلغت اربعمائة قافلة كل سنة فى عهد الحكم المصرى (١)

ولما جلا المصريون عن هرر تسلم سلطة الحكم فيها أمير من سلالة الامراء الذين كانوا يحكمونها قبل الفتح المصرى ، ثم أغار عليها ملك الحبشة وأخذها عنوة وضمها الى أملاكه ، وما زالت تابعة لها الى اليوم

حملة السومال (سنة ١٨٧٥)

اعتزم الخديوى اسماعيل فتح بقية بلاد السومال (٢) ، فجرد لهذا الغرض

(١) بوليتشكى . المرجع السابق

(٢) تطلق بلاد السومال على الجهات الواقعة فى المثلث الذى تنتهى اليه افريقيه بين خليج عدن والمحيط الهندى

سنة ١٨٧٥ حملة ، مقصدها فتح بقية شواطىء السومال ، والوصول الى مصب نهر جوبا (الجب) (١) ، ثم فتح الطريق من هناك الى منطقة البحيرات ، لكى تتصل مصر بأملاكها فى هذه المنطقة ، من طريق البحر الأحمر والمحيط الهندى ، فضلاً عن الطريق الطويل الذى يتبع مجرى النيل

ففى الوقت الذى أنفذ فيه حملة هرر ، جهز حملة السومال بقيادة الأميرال ماكيلوب باشا مدير الموانئ والمنارات المصرية ، وتولى قيادة جنود البر فى هذه الحملة الميرالاى شايي لونج بك ذلك الضابط الشهم الذى تكلمنا عنه آنفاً ، وكان غردون باشا إذ ذاك حاكماً لخط الاستواء ، فعهد اليه اسماعيل الاتصال بالحملة

أقلعت العمارة المصرية من السويس ، تقل الجنود المصرية ، فى فبراير سنة ١٨٧٥ ، واجتازت البحر الأحمر ، ثم بوغاز باب المندب ، فخليج عدن ، ورست فى ميناء بربره ، ريثما تستريح وتأخذ أهبتها ، وتستكمل معداتها ، ثم أقلعت ثانية ، واتجهت الى المحيط الهندى ، فوصلت الى رأس (حفون) جنوبى رأس جردفون (جردفوى) ، وركز قائد الحملة العلم المصرى هناك ، ودعا رؤساء القبائل الى الدخول فى طاعة الحكومة المصرية ، فلبوا الطلب طائعين ، ثم أقلعت العمارة تخوض عُباب المحيط الهندى ، حتى وصلت الى بلدة (براوه) الواقعة شرقى نهر الجوبا (الجُب) ، فأذعنت القبائل هناك للحكم المصرى ، وترك بها ماكيلوب باشا حامية من الجند ، وعين عليها محافظاً ، ثم اتجه الى بلدة (قسمايو) (٢) ، الواقعة على مصب الجب ففتحها ، وسارت القوارب تحمل الجنود فى نهر الجوبا نحو ١٥٠ ميلا ، ولكن الملاحة تعذرت فيه ، فرجعوا الى بلدة قسمايو (بور اسماعيل) ، وتأهبت الحملة البرية للسير غرباً ، قاصدةً بحيرة فيكتوريا ، وفقاً للخطة المرسومة لها من قبل ، ولكنها أبطأت فى الزحف من قسمايو ، ويقول شايي لونج بك إن من أسباب إخفاقها إغضاء غردون

(١) نهر ينبع جنوبى الحبشة ويصب في الاقيانوس الهندى شمالى زنجبار

(٢) جنوبي خط الاستواء ، وقد سميت في الخريطة التى وضعها ضباط أركان حرب الجيش المصرى (بور اسماعيل)

عن الاتصال بها رغم الأمر الصادر له من الخديوى اسماعيل

وينسب لونج بك هذا الاغضاء الى احتمال وصول تعليمات من الحكومة الانجليزية الى غردون توجب عليه عدم التعاون مع هذه الحملة (١) ، وهذا يدلك على عدم إخلاص غردون لمصر ، وعدم ولائه للحكومة المصرية ، وقد اعترف غردون فى رسائله انه بالرغم من تكليف الخديوى ما كيلوب باشا وشايى لونج بك انتظاره على نهر الجوبا « فان انتظاره سيكون على غير جدوى »(٢) ، فكأنه كان مُصِرًّا على إهمال العمل بأوامر الخديوى

وكانت هذه الحملة قد أزعجت الانجليز ، فخابرت اسماعيل فى الكف عنها ، وأرسل وزير خارجية انجلترا الى الخديوى مذكرة بهذا المعنى ، فخشى عواقب المشاكل بينه وبين الحكومة الانجليزية ، وكان فى الوقت نفسه يجهز الحملة على الحبشة ، فاستدعى ما كيلوب باشا ، وانسحبت الحملة من الجوبا فى يناير سنة ١٨٧٦ ، وعادت الى مصر(٣)

وهكذا أخفقت تلك الحملة ، ولم تصل الى تحقيق غايتها ، وهى بسط نفوذ مصر على شواطىء المحيط الهندى ، ومنها الى منابع النيل ، وذهبت الجهود التى بذلت فيها سدى ، ويرجع اخفاقها كما ترى الى تدخل السياسة الانجليزية ، ومعارضتها الخديوى فى الاستمرار فيها ، وكان اسماعيل قد استغرق فى الديون ، وشعر بحاجته الى ارضاء الانجليز ومجاملتهم ، فاضطر تحت تأثير هذه الحاجة الى الاذعان للتدخل الانجليزى ، والعدول عن الحملة

اعتراف انجلترا بسلطة مصر فى السومال

على أن الحكومة الانجليزية اعترفت بامتلاك مصر بلاد السومال الشمالية

---

(١) كتاب (مصر ومديرياتها المفقودة) للكولونل شايى لونج بك ص ١٢٤
(٢) رسائل غردون الى أخته ص ١٦٤
(٣) مصر ومديرياتها المفقودة للكولونل لونج بك ص ١٥١

الواقعة على خليج عدن ، ذلك انها عقدت وإياها معاهدة فى ٧ سبتمبر سنة ١٨٧٧ (١) ، اعترفت فيها لمصر بامتلاكها سواحل بلاد السومال لغاية رأس جردفون (جردفوى) ثم رأس (حَفُّون) الواقع جنوبيه على المحيط الهندى

وقد وقَّع على المعاهدة كل من شريف باشا وزير خارجية مصر بالنيابة عن الحكومة المصرية ، والمستر (فيفيان) قنصل انجلترا العام بالنيابة عن الحكومة الانجليزية

أقرت الحكومة الانجليزية فى هذه المعاهدة سلطة الحكومة المصرية فى سواحل السومال

وقبلت مصر أن تبقى (بربره) و (بولهار) ثغرين حرين ، وأن لا تعطى فيهما أى امتياز أو احتكار لاحد ما ، ولا تأذن باجراء أى عمل يعطل حركة التجارة فيهما ، وأن لا تأخذ رسوما عن الواردات أكثر من خمسة فى المائة ، ولا تزيد الرسوم الجمركية عن واحد فى المائة فى موانىء (تاجوره) و (زيلع) وسائر سواحل بلاد السومال التابعة لها ، وان تعامل مصر رعايا انجلترا وسفنها فى تلك الجهات معاملة دولة ممتازة ، وتعهد الخديوى بأن لا يعطى أى قطعة من هذه البلاد الى أية دولة أجنبية (بند ٢)

ورخصت مصر للحكومة الانجليزية تعيين مأمورى قنصليات فى جميع الثغور والبلاد الكائنة على سواحل البلاد المذكورة ، على أنه لا يجوز لها تعيين مأمورى قنصليات من أهالى البلاد أو من أهالى البلاد المجاورة لها

ففى هذه المعاهدة إقرار من انجلترا بسلطة مصر فى بلاد السومال الشمالية ، ومن تهكم القدر أن الدولة التى أقرت بذلك سنة ١٨٧٧ وأخذت على مصر عهداً بأن لا تتنازل لدولة أجنبية عن جزء من تلك البلاد ، هى ذاتها التى اغتصبتها بعد أن أكرهت مصر على اخلاء السودان ، فوضعت يدها على زيلع و بربرة وملحقاتهما

---

(١) منشورة في قاموس الادارة والقضاء لفيليب جلاد (النسخة الفرنسية) ج ٢ ص ٤٩٠

وأخذتها من أسلاب مصر ، كما أخذت فرنسا تاجوره وملحقاتها ، وايطاليا رأس جردفون (جردفوى)

النزاع بين مصر والحبشة

للنزاع بين مصر والحبشة فى عهد اسماعيل صفحة طويلة ، خلاصتها أن العلائق بين البلدين لم تكن ودية طيلة مدة حكمه ، بل كان يشوبهـا الجفاء والخصام ، ثم الحرب والصدام

ويرجع الخلاف الى أن اسماعيل بعد أن ظفر بضم محافظتى سواكن ومصوع نهائياً الى مصر ، اعتزم أن يصل بين مصوع وكسله بخط حديدى ، يمر بسنهيت[١] ، ويسهل سبيل المواصلات بين السودان والبحر الاحمر ويبسط رواق العمران فى شرق السودان ، وكان يعـد البلاد الواقعة بين البلدين وخاصة مدينة (سنهيت) أرضا مصرية منذ الفتح الاول (فى عهد محمد على)

ولـكن النجاشى (تيودورس) ملك الحبشة عارض الخديوى فى ذلك ، وادعى أن سنهيت أرض حبشية ، فوقع الجفاء بينهما

الحرب بين الانجليز والحبشة (سنة ١٨٦٧ — ١٨٦٨)

وظهر أثر هـذا الجفاء فى موقف الخديوى تجاه الحبشة حين قام الخلاف بينها و بين الانجليز سنة ١٨٦٧ ، فقد اعتقل الملك (تيودورس) بعض التجار الانجليز ، ومنهم المستر كامرون قنصل انجلترا ، فغضبت الحـكومة الانجليزية من هذا العمل العدائى ، وطالبت باطلاق سراح المعتقلين ، فرفض النجاشى اجابة طلبها ، واشتد الخلاف بين الدولتين ، فانحاز الخديوى الى جانب الانجليز وأرسل الى النجاشى كتابا[٢] ، من انشاء عبد الله باشا فكرى ، يطلب اليه فيه أن يحسم الخلاف باطلاق سراح المعتقلين وارسالهم الى مصوع ، وحـذره عواقب اصراره على

---

(١) شمالى مصوع ، وتسمى أيضا (كرن) Keren ووردت بهذا الاسم في معظم مصورات الجغرافية ، وهى عاصمة اقليم (البوغوس)

(٢) بتاريخ جمادى الاخرى سنة ١٢٨٤ (سبتمبر سنة ١٨٦٧)

اعتقالهم ، وتهـدده بنشوب الحرب بينه وبين الانجليز ، وبانه فى هـذه الحالة لايمانع الانجليز فى اجتياز الاراضى المصرية لمهاجمته

فأصر النجاشى على الرفض ، فجردت انجلترا على الحبشة سـنة ١٨٦٧ حملة عسكرية بقيادة اللورد نابييه Napier ، وانتهز الخديوى هذه الحرب فأمد الانجليز فيها بالمعونة والتأييد ، وأمر عبد القادر باشا الطوبجى محافظ مصوع وقتئذ بمعاونة الجيش الانجليزى فى نزوله الى البر ، ووضع الاسطول المصرى تحت تصرف الانجليز لينقل مهماتهم ومؤونتهم من السويس الى مصوع

وانتهت هـذه الحرب بفوز الانجليز واحتلالهم مدينة (مجدلا) شمالى أديس أبابا ، وقتل النجاشى تيودورس سنة ١٨٦٨ ، ثم عاد الانجليز الى بلادهم

وآل عرش الحبشة الى الملك « يوحنا » الذى كان يعاونه الانجليز ضد الملك تيودورس ، والملك يوحنا هو من أعظم ملوك الحبشة شأناً ، وأشـدهم بأساً ، وفى عهده وقعت الحرب بين مصر والحبشة كما سيجىء بيانه

فلما خلف يوحنا الملك تيودورس على عرش الحبشة اغتنم الخديوى فرصـة انصرافه الى محاربة قبائل (الجلا) لتحقيق غرضه الاول وتوسيع أملاك مصر من ناحية الحبشة

منزنجر باشا Munzinger Pacha

وقد استحثه على تحقيق هذا الغرض المسيو منزنجر قنصل فرنسا فى مصوع

ومنزنجر هذا له شأن كبير فى تاريخ العلاقات بين مصر والحبشة فى عهد اسماعيل ، وهو رجل سويسرى الجنس ، جاء مصر ثم جاب انحاء السودان والحبشة ، وأقام فى مصوع منذ سنة ١٨٦٠ ، وتزوج بسيدة حبشية من أهالى البوغوس ، ثم شغل منصب قنصل فرنسا فى ذلك الثغر ، وعاون الانجليز فى حربهم مع الحبشة بما له من الدراية باحوال البلاد ولغتها ومسالكها(١)

(١) عن ترجمة منزنجر باشا ، بقلم المسيو دوربك فى مجلة الجمعية الجغرافية ، العدد الاول من السنة الاولى (نوفمبر سنة ١٨٧٥ — فبراير سنة ١٨٧٦) ص ١٢١

وفى سنة ١٨٧٠ عينه الخديوى محافظا لمصوع ، ثم أسند اليه فيما بعد منصبا أعلى ، إذ جعله محافظا لسواحل البحر الاحمر ومديراً لشرقى السودان ، وانعم عليه برتبة البكوية ، ثم الباشوية ، فصار يعرف بمنزنجر باشا وعين أرا كيل بك نوبار من أقرباء نوبار باشا محافظا لمصوع تحت امرته (وهو غير ارا كيل بك الذى تكلمنا عنه ص ٤٢)

ومنزنجر باشا هو الذى زيّن للخديوى اسماعيل فكرة فتح الحبشة ، وألقى فى روعه انه لطول مكثه فى هذه الجهات قد سبر غورها ، وعرف أسرارها ، واقنعه أن فتح الحبشة لا يكلف مصر عناء كبيرا ، لما كانت عليه من الضعف والفوضى والانقسام .

فأعجب اسماعيل بالفكرة ، وشرع فى تحقيقها ، وعهد الى منزنجر ذاته فتح أقليم (البوغوس) وعاصمته سنهيت

فتح سنهيت وضم اقليم البوغوس

فسار منزنجر باشا من مصوع فى قوة من الف وخمسمائة مقاتل ، وقصد الى سنهيت ، وفتحها باسم مصر

ووسع نطاق مصر من هذه الناحية ، فتم على يده فتح بلاد البوغوس ، وضمها الى مصر ، واشترى مقاطعة (ايلت) الواقعة بين مصوع والحماسين من حاكمها الذى كان على خلاف مع النجاشى ، وشملت سلطة منزنجر سواكن ومصوع و بلاد البوغوس ، والتاكا ، والقضارف ، والقلابات ، واميديب ، و بركه ، أى السودان الشرقى فى أقصى حدوده

وقد نقم الملك يوحنا من مصر هذا التوسع ، وازدادت العلاقات بين البلدين توترا ، وكادت الحرب تنشب بينهما ، لولا اشتغال الخديوى بفتح هرر والحملة على السومال

حرب الحبشة

سنة ١٨٧٥ — ١٨٧٦

هى الحرب العقيم التى خاضتها مصر فى عهد اسماعيل ، والعقبة الكأداء التى اصطدمت بها فتوح مصر فى حوض النيل وملحقاته ، ومن أى ناحية نظرنا اليها نجد أن مصر لم تكن فى حاجة اليها ، ولا مصلحة لها فى خوضها ، وانما ساق اليها النزق ، وسوء التدبير ، فانتهت بالهزيمة والخسران

رأيت مما تقدم بيانه ، أن مصر قد ضمت الجهات الواقعة بين الحبشة والبحر الاحمر ، وفتحت (سنهيت) و بلاد (البوغوس) الواقعة شماليها ، و (هرر) المجاورة لها من الجنوب الشرقى ، فأحاطتها من الشمال والشرق والجنوب ،فضلا عن مجاورتها لها من الغرب منذ عهد محمد على

فهذه المواقع كان يكفى مصر أن تثبت سلطانها وتدعم نفوذها فيها ، و بذلك تبقى الحبشة مسالمة لها ، إذ تحتاج اليها للوصول الى البحر الاحمر ، ولكن اسماعيل حدثته نفسه بفتح الحبشة ، وا كتساحها من طريقه ، دون أن يقدر صعوبة هذه المهمة وعواقبها الوخيمة ، فالحبشة ، كما يعرفها الذين خبروها وسبروا غورها ، بلاد جبلية ، لا يسهل على دولة أجنبية أن تحتلها أو تجتاز جبالها الوعرة ومفاوزها الجرداء ، فضلا عن أن حربها لا تفيد مصر بحال من الاحوال ، بل تخلق لها من المشاكل وتكبدها من الخسائر والضحايا ما هى فى غنى عنه

لم يجاهر اسماعيل بنيته فى فتح الحبشة ، ولكن سياسته ازاءها كانت تنم عن هذه الغاية ، فقد تحرش بها ، وعمل على اثارة الحرب معها ، على غير جدوى ، ووقع القتال على غير استعداد من مصر ، فحلت الهزيمة بالجيش المصرى ، وأصابته الخسائر الفادحة ، وكبدت الحرب الخزانة المصرية الاموال الطائلة ، فى وقت ارتبكت فيه أحوالها ، واشتد بها الضيق ، فكانت حرب الحبشة عقما من كل ناحية

اعتزم اسماعيل تجريد حملتين فى وقت واحد على بلاد الحبشة ، الاولى تهاجمها شمالا عن طريق مصوع ، والاخرى جنوبا من طريق ميناء (تاجوره) الواقعة على خليج عدن ، وعهد بقيادة الاولى الى الكولونل ارندروب بك (١) A rendrupp ؛ والثانية الى منزنجر باشا

حملة ارندروب بك سنة ١٨٧٥

زحفت الحملة الاولى من مصوع ، وكانت مؤلفة من ٣٢٠٠ مقاتل(٢) مزودين ببطاريتين من المدافع ، واقتحمت حدود الحبشة ، واستولت على « الحماسين » الواقعة جنوبى سنهيت ، دون أن تلقى مقاومة تذكر ، وتقدمت قاصدة (جونديت)، ولما علم الملك يوحنا بزحفها حشد جموعه ، وأعد جيشا من ثلاثين الف مقاتل ، سار به قاصداً مصادمة الجيش المصرى ، وأرسل أرندروب بك رسالة الى الملك يوحنا يطلب اليه فيها جعل نهر الجاش حدا فاصلا بين الحبشة ومصر ، فلم يعبأ بالرسالة ، وسجن الرسولين اللذين أوفدهما اليه أرندروب بك ، فتقدم الجيش المصرى ليسبق الاحباش الى الهجوم

هزيمة جونديت (نوفمبر سنة ١٨٧٥)

فاشتبك الجيشان فى جونديت يوم ١١ نوفمبر سنة ١٨٧٥ ، وكان جيش الحبشة أكثر عدداً وأشد حماسة من الجيش المصرى ، فحمى وطيس القتال ، وانتهت

---

(١) هو من ضباط اركان الحرب ، أصله دانمركى ، ثم جاء مصر وتعرف الى الجنرال استون باشا رئيس أركان الحرب ، فرغب اليه الخدمة في الجيش المصري فقبل ، ثم تولى قيادة الحملة كما ترى فى سياق الكلام

(٢) احصاء المسيو سوتزارا Suzzara قنصل النمسا العام فى مصر على عهد اسماعيل فى تقريره المسهب عن حرب الحبشة ، وقد نشر هذا التقرير فى مجلة مصر Revue d'Egypte للمسيو جلياردو بك عدد مارس وابريل ومايو سنة ١٨٩٦ ص ٦٢٦ و٦٧٣ و ٧٣٧

المعركة بهزيمة الجيش المصرى ، وقتل معظم رجاله ، ولم ينج منهم إلا النزر اليسير ، وكان من بين القتلى ارندروب بك وارا كيل بك نوبار محافظ مصوع ، وارتدت فلول الحملة منهزمة الى مصوع

حملة منزنجر باشا

أما الحملة الأخرى فقد تولاها منزنجر باشا ، فأبحر من مصوع على رأس ثلاثة بلوكات من الجنود المصرية والسودانية ، ونزل فى (تاجوره) ليستكمل منها معدات الحملة من الابل ، وترك معظم الجند فى تاجوره حتى يتم اعداد الحملة ، وأقلع هو فى قوة صغيرة من الجند يصحبه الرأس (بورو) الذى كان على خلاف مع الملك يوحنا ، ونزل فى رأس (جيلاجيفو) الذى يبعد عن تاجورة غرباً بخمسة عشر ميلا ، وقصد الى بحيرة (أوسا) Aoussa الواقعة فى الجنوب الشرقى من الحبشة ، ووصل اليها يوم ١٤ نوفمبر سنة ١٨٧٥ ، بعد مسيره سبعة أيام

مقتل منزنجر باشا نوفمبر سنة ١٨٧٥

قابل منزنجر باشا فى طريقه الى بحيرة (أوسا) ابن الشيخ محمد الحدة أمير ذلك الاقليم ، فتظاهر له بالولاء للحكومة المصرية ، ولكنه كان يضمر له السوء ، فاطمأن اليه منزنجر ، واتخذه مرشداً ونصيراً ، وسارت الحملة الى أن عسكرت بالقرب من شاطىء البحيرة ، ففيما كان الجنود نياماً (ليلة ١٥ نوفمبر سنة ١٨٧٥) هجم عليهم رجال القبائل غيلة بقيادة ابن الشيخ محمد الحدة ، وأعملوا فيهم السيف ، وفتكوا بهم فتكا ذريعاً ، وشبت الواقعة فى جنح الظلام دون أن يأخذ المصريون عدتهم لها ، فأوقع بهم الأحباش ، وقتلوا منزنجر وزوجته ومعظم رجاله ، وارتدت فلول الحملة فى أسوأ حال الى (زيلع) بقيادة البكباشى محمد افندى عزت ، وكان عدد الباقين منهم ١٥٠ مقاتل

الحملة الكبيرة بقيادة راتب باشا

(سنة ١٨٧٦)

وصلت أنباء هذه الهزائم الى مصر ، فقوبلت بالجزع والدهشة ، وتزلزلت لها هيبة الجيش المصرى ، وغضب اسماعيل لهذه الهزائم ، وخشى عواقبها المعنوية والسياسية ، فأراد أن يزيل تأثيرها بتجريد جيش جرار على الحبشة يغسل الاهانة التى لحقت مصر ، وفى الحق ان الموقف كان عصيباً ، لان هزيمة مصر أمام الحبشة تسقط هيبتها فى وقت كانت تكتنفها المطامع الأوروبية ، لكن الخديوى لم يأخذ فى أمره منذ البداية بالاناة وحسن الاستعداد وتقدير الموقف من كل وجوهه ، فلما جاءته أخبار الهزائم الاولى ، تعجل باعداد حملة مبتسرة ، مؤلفة من نحو خمسة عشر ألف مقاتل ، دلت مقدماتها على أنها سائرة حتما الى الهزيمة والخسران ، وأهم عيب فى تأليفها افتقارها الى كفاءة القيادة وحسن النظام

فقد عقد الخديوى لواءها للسردار راتب باشا ، وهو ضابط خلو من الكفاءة وحسن التدبير

وجعل على رآسة أركان الحرب الجنرال لورنج باشا Loring من القواد الامريكيين فى الجيش المصرى ، ولم يكن التفاهم سائداً بين القائد العام وهيئة أركان الحرب ، ففقد الجيش أهم عوامل النجاح ، وهى وحدة القيادة وكفايتها

وصحب الحملة الامير حسن باشا أحد أنجال الخديوى ، وكان قد عاد من المانيا بعد أن درس بها قليلا من الفنون الحربية ، ولم يكن له من الكفاءة والخبرة مايجعل منه قائداً يعتمد عليه فى مثل هذه الحرب

وقد تطوع فى القسم الطبى للحملة بعض كبار أطباء مصر فى ذلك العصر ، كالدكتور محمد على باشا البقلى ، الذى لقى مصرعه فيها [١] ، والدكتور محمد بك بدر

---

(١) راجع ترجمته في (عصر محمد علي) ص ٥١٢

أبحرت الحملة من السويس تقلها بواخر الشركة الخديوية والسفن الحربية المصرية ، ونزلت فى ميناء (مصوع) ، وأخذ الجيش يزحف على الحبشة

هزيمة «قورع» (٧ مارس سنة ١٨٧٦)

أوغل المصريون فى مفاوز الحبشة ، دون أن يستطلعوا أحوالها و يتعرفوا قوات الاعداء ومواقعهم ، فوصل الجيش فى زحفه الى بلدة « قورع »(١) التى تبعد عن مصوع نحو ٥٥ ميلا ، فعسكر فيها ، وأخذ يقيم فيها الاستحكامات ، فبنى حصنا بها ثم حصنين فى أول السهل الواصل اليها من (قياخور)

وقد أعد الملك يوحنا جيشاً كبيرا بلغ نحو أربعين الف مقاتل ، وسار لمهاجمة المصريين فى « قياخور » ، وكانت تحتلها قوة من الجيش المصرى ، وتحميها استحكامات منيعة لم يقو الاحباش على مهاجمتها

فقصدوا مهاجمة مركز الجيش المصرى فى (قورع) ، ونشبت بها يوم ٧ مارس سنة ١٨٧٦ معركة كبيرة ، انتهت بهزيمة الجيش المصرى ، وتشتت شمله ، وقتل معظم رجاله،ولم يتمكن القائد العام والأمير حسن باشا وأركان حربهما من النجاة الا بعد أن عاينوا الموت ،وكاد الاحباش يفتكون بهم وأسروا من المصريين نحو ٢٥٠ أسير

وقد خسر الاحباش فى هذه الواقعة خسائر فادحة لا تقل فى عددها عن خسائر المصريين ، ولكنهم فازوا بالنصر المبين

عقد الصلح

وكان ضمن الاسرى المصريين محمد بك رفعت رئيس القلم التركى بديوان الجهادية ، وقد رافق الحملة صحبة السردار ، فأخذ يسعى فى عقد الصلح مع الملك يوحنا ، على أن تنسحب الجنود المصرية من أرض الحبشة ، و يرد الملك الاسرى الى مصر ، ويفتح طريق التجارة بين مصوع والحبشة

---

(١) جاء اسمها هكذا فى الوقائع المصرية عدد ٦٤٩ وان كان معظم المؤلفين يكتبها « قرع » ، وهذا الوضع (قورع) يوافق النطق الفرنسى Goura

فأسفرت مساعى رفعت بك عن عقد الصلح وبقيت سنهيت فى أملاك مصر (١) ، وعاد هو وباقى الأسرى الى مصوع ، وابحرت فلول الحملة الى السويس ، وبلغت خسائر مصر من الرجال فى الحملات الثلاث التى جردتها على الحبشة ٨٫٥٠٠ قتيل

نتائج حرب الحبشة

تكبدت مصر فى هذه الحرب العقيم خسائر فادحة فى الرجال والمال ، وتصدعت هيبتها لما أصابها من الهزائم المتوالية ، وكلفت الخزانة المصرية نحو ثلاثة ملايين من من الجنيهات (٢) ، فى وقت كانت تنوء فيه بالديون الجسيمة ، وتعانى أشد ضروب الارتباك المالى

وليس يخفى أن هذه الحرب وقعت فى الوقت الذى تحفزت فيه الدول الاستعمارية ، وخاصة انجلترا ، للتدخل فى شؤون مصر المالية والسياسية ، فانهزام الجيش المصرى فى تلك الحرب ، قد ضاعف آمال انجلترا فى التطلع الى احتلال مصر ، ذلك انها كانت تحسب حساباً كبيراً لقوة الجيش المصرى ، منذ تبينت مكانته وبسالته فى المعارك التى خاض غمارها تحت لواء ابراهيم باشا ، ولكن هزيمته فى الحرب الحبشية كشفت عن ضعفه ، وعن الفوضى الضاربة أطنابها فى نظامه ، ففقد المهابة التى كانت له من قبل .

فالحرب الحبشية كانت تجربة مؤلمة ، أظهرت ضعف قوة مصر الحربية ، ولم يكن من سبيل الى تجديد هذه القوة فى وقت أشرفت فيه الحكومة على العجز والعسر المالى ، فى أواخر عهد اسماعيل ، وليس ثمة شك فى أن هذه النتيجة كان من شأنها أن تغرى انجلترا بتحقيق أطماعها فى مصر ، فلا جرم أن تضاعفت مساعيها فى وضع يدها على البلاد ، وما زالت تدأب على تلك الخطة مدى خمس سنوات حتى وقعت الحوادث العرابية التى انتهت بالاحتلال الانجليزى

---

(١) أخذتها ايطاليا بعد اخلاء مصر للسودان وجعلتها جزءاً من مستعمرة أريتريا

(٢) إحصاء المسيو سوتزارا قنصل النمسا فى مصر على عهد اسماعيل فى تقريره المسهب المؤرخ يوليه سنة ١٨٧٧ السابق ذكره

حكمدارو السودان فى عهد اسماعيل

انتهينا من بيان الحوادث الهامة فى السودان على عهد الخديوى اسماعيل ، والآن نذكر نبذة عامة عن حكمدارى السودان على النحو الذى اتبعناه فى كلامنا عن عهد محمد على باشا (عصر محمد على ص ١٧٧)

موسى باشا حمدى

كان على السودان حين تولى اسماعيل الحكم (موسى باشا حمدى) ذو الاعمال الجمة والمآثر الحسنة ، وقد سر الخديوى من أعماله ، وأنعم عليه برتبة الفريق ، فذهب الى مصر فى يوليه سنة ١٨٦٣ ليؤدى واجب الشكر ، واطلع الخديوى على أحوال البلاد التى يحكمها ، فلقى من اسماعيل باشا عطفاً كبيراً ، ثم عاد الى مقر عمله بالخرطوم

وعنى بزيادة عدد الجند فوصل عددهم فى عهده الى ثلاثين ألفا من الجنود النظاميين والباشبوزق ، وسار فى حكمه بهمة ودراية ، و بقى حكمدارا للسودان الى أن توفى سنة ١٨٦٥ بالخرطوم ، ودفن بها

جعفر صادق باشا ١٨٦٥ — ١٨٦٦

ثم خلفه جعفر صادق باشا ، وفى عهده فتح الجنود المصريون فاشوده سنة ١٨٦٥ كما تقدم البيان

إخماد ثورة كسلا

وفى عهده أيضاً أخمدت ثورة شبت بين الجنود السودانيين المرابطين فى (كسلا) وعدتهم نحو أربعة آلاف جندى

ظهرت هذه الثورة فى أواخر عهد موسى باشا حمدى ، وترجع أسبابها الى سوء ادارة الحكام ، وتأخير دفع رواتب الجند ثمانية عشر شهرا ، فثاروا وعصوا الأوامر ، وتمردوا على رؤسائهم ، وقتلوا بعض الضباط ، ونهبوا أموال الاهلين ،

وخربوا بعض القرى ، فأخذتهم الحكومة بالحيلة تارة ، و بالعنف والقسوة تارة أخرى ، ولما بلغ الخديوى اسماعيل نبأ هذه الثورة اهتم بأمرها اهتماما كبيراً ، و بعث بجعفر صادق باشا حكمداراً على السودان ، وأرسل أوامره الى السلطات المحلية بامداد قوات الحكومة فى كسلا لاخماد الفتنة

وقد كان الفضل فى إخمادها لضابط سودانى كبير يسمى (آدم بك) ، وهو من خيرة ضباط الجيش المصرى ، تلقى التعليم الحربى فى مصر على عهد محمد على باشا ، ورافق ابراهيم باشا فى حروبه بسوريا ، واشتهر بالبسالة والاقدام ، الى المهارة والكفاءة ، وقد أرسل اليه الخديوى خطاباً يدل على تقديره لشجاعته استحثه فيه على العمل لاخماد الفتنة وختمه بقوله :

« وإنى أعلم بسالتك وحسن سياستك ، منذ كنت مع المرحوم والدنا فى سوريا ، فحقق آمالنا بك ، وعند انتهاء الثورة احضر الى مصر والسلام » سبتمبر سنة ١٨٦٥ (١)

أدى آدم بك مهمته خير أداء ، وأخذ الثائرين بالحسنى ، ووعدهم بأن يحصل لهم على عفو من الخديوى ، فأخلدوا الى الطاعة ، ثم جاء حسن باشا القائد العام للجند ، وعقد مجلساً عسكريا للنظر فى أمر العصاة ، فقرر تجريدهم من السلاح ، واعتقالهم جميعاً ، حتى يرد أمر الخديوى فى شأنهم ، فثارت ثائرتهم من جديد ، بسبب غطرسة بعض ضباط الباشبوزق فاطلق الجند الرصاص على الثائرين فقُتل كثير منهم ، واعتقل الباقون

جعفر مظهر باشا ١٨٦٦ — ١٨٧١

ثم حضر جعفر مظهر باشا وكيل الحكمدار ، فحقق أسباب الثورة ، وأوقع العقاب بمن اشتركوا فيها ، وانتهى على يده اخمادها

وانعم الخديوى على آدم بك برتبة اللواء مكافأة له على ما بذله من الهمة فى اخماد الثورة .

---

(١) عن كتاب السودان لنعوم بك شقير ج ٢ ص ٤٢

وفى غضون ذلك مرض جعفر صادق باشا وعاد الى مصر ، فعين جعفر مظهر باشا حكمداراً للسودان ، فسار سيرة عدل واصلاح ، وكان من خيرة حكام السودان ، ونظم الادارة ، واصلح دار صناعة الخرطوم ، وانشأ بعض المدارس ، وفتح عدة محاكم للفصل فى منازعات الناس

وفى عهده عين آدم بك الضابط السودانى المتقدم ذكره قائداً عاما للجيش المصرى بالسودان ، وأنعم عليه بالباشوية ، فصار يعرف بآدم باشا ، وقد أظهر ولاءً صادقا لمصر والحكم المصرى

وفى عهده أيضاً نشطت الحكومة المصرية فى مطاردة تجار الرقيق ، وزحف صمويل بيكر باشا بقوة من الجيش المصرى على اقليم خط الاستواء وضمه الى أملاك مصر كما أسلفنا ، وكان مظهر باشا يعاونه فى مهمته

واشتهر مظهر باشا بالعدل والنزاهة ، ولا غرو فهو أعظم ولاة السودان شأنا ، وأحسنهم سيرة ، وكان يقرب اليه علماء السودان ويكرمهم ، ذكر عنه ابراهيم باشا فوزى انه فارق الخرطوم وعليه دين يربى على ألف جنيه ، وهذا من أقوى الدلائل على نزاهته ، وقال ان راتبه لم يكن يفى بحاجاته ، لكثرة ما كان ينفقه على الفقراء والمعوزين ، وما كان يقيمه من المآدب للعلماء وذوى الفضل ، قال ولا يزال السودانيون يذكرون له هذه الميزات ، وهم مجمعون على أن أيام ولايته كانت غرة فى جبين السودان (١)

وقد عين فى سبتمبر سنة ١٨٧١ عضواً بمجلس الاحكام بمصر (٢) ، فانفصل عن منصبه فى السودان ، وعين فى مكانه ممتاز باشا

ممتاز باشا ١٨٧١ — ١٨٧٣

هو من ضباط الفرسان فى الجيش المصرى ، وكان سيء السيرة ، مرتكبا

---

(١) السودان بين يدي غردون وكتشنر ، ج ١ ص ٦٧

(٢) الوقائع المصرية العدد ٤٢٦ الصادر في ٣٠ اكتوبر سنة ١٨٧١

للرشوة ، فشكاه الاهلون الى الخديوى ، فأمر بالتحقيق معه ؛ وسجن بالخرطوم رهن التحقيق ، ومات بالسجن ، والأثر الوحيد الذى تركه انه علّم الاهلين زراعة القطن

اسماعيل باشا ايوب ١٨٧٣ — ١٨٧٧

فى عهده اتسعت فتوح مصر اتساعا عظيما ، ففتحت سلطنة دارفور على يد الزبير باشا رحمت ، وضمت زيلع وبربره ، وفتحت سلطنة هرر كما بيناه فى موضعه وله فضل كبير فى بسط رواق العمران فى السودان ، فقد أمن السبل ، ووطد دعائم الأمن فى نواحيه ، ونشط الزراعة والتجارة والصناعة ، وعلى يده أنشئت محطات عسكرية بين الخرطوم ودارفور الى حدود واداى ، وبين بربر على النيل وسواكن على البحر الاحمر ، لتأمين سبل المواصلات ، مما كان له أثره فى تنشيط التجارة ، وعنى بتوسيع زراعة القطن ، وانشأ معملين لحليج الاقطان ونسجها ، وفى عهده انشئت عدة مكاتب للبريد فى أهم العواصم ، وقد بقى فى منصبه الى أن تدخلت السياسة الانجليزية ، وأوعزت الى الخديوى اسماعيل بتعيين غردون باشا مكانه ، فنقل اسماعيل باشا أيوب عضواً بالمجلس الخصوصى العالى (مجلس الوزراء)، وهذا التعيين وان كان دليل الرضا عنه ، لكنه أدى الى اقصائه عن السودان ، ثم ترقى فى المناصب، الى أن صار وزيرا للداخلية عقب الاحتلال الانجليزى ،واليه ينسب امتناع الحكومة عن ارسال النجدة التى طلبها عبد القادر باشا حلمى حكمدار السودان لاخماد الفتنة المهدية ، ثم استدعاؤه من السودان سنة ١٨٨٣ ، مما كان سبباً فى استفحال الثورة ، وخدمة المطامع الانجليزية ، كما سنبينه فى موضعه ، وتوفى سنة ١٨٨٤

غردون باشا

١٨٧٧ — ١٨٧٩

لم ينقطع الكولونل غردون عن السودان طويلا ، فبعد أن استعفى سنة ١٨٧٦ من منصبه الأول وعاد الى انجلترا ، سعت الحكومة الانجليزية لدى الخديوى كى

يعينه حكمداراً عاماً للسودان ، وهكذا تدرجت السياسة الانجليزية فى تدخلها فى شؤون السودان ، فبعد أن كان غردون حاكما لخط الاستواء ، صار الحاكم العام للاقاليم السودانية جميعها ، وهذه أول مرة ولى فيها هذا المنصب الخطير حاكم أجنبى ، وهو ليس حاكما أجنبيا فحسب ، بل ينتمى الى دولة لها فى مصر مآرب استعمارية لا تخفى ، إذ كانت تتطلع الى مصر ، وتعمل على انشاء امبراطورية افريقية انجليزية تبنيها على أنقاض الامبراطورية المصرية

فتعيين غردون حاكما عاما على السودان هو فوز كبير للسياسة الانجليزية ، ودليل على مبلغ ما أدركته من النفوذ السياسى فى بلاط اسماعيل ، ولا يخفى أن هذا التعيين وقع سنة ١٨٧٧ ، أى بعد أن خطت انجلترا الخطوات الأولى للتدخل فى شؤون مصر ، إذ بدأ تدخلها الفعلى بشرائها أسهم مصر فى قناة السويس سنة ١٨٧٥ ، وأعقب ذلك تدخلها والدول فى شؤون مصر المالية بانشاء صندوق الدين ، ثم فرض الرقابة الثنائية على مالية الحكومة سنة ١٨٧٦ ، فتعيين غردون هو من آثار ارتباك مصر المالى ، ومن نتائج سياسة اسماعيل المالية ، فقد كان يظن انه يستطيع بمثل هذا التعيين كسب عطف انجلترا ، لتعاونه فى محنته ، لكنه لم ينل أى مقابل لهذه المنحة العظيمة ، وعلى العكس ، كانت انجلترا أشد عليه وطأة من الدول الأخرى ، وكذلك شأن السياسة الانجليزية فى مصر ، تأخذ كل ما تستطيع أخذه ، دون أن تعطى شيئاً

ويستفاد من رسائل غردون أن اسماعيل كان مترددا فى اسناد هذا المنصب الخطير اليه ، ولكن غردون رفض أن يذهب الى السودان مالم يعين حاكما عليه، وكان يظن أن الخديوى لا يقبل هذا الشرط ،(١) ولكن ضغط السياسة الانجليزية ، والتماس الخديوى النجدة منها فى محنته المالية ، كل ذلك مال به الى التساهل والتسليم ، وأصدر فى ١٧ فبراير سنة ١٨٧٧ فرمانا لغردون باشا بالولاية على جميع أصقاع السودان بما فيها دارفور ، وبحر الغزال ، وخطّ الاستواء ، وهرر ، وسواحل

(١) رسائل غردون الى اخته ص ١٩٥

البحر الاحمر ، مع مصوع ، وسواكن ، وزيلع ، وبربره (١) ، وخوّله فى حكمه سلطة مطلقة ، عسكرية ومدنية ، وكان سلطان مصر فى السودان قد بلغ وقتئذ أقصى مداه ، إذ امتد من سواحل البحر الاحمر وخليج عدن والاقيانوس الهندى شرقا ، الى حدود واداى غربا ، والبحيرات الاستوائية جنوبا

لم يكن غردون على كفاءة للاضطلاع باعباء المنصب الكبير الذى تولاه ، بل كان سريع التأثر ، سهل الانقياد لمن يثق به ، كثير التضارب فى آرائه ، ولم يقترن اسمه الا بمحاربة الاتجار بالرقيق واحتكار العاج ، لكنه اسرف فى عمله ، ولم يأخذ الأمور بالحكمة و بعد النظر

قال شايى لونج بك « إن أمر غردون باحتكار الحكومة محصول العاج قد أثار تجار السودان على الحكومة ، وهؤلاء التجار كانوا سادات السودان الحقيقيين ، فكان هذا العمل المنطوى على الظلم النواة الأولى للثورة المهدية ، وكانت ادارته فوضى ، و بالجملة فقد تولى حكم السودان ، والأمن واليسار يسودانه ، ولما غادره سنة ١٨٧٩ ، كان ينوء تحت أعباء الديون ، والثورة تتمخض فى أحشائه » (٢)

وقد جعل غردون اعتماده على الموظفين الاجانب فى تلك الاصقاع النائية ، فعين مسداليا بك Messedaglia مديرا للفاشر (دارفور) ، وكان ايطاليا ، وجيسى باشا Gessi pacha الايطالى مديراً لبحر الغزال ، وفردريك روسى Rosset قنصل المانيا فى الخرطوم مديرا لدارفور ، وشارل ريجوليه Rigolei الفرنسوى مديراً لداره ، واميليانى Emiliani مديراً لكبكبيه ، والدكتور زور بخين مفتشاً للصحة ، والضابط (سلاتين) أحد ضباط الجيش النمسوى مفتشا للمالية ، وهو الذى صار فيما بعد سلاطين باشا صاحب المواقف المشهورة أثناء الثورة المهدية ، وجيكلر باشا النمسوى ، مديراً عاماً لمنع تجارة الرقيق ، وهلم جرا

---

(١) كما وردت فى (الوقائع المصرية) بالعددين ٦٩٨ و٦٩٩ الصادرين فى ٢٥ فبراير و ٤ مارس سنة ١٨٧٧

(٢) « مصر ومديرياتها المفقودة » للكولونل شايى لونج بك ص ١٨٦

وكان الكولونل (بروت) الامريكانى يتولى الحكم فى مديرية خط الاستواء ، فعين بدله ابراهيم فوزى (باشا)، ثم مالبث أن أقاله ، وعين فى مكانه الدكتور شنتزر الالمانى الذى عرف بعد ذلك بأمين باشا

وأهمل غردون شأن المقاطعات الاستوائية ، ولم يُعْنَ بتوطيد سلطة الحكومة المصرية فيها ، فكأنه كان يبغى إقصاءها عن الحكم المصرى ، تمهيداً لادخالها فى منطقة النفوذ الانجليزى

وأقفل المدارس التى فتحها الولاة من قبل ، وتذرع الى ذلك بقلة المال ، ومنع ارسال الطلبة الناجحين بمدرسة الخرطوم الى مصر ، وعزل الموظفين منهم

وشغلت الفتن والثورات معظم مدته ، وكان عهده نذيراً بشبوب الثورة المهدية، وساعد على شبوب الفتن تشدده فى ابطال الرقيق ، ونقص قوة الجيش المصرى فى السودان بما أخذته الحكومة من صفوفه من الامداد التى أرسلتها الى تركيا فى حرب البلقان (سنة ١٨٧٧) .

ثار سليمان بن الزبير باشا سنة ١٨٧٧ انتقاما لابيه . إذ كان ممنوعا من الرجوع الى السودان، وطمع فى الاستقلال ببحر الغزال، فأنفذ اليه غردون باشا حملة طاردته وأوقعت به

ثم عاد يقاوم الحكومة ، فأنفذ اليه غردون حملة بقيادة جيسى باشا ، انتهت بهزيمة سليمان ومقتله (يوليه سنة ١٨٧٩) ، وقد حزن عليه ابوه الزبير باشا حزناً شديداً ، لكنه بقى موالياً للحكومة المصرية

وثار قائد من قواد جيش الزبير يدعى (الصباحى) ، فطاردته الجنود المصرية حتى أدركته ، وحوكم أمام مجلس عسكرى وحكم عليه بالاعدام (مارس سنة ١٨٧٩)

وثار فى دارفور أمير من سلالة سلاطينها يدعى هارون ولقب نفسه بالرشيد ، وبايعه الأهلون سلطاناً عليهم فى أوائل سنة ١٨٧٧ ، فحاربته الجنود المصرية حرباً طويلة، انتهت بقتله فى أوائل سنة ١٨٨٠ (١) ، وسعى غردون فى الاتفاق مع

(١) دارفور فى عهد غردون باشا لمسداليا بك . مجلة الجمعية الجغرافية مجموعة ٣ عدد ١ ص ٦٢ (مايو سنة ١٨٨٨) .

يوحنا ملك الحبشة على تحديد التخوم بينـه و بين مصر ، فلم يوفق الى ذلك ، وفى أواخر سنة ١٨٧٩ جاء الى مصر ، وكان ذلك فى أوائل حكم الخديوى توفيق باشا ، وقدم استعفاءه من منصبه ، فعينت الحكومة محمد رءوف باشا حكمداراً للسودان خلفاً له ، وهو آخر الولاة الذين حكموا السودان قبل الثورة المهدية ، وفى عهده ظهرت بوادر تلك الثورة المشئومة التى قضت على نفوذ مصر فى السودان ، ومهدت للحكم الانجليزى فى أرجائه

التقسيم الادارى

دخل على التقسيم الادارى فى عهد اسماعيل تعديلات أفضى اليها فى الغالب التوسع فى الفتح وضم بلاد جديدة الى السودان

فصار مؤلفاً من المديريات والمحافظات الآتية (١) :

المديريات والمحافظات	العاصمة
مديرية الخرطوم	الخرطوم
« سنار وفازوغلى	سنار
« بربر	بربر
« دنقله	دنقله
« كسلا أو التاكه	كسلا
« فاشوده	فاشوده
« كردفان	الأبيض

(١) انظر إحصاء شيلو بك Chelu bey كبير مفتشى الرى بالسودان فى كتابه (النيل والسودان ومصر) ص٩٧ ، ونعوم بك شقير فى كتابه السودان ج ١ ص ٦٧

المديريات والمحافظات		العاصمة
مديرية الفاشر	مديريات دارفور(١)	الفاشر
« داره		داره
« كبكبيه		كبكبيه
« بحر الغزال		ديم الزبير
« خط الاستواء		الاسماعيلية (غندكرو) ثم اللادو ثم ودلاى

وكانت مقسمة الى مأموريات لاتوكا ، و بور ، ومكركه ، ومنبوتو و ودلاى ، وفويره

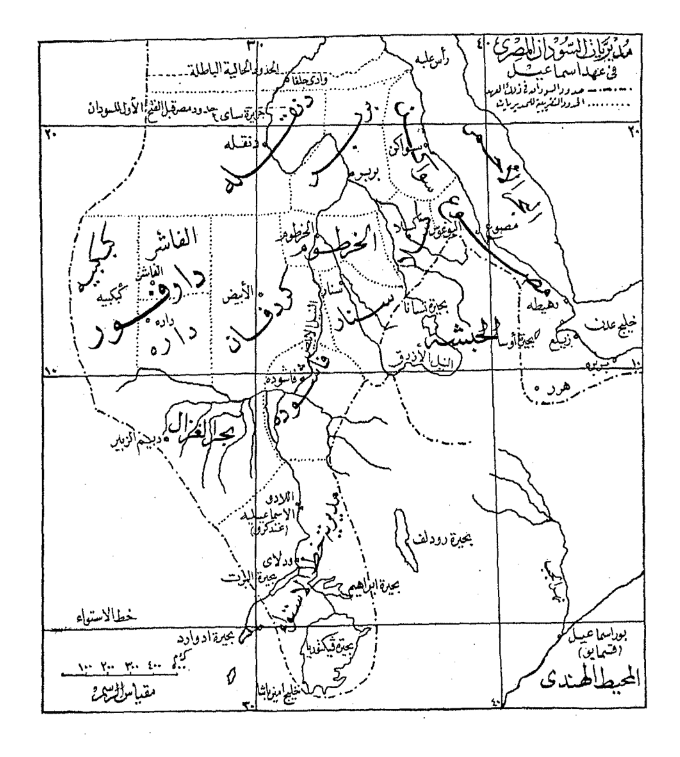
محافظة سواكن	سواكن
« مصوع	مصوع
حكمدارية هرر	هرر
محافظة زيلع	زيلع
محافظة بربره	بربره

الجيش المصرى فى السودان

بلغ الجيش المصرى فى السودان على عهد اسماعيل نحو ٣٠ الف مقاتل موزعين على المراكز الآتية

دنقله . بربر . الخرطوم . سنار . القلابات . الجيرة (بالقرب من حدود الحبشة) . القضارف . كسلا . اميديب . سنهيت . سواكن . كردفان . دارفور . بحر الغزال . خط الاستواء . مصوع . هرر . زيلع . بربره

(١) كما ذكرها مسداليا بك مدير دار فور في عهد غردون باشا في بحثه المنشور بمجلة الجمعية الجغرافية الخديوية مجموعة ٣ عدد ١ (مايو سنة ١٨٨٨) ص٤٦ مع تسمية مديرية كبكبية باسم (كابكل) ويوافق التقسيم الوارد في خريطة مسداليا بك ذاته عن السودان الملحقة بالكتاب الازرق الانجليزى Blue Book سنة ١٨٨٣ ج ١١ ص ٣٨


مديريات السودان المصري
في عهد اسماعيل
حدود السودان في ذلك العهد
الحدود التقريبية للمديريات
رأس علبه
الحدود الحالية الباطلة
وادى حلفا
جزيرة ساى حدود مصر قبل الفتح الأول للسودان
دنقله
دنقله
بربر
بربر
سواكن
سواكن
مصوع
مصوع
البوغوس
كسلا
الخرطوم
الخرطوم
الفاشر
الفاشر
دارفور
كبكبيه
داره
داره
الأبيض
كردفان
سنار
سنار
بحيرة تسانا
الحبشة
النيل الأزرق
تهيطه
بحيرة أوسا
زيلع
خليج عدن
بربره
هرر
فاشوده
فاشوده
بحر الغزال
ديم الزبير
اللادو
الاسماعيليه
(غندكرو)
بحيرة رودلف
ودلاى
بحيرة البرت
بحيرة ابراهيم
خط الاستواء
بحيرة ادوارد
بحيرة فيكتوريا
خليج امين باشا
بور اسماعيل
(قسمايو)
المحيط الهندى
مقياس الرسم
٢٠
١٠
٣٠
٤٠

أعمال العمران

بيَّنَّا فى الجزء الثالث من تاريخ الحركة القومية (ص ١٨٠ وما بعدها) عمران السودان فى عهد محمد على ، ثم ذكرنا فى الفصل الثانى من كتابنا الحالى ما تم على يد سعيد باشا من الاصلاح ، والآن نذكر اعمال العمران التى تمت فى عهد اسماعيل ، عدا ماذكرناه فيما تقدم من البيان

استتباب الأمن

كان من أول ماعنى به الحكم المصرى فى السودان بسط رواق الامن ، وهو قوام العمران وأساس تقدم الزراعة والتجارة ، ويكفى دليلا على فضل الحكم المصرى من هذه الناحية كلمة السير صمويل بيكر فى هذا الصدد ، قال « ان السائح الاوروبى يمكنه أن يجوب تلك الاصقاع البعيدة ، دون أن يخشى على نفسه اكثر مما يخشاه من يتنزه بعد غروب الشمس فى حديقة هايدبارك بلندن »

الزراعة

وانتشرت الزراعات الحديثة فى أنحاء السودان وخاصة فى عهد اسماعيل باشا أيوب ، فقد عمل على توسيع مناطق زرع القطن ، واستقدم لهذا الغرض كثيراً من آلات الرى لتوفير المياه اللازمة للقطن ، وانفق فى هذا السبيل أموالا طائلة لشراء الآلات ونقلها عن طريق سواكن ، وانشأ معملين لحليج القطن فى كسلا والخرطوم (١) ، وكان فى نيته انشاء معمل آخر فى (بربر) لكنه فصل عن حكمدارية السودان سنة ١٨٧٦ ، وعين بدله غردون باشا

وانتشرت زراعة القطن فى السودان الشرقى ، وأنشئت أسواق لبيع محصوله

---

(١) ذكرت (الوقائع المصرية) عدد ٥٤٨ الصادر في ١٠ مارس سنة ١٨٧٤ وابور حليج الاقطان بكسلا ، وجاء ذكر وابور الخرطوم فى كتاب شيلو بك (النيل والسودان ومصر) ص ١٠٥

فى كسلا والقضارف (ابوسن) والقلابات ، وصار لكسلا أهمية تجارية كبيرة لكثرة مزارع القطن حولها ، فضلا عن موقعها الحربى

وزرع الدخان فى القضارف ، وانتج صنفا لا يقل جودة عن دخان الاناضول ، واستعمله المدخنون فى جميع نواحى السودان (١) وانشأ امين بك (باشا) حقولا للتجارب الزراعية بجوار (الرجاف) (٢)

وكثر النخيل فى دنقله ، وزاد محصول التمر كل سنة ، وكان ينقل الى بربر والخرطوم ، ومن هناك يرسل الى أقاصى السودان حتى خط الاستواء والحبشة

طرق المواصلات

نشطت المواصلات بين مختلف بلدان السودان فى عهد الحكم المصرى ، واليك أهم الطرق التى كانت تسلكها القوافل أو السفن (٣)

١ — من الخرطوم الى الابيض عاصمة كردفان — ١٢ مرحلة بسير القوافل

٢ — » » » الفاشر عاصمة دارفور — ٣٢ مرحلة بسير القوافل

٣ — » » » غندكرو (الاسماعيلية) بطريق النيل والمسافة بينهما بالبواخر فى ثمانية عشر يوما

٤ — » » » قوز رجب على نهر عطبره — ست مراحل

٥ — » » » دنقله — ٨ مراحل

٦ — » » » ابو حراز فالقضارف وتقطع المسافة بينهما فى ثلاثة أيام بالبواخر ثم خمسة أخرى على ظهور الجمال

٧ — » » » قوز رجب فكسلا فى ثمانية أيام بالجمال

---

(١) النيل والسودان ومصر للمسيو شيلو بك ص ١٠٥

(٢) مجلة الجمعية الجغرافية عدد فبراير سنة ١٨٨١ ص ٣٢

(٣) كما ذكرها الكولونل ستوارت فى تقريره المنشور بالكتاب الازرق الانجليزى عن مصر سنة ١٨٨٣ (ج ١١ ص ٨)

٨ — من القضارف الى القلابات فى أربعة أيام على ظهور الجمال
٩ — « « (الجيره) فى يوم ونصف على الجمال
١٠ — « « « كسلا فى خمسة أيام بالجمال
١١ — من قوز رجب الى سواكن فى احد عشر يوما على ظهور الجمال
١٢ — من مصوع الى سنهيت (عاصمة البوغوس) فى خمسة أيام على الجمال
١٣ — من سنهيت الى كسلا فى سبعة أيام بالجمال
١٤ — من غندكرو الى الدفلاى سيرا على الاقدام فى تسعة أيام
١٥ — « « « منبوتو فى ٣٤ يوما سيرا على الاقدام
١٦ — « « « فويره فى ١٨ يوما سيرا على الاقدام
١٧ — « « « لاتوكا فى سبعة أيام سيرا على الاقدام
١٨ — « « « مكركا فى سبعة أيام سيرا على الاقدام
١٩ — من الفاشر الى أسيوط فى أربعين يوما على ظهور الابل

المواصلات النيلية ودار الصناعة بالخرطوم

وأصلح مجرى النيل فى شلال (عبكه) جنوبى وادى حلفا ، ونسفت الصخور والعقبات التى كانت تعترض السفن فيه ، فصار صالحا للملاحة النيلية ومرور السفن الشراعية والبواخر ، فسهلت المواصلات بين مصر والسودان [١] وأزيل جزء من السدود على النيل الاعلى [٢]

وأصلحت ترسانة الخرطوم التى كان انشاؤها فى عهد محمد على ، وكثرت بها البواخر النيلية ، وبلغ عددها ١٥ باخرة وعدة ذهبيات مصنوعة من الحديد والخشب ، وقد أرسلت هذه البواخر من مصر الى الخرطوم بطريق النيل عدا الباخرة (الاسماعيلية) التى اتخذها الحكمدارون لركوبهم فانها نُقلت قطعاً مفككة

(١) الوقائع المصرية العدد ٣٦٧
(٢) الوقائع المصرية العدد ٥٥٢ (٧ ابريل سنة ١٨٧٤)

ورُكّبت فى ترسانة الخرطوم ، وأنشئت فى هذه الترسانة أربع بواخر جديدة (١)

الملاحة البحرية والفنارات

وأنشىء فنار فى ميناء (بربره) على خليج عدن لهداية السفن وتسهيل الملاحة، وبنى بها أيضاً رصيف لايواء السفن بمرفئها

وعهد الخديوى اسماعيل سنة ١٨٧٨ الى الكولونل جريفز Graives والقائمقام محمد مختار بك (باشا) ارتياد شواطىء السومال التابعة لمصر والواقعة على المحيط الهندى لاختيار موقع يقام فيه فنار يرشد السفن فى طريقها بين المحيط وخليج عدن ، وقد اضطلعا بهذه المهمة ، وخطط القائمقام مختار بك خريطة هذه الجهة ومكان الفنار ، وهو يقع على بعد ثمانية أميال جنوبى رأس جردفون (جردفوى) (٢) وعلى مسافة ثمانمائة متر من مصب نهر صغير يجرى فيه الماء العذب بواد يعرف بوادى ولكن الفنار لم ينشأ ، لانتهاء حكم اسماعيل فى يونيه سنة ١٨٧٩

وتجد بالصفحة الآتية خريطة رأس جردفون وموقع الفنار الذى كان مزمعا انشاؤه التخوم ، القائمقام محمد مختار بك

مشروع السكة الحديدية

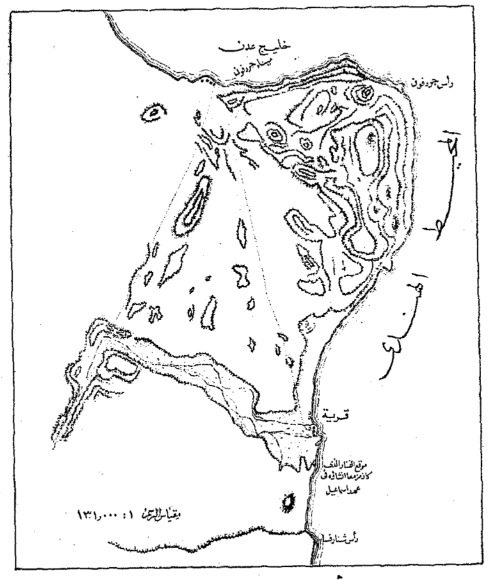
وعهد الخديوى اسماعيل الى جماعة من المهندسين تخطيط السكة الحديدية التى تصل السودان بمصر

وشرع فى مد الخط الحديدى على طول النيل من وادى حلفا الى (حنك) ، وأنفق فى ذلك نحو ٤٠٠ الف جنيه ، ومُدّ من الخط نحو ٥٧ كيلو مترا فقط من وادى حلفا ، ومهد الطريق على بعد ٤٧ كيلو مترا أخرى ، ثم وقف العمل سنة ١٨٧٨ بسبب ارتباك الحكومة المالى

---

(١) شيلو بك ص ١٧١

(٢) انظر مجلة الجمعية الجغرافية مجموعة ١ عدد ٩ (اغسطس — نوفمبر سنة ١٨٨٠) ص ٢٩



رأس جردفون (جردفوي)

وكان من أملاك مصر على المحيط الهندي في عهد الخديوي اسماعيل ، وترى موقع الفنار الذي اعتزم اسماعيل باشا انشاءه سنة ١٨٧٧

وهذه الخريطة مصغرة عن خريطة وضعها بالفرنسية اللواء محمد مختار باشا ونشرت فى مجلة الجمعية الجغرافية سنة ١٨٨٠

المدارس

وأنشئت بعض المدارس لتهذيب الأهلين وتثقيفهم ، وعُهد بالتدريس فيها الى المتخرجين من مدرسة الخرطوم التى أنشئت فى عهد عباس الأول

وقد رأينا فى (الوقائع المصرية)(١) وصف احتفال فخم اقامته مدرسة (بربر) .

---

(١) العدد ٦١١ — ٢٠ يونيه سنة ١٨٧٥

الابتدائية ، لمناسبة امتحانها النهائى ، أنشد فيه نجباء التلاميذ القصائد المنظومة ، وتم الاحتفال على نظام الحفلات المدرسية فى عهد اسماعيل

وانشأ امين بك (باشا) فى اللادو عاصمة مديرية خط الاستواء مدرسة لتعليم أبناء الاهلين ومستشفى ومسجدا (١)

التجارة

بسط الحكم المصرى رواق الأمن فى السودان ، فنشطت حركة التجارة فى بلدانه ، واتسع نطاق المواصلات التجارية بينه وبين مصر ، وانشئت فيه بيوت تجارية كبيرة تتولى اصدار متاجر السودان الى مصر واوروبا وتجلب الى السودان واردات اوروبا ومصر ، وقد أثرت هذه البيوت ، وصار لها شأن يذكر ، واكبرها بيت السيد احمد العقاد ، وبيت على ابى عمورى ، وفرج الله الموصلى ، والخواجه غطاس ، وجيليو ، وامبرواز وغيرهم ، وقد مد هؤلاء تجارتهم الى أقاصى السودان ، وصار لكل منهم قوة مسلحة من السودانيين ، واماكن للتجارة فى مختلف الجهات تسمى « مشارع » ، يقيمونها على شكل مربع من عروق الاشجار ، ويقيم التاجر أو وكيله فيها بحراسة رجاله المسلحين ، ولهؤلاء الحراس مهمة أخرى ، وهى اقتناص الرقيق للاتجار بهم فى أسواق مصر ، وقد درَّت عليهم تجارة الرقيق ثروات كبيرة لما فيها من الارباح الطائلة ، ومما يدل على اتساع نفوذ هذه البيوت التجارية ان (الزبير باشا) الذى صار له شأن كبير فى السودان كان فى بداية أمره وكيلا لبيت على ابى عمورى

ولما اعتزم الخديوى اسماعيل منع تجارة الرقيق عهد الى ولاة السودان الاتفاق مع أصحاب «المشارع» على أن يتخلوا عنها للحكومة مقابل تعويضات تدفع اليهم

وكانت هذه البيوت تتولى اصدار متاجر السودان ، كالعاج ، وريش النعام ، والتبر ، والصمغ ، والجلود ، والغنم والمواشى ، والتمر الهندى ، والبن ، والكحل وقرن الخرتيت وما الى ذلك

---

(١) مجلة الجمعية الجغرافية عدد فبراير سنة ١٨٨١ ص ٣٢

وظلت التجارة مزدهرة فى ظل الحكم المصرى ، و بلغ عدد البيوت التجارية المملوكة للمصريين فى السودان ثلاثة آلاف بيت ، والمملوكة للاورو بيين الف بيت ، و بلغت واردات السودان فى السنة مليونين من الجنيهات وصادراته نحو أحد عشر مليونا ونصف مليون من الجنيهات (١)

البريد

عهد الخديوى اسماعيل الى موتشى بك مدير مصلحة البريد المصرية انشاء مكاتب منتظمة للبريد فى عواصم السودان ، فصدع بالأمر وأنشأ بها عدة مكاتب ، وأنشئت ادارة للبريد فى الخرطوم سنة ١٨٧٣ احتفل بافتتاحها احتفالا فخما (٢)

وأنشئت مكاتب منتظمة للبريد فى الخرطوم ، ودنقله ، و بربر ، وكسلا ، وفتحت أيضاً مكاتب أخرى فى سنار ، والمسلمية ، والقضارف ، وفازوغلى ، وكرجوع وفاشوده ، والابيض ، والفاشر ، و بقيت هذه المكاتب تؤدى مهمتها ، الى أن تعطلت بعد شبوب الثورة المهدية سنة ١٨٨٣ ، وظل مكتب الخرطوم مفتوحا الى أن سقطت المدينة فى أيدى الثوار سنة ١٨٨٥

التلغرافات

بلغت الخطوط التلغرافية التى أنشئت فى السودان لغاية سنة ١٨٧٠ ، ٢١١٠ كيلو متر ، و بلغ عدد مكاتب التلغراف فى مدن السودان ٢١ مكتبا ، وذلك سنة ١٨٧٧

وهاك بيان الخطوط التلغرافية والمدن التى وصلت بينها (٣)

---

(١) عن بيان قدمه التجار الوطنيون والاجانب في مصر احتجاجا على اخلاء السودان سنة ١٨٨٤ اوضحوا فيه ان اخلاءه يؤدى الى بوار متاجرهم فيه (كوشري — المركز الدولى لمصر والسودان ص ٢٨٦)

(٢) الوقائع المصرية العدد ٥٤٨ (١٠ مارس سنة ١٨٧٤)

(٣) تقرير الكولونل ستوارت عن السودان المنشور فى الكتاب الازرق الانجليزى Blue Book عن مصر سنة ١٨٨٣ ج ١١ ص ٨

(١) مصر ــ دنقله ــ بربر ــ الخرطوم
(٢) الخرطوم ــ ابو قراد ــ الابيض ــ فوجه
(٣) الخرطوم ــ ابو حراز ــ المسلمية ــ سنار ، فازوغلى
(٤) المسلمية ــ الكوه
(٥) ابو حراز ــ القضارف ــ كسله ــ سنهيت ــ مصوع
(٦) كسله — قوز رجب (على نهر عطبره) ــ بربر
(٧) سواكن ــ كسله
(٨) القضارف ــ دوكه (جنوبى القضارف) ــ القلابات
(٩) القضارف ــ الجيرة (بالقرب من حدود الحبشة)

وكان مركز هذه الخطوط فى الخرطوم وقد ظلت قائمة الى أن عطلت فى عهد الثورة المهدية

ميزانية السودان

ذكر غردون باشا فى رسائله (ص ٢٨١) ان ميزانية السودان سنة ١٨٧٨ ، تتألف من الأرقام الآتية

٣٢٧ر٠٠٠ جنيه دين السودان
٥٧٩ر٠٠٠ « ايرادات الحكومة
٦٥١ر٠٠٠ « مصروفاتها
٠٧٢ر٠٠٠ « العجز

الرحلات والبعثات الجغرافية

ان بسط سيادة مصر وسلطانها على وادى النيل قد مهد الطريق للاكتشافات والتحقيقات الجغرافية والعلمية فى أرجاء السودان ، فحفل عصر اسماعيل بالبعثات والحملات التى أنفذها الخديوى لهذا الغرض على نفقة الحكومة المصرية ، وقوامها ضباط أركان حرب الجيش المصرى ، فكان لهم الفضل الكبير فى مد رواق الحكم المصرى ، ونشر لواء الحضارة فى السودان ، ولهم فضل لاينكر فى تقدم علم الجغرافيا والاكتشافات ، بما أضافوا اليها من الحقائق الهامة ، والبيانات المبتكرة ، والخرائط والرسوم الدقيقة

وانا ذاكرون بالفخر والاعجاب موجز أعمال هذه البعثات والحملات المصرية ، وما وصلت اليه من الاكتشافات الجغرافية

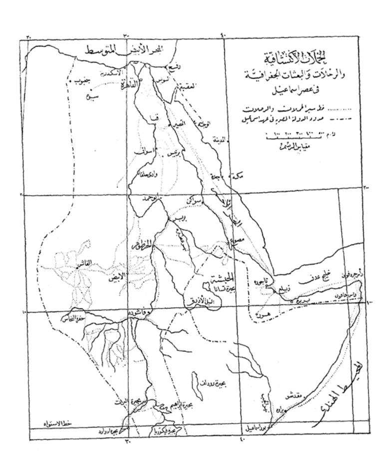
فأول هذه البعثات حملة صمويل بيكر باشا الى منابع النيل وقد أسلفنا الكلام عنها

وفى سنة ١٨٧١ قامت بعثة برآسة الميرالاى (بوردى بك) Purdy أحد ضباط أركان حرب الامريكان فى الجيش المصرى ومعه طائفة من الضباط المصريين ، فجابوا الجهات الواقعة بين النيل والبحر الاحمر ، من القاهرة والسويس شمالا ، الى قنا والقصير جنوباً ، واكتشفوا طرق المواصلات ومناجم المعادن والمحاجر فى تلك الجهات

وفى سنة ١٨٧٣ سار الميرالاى بوردى بك بحراً الى موقع برنيس (برنيقه) القديمة على البحر الاحمر (غربى رأس بناس) ولحقه بها الميرالاى كولستن Colston أحد الضباط الامريكان فى الجيش المصرى من طريق قنا براً ، وخططا الجهات المقفرة الواقعة بين برنيس و (بربر) على النيل وقضيا فى هذه المهمة نيفا وسبعة أشهر (١)

---

(١) راجع تقرير الميرالاي بوردى عن هذه الرحلة فى مجلة الجمعية الجغرافية


الحملات الاكتشافية
والرحلات والبعثات الجغرافية
في عصر اسماعيل
خط سير الحملات والرحلات
حدود الدولة المصرية في عهد اسماعيل
مقياس الرسم
البحر الأبيض المتوسط
الاسكندرية
القاهرة
جغبوب
سيوة
السويس
العقبة
قنا
القصير
أسوان
برنيس
وادي حلفا
المدينة
مكة
جدة
أبو حمد
سواكن
بربر
الخرطوم
مصوع
الفاشر
الأبيض
الحبشة
بحيرة تانا
النيل الأزرق
فاشودة
حفرة النحاس
تاجورة
زيلع
خليج عدن
بربرة
هرر
بحيرة رودلف
مقدشو
المحيط الهندي
بحيرة البرت
بحيرة فكتوريا
خط الاستواء

مقابل ص ١٧٦

وفى سنة ١٨٧٤ اكتشف الميرالاى شايى لونج بك Chaillé Long bey بحيرة ابراهيم كما بيناه فى موضعه ، واكتشف معظم مجرى النيل المعروف بنيل فيكتوريا ، وحقق نقطة كانت غامضة وهى أن نيل فيكتوريا يصب فى بحيرة البرت ، ورسم الطريق بين اللادو ومكركه جنوبى بحر الغزال

وبعد أن تم فتح دارفور سنة ١٨٧٤ انفذ الخديوى ثلاث بعثات كبرى مؤلفة من ضباط أركان الحرب لاكتشاف جهات كردفان ودارفور

الاولى برآسة الميرالاى بوردى بك ، ومن أعضائها القائمقام ميزون بك Mason ، من الضباط الامريكان فى الجيش المصرى ، والملازمون محمود افندى صبرى (باشا) ، ومحمد افندى سامى ، وسعيد افندى نصر (باشا) ، وخليل افندى حلمى ، والدكتور محمد افندى امين ، ومهمتها اكتشاف جهات دارفور ، فكشفت المواقع وطرق المواصلات بين النيل و (حفرة النحاس) باقصى حدود دارفور جنوبا بغرب (١) ، وجابت أرجاء هذا الاقليم العظيم ، وكشفت من الطرق ماطوله ٦٥٠٠ ميل ، وحققت ٢٢ موقعا من المواقع الفلكية ، ورسمت خريطة دقيقة لهذه البلاد

والبعثة الثانية برآسة الميرالاى كلستون ، ومن أعضائها الصاغ احمد افندى حمدى (باشا) ، والميرلاى بروت Prout من الضباط الامريكان فى الجيش المصرى ، والملازمون عمر افندى رشدى (باشا) ، ومحمد افندى ماهر (باشا) ، و يوسف افندى حلمى ، وخليل افندى فوزى ، والدكتور بفوند Pfund العالم الطبيعى ، وقد اكتشفت جهات كردفان ، وحققت مواقعها ومدنها وطرق المواصلات فيها ،

مجموعة ثمرة ٢ عدد ٨ ص ٤٣١ ، وتقرير الميرلاي كولستن بالمجلة المذكورة مجموعة ثمرة ٢ عدد ٩ (اغسطس سنة ١٨٨٦) ص ٤٨٩ ، وبحث الاستاذ كورا عن رحلة كولستن من قنا الى برنيس وخريطة الرحلة فى مجلة الجمعية مجموعة ٣ عدد ٧ (سبتمبر سنة ١٨٩١) ص ٥٣٣

(١) راجع بحث الميرلاى (اللواء) بوردي باشا عن هذه البعثة بمجلة الجمعية الجغرافية مجموعة ١ عدد ٨ (مايو سنة ١٨٨٠) ص ٥ والخريطة الملحقة بهذا العدد

ورسمت خريطة دقيقة عنها ، ومرض رئيس هذه البعثة خلال الرحلة فتولى الرآسة بدله الميرالاى بروت

وقضى أعضاء البعثتين ثلاث سنوات يقطعون المراحل ويطوون الفدافد ويستهدفون للمتاعب المضنية فى سبيل الاضطلاع بمهمتهم

والبعثة الثالثة برآسة المهندس الامريكى متشل Michel' (١) يصحبه الضابط عبد الفتاح افندى فتحى لاكتشاف المعادن بين النيل والبحر الاحمر ، وقد كشفت هذه البعثة مناجم للذهب فى (الحمامة) شمالى قنا ، ثم عرجت بثغور البحر الاحمر وخليج عدن ، كالقصير ، ومصوع ، وتاجوره ، وزيلع ، وأوغلت فى الداخل ، ثم عادت الى مصوع وكشفت الجهات الشرقية من الحبشة

ورسم ارنست لينان دى بلفون (ابن لينان باشا) الطريق بين غندكرو ودوباجا عاصمة أوغنده ، وقد قتل وهو عائد من مهمته ، ومن بياناته وضع العلامة جورج شونفرت خريطته عن تلك الجهات

ورسم البكباشى محمد افندى عزت أحد ضباط حملة منزنجر باشا خريطة الجهات الواقعة بين تاجوره وبحيرة (اوسا) بالحبشة

ورسم محمد مختار بك (باشا) وعبد الله بك فوزى (باشا) خريطة بلاد هرر ، ورسم الاول خريطة المدينة ، ووضع خريطة أخرى لرأس جردفون(٢) (جردفوى) وموقع الفنار الذى أزمع اسماعيل انشاءه فى تلك الجهة كما تقدم بيانه

ورسم ضباط أركان حرب نادى باشا الجهات الواقعة بين هرر وزيلع

ووضع القائمقام عبد الرزاق بك نظمى خريطة بربره وملحقاتها

وكشفت حملة السومال التى أنفذها اسماعيل سنة ١٨٧٥ سواحل البنادر

---

(١) عالم فى طبقات الارض ومهندس مناجم وكان ملحقا بقسم اركان حرب الجيش المصري ، وتجد تقريره عن هذه البعثة فى مجلة الجمعية الجغرافية الخديوية مجموعة ١ عدد ٦ « اكتوبر سنة ١٨٧٩ » ص ٧ و ١٥

(٢) الاسم الصحيح (جردرفون) كما حققه العلامة أحمد زكى باشا

الواقعة على المحيط الهندى وجهات قسمايو (بور اسماعيل) ونهر الجوبا ، وهى الجهات التى قصدت اليها الحملة كما فصلناه فى موضعه

وفى سنة ١٨٧٧ جاب الميرالاى ميزون بك Mason بحيرة (البرت) وأتم الاكتشاف الذى بدأه فيها السير صمويل بيكر ووضع لها خريطة دقيقة (١)

وأنفذ الخديوى سنة ١٨٧٧ بعثة برآسة المستر برتون لاكتشاف المعادن التى بجهات (مدين) بجزيرة العرب

وحقق ضباط أركان الحرب برآسة البكباشى عبد الله بك فوزى (باشا) حدود الحبشة الشمالية والطرق بين مصوع والخرطوم ورسموا خريطتها

وحقق جيشى باشا مواقع بحر الغزال

وجاب الميرلاى محمد مختار بك (باشا) نواحى السودان الشرقى حين كان رئيسا لاركان حرب السودان سنة ١٨٨٠ يصحبه من ضباط أركان الحرب خليل بك فوزى والملازمان محمد خير الله وعلى خيرى ، وله مبحث مسهب فى تخطيط ابو حراز ، والقضارف (ابوسن) ، والقلابات ، وطومات ، واميديب وغيرها من مدن السودان الشرقى (٢)

واكتشف امين باشا مدير خط الاستواء نهر السمليكى الواصل بين بحيرة ادوارد وبحيرة البرت

ورسم ضباط أركان الحرب الجيش المصرى سنة ١٨٧٧ خريطة مفصلة لافريقية ، وهى أدق خريطة عرفت الى ذلك الحين ، اشترك فى رسمها كل من الميرالاى لوكت Lochett ، والقائمقام محمد مختار بك (باشا) ، والصاغ عبد الله بك فوزى ، وعبد الرزاق بك نظمى ، والضباط محمود صبرى (باشا) ، واحمد فائق (باشا) ، ومصطفى كامل ، واحمد فهمى ، وحسن حارس (باشا) ، وحسن صفوت ،

---

(١) مجلة الجمعية الجغرافية مجموعة ١ عدد ٥ ـ « مايو سنة ١٨٧٧ — فبراير سنة ١٨٧٨ » ص ٥

(٢) مجلة الجمعية الجغرافية مجموعة ١ عدد ١١ ـ « فبراير سنة ١٨٨١ » ص ٥

وابراهيم حلمى ، ومحمد جودت ، ومحمد خير الله ، ويوسف ضيا (باشا) وعلى حيدر (باشا) ، واحمد رشيد

وهذه الخريطة مودعة ضمن محفوظات الجمعية الجغرافية الملكية

ذكر الجنرال استون باشا رئيس أركان حرب الجيش المصرى فى عهد اسماعيل أن الجهات التى جابها ضباط أركان الحرب وحققوها ، ورسموا مواقعها ، تبلغ فى اتساع مداها مجموع مساحة فرنسا والمانيا والنمسا والمجر [1] بحدودها القديمة ، وهذا يدلك على عظم الاكتشافات والتحقيقات التى تمت على أيديهم

وقد ضاع كثير من مباحث هذه البعثات ، لان الاحتلال الانجليزى تعمد أن يبدد أعمالها وخرائطها ومجاميعها النفيسة ، وذلك لكى يقطع الصلة بين جيشنا القديم المجيد والجيش الذى ألفه الانجليز بعد الاحتلال ، على أن المباحث الباقية لاعضاء هذه البعثات تسجل لضباط الجيش المصرى أجل الخدمات للعلم والحضارة والعمران ، فان الاكتشافات والحملات البعيدة المدى التى اضطلعوا بها جديرة بأن تعد من مفاخر تاريخنا القومى ، ومن الصفحات المشرفة فى تاريخ الجيش المصرى والضباط المصريين

---

(١) الرحلات المصرية في افريقية للجنرال استون باشا ـ مجلة الجمعية الجغرافية مجموعة ٢ عدد ٧ ـ (مايو سنة ١٨٨٥) ص ٣٤٣

الحكم المصرى فى السودان

وشهادة الثقات من الاجانب

ذكرنا بالجزء الثالث من تاريخ الحركة القومية (ص ١٨٣) اقوال الثقات من الاجانب فيما بلغه السودان من العمران على عهد محمد على

والآن نذكر ما شهدوا به عن عمران السودان على عهد خلفائه وخاصة فى عصر اسماعيل

قال السير صمويل بيكر سنة ١٨٧٣ فى كتابه (الاسماعيلية) « ان مصر وحدها هى التى تستطيع تمدين أفريقية النيلية بانشاء حكومة نظامية ، وحسبها أن تمد حدودها الى خط الاستواء ، وبذلك تضمن حياة السائحين فى تلك الاقطار ، واليوم قد أصبح امتداد حدودها الجنوبية الى خط الاستواء أمراً واقعا ، فانفتحت أفريقية الوسطى للحضارة والعمران » (١)

وقال المسيو سوتزارا Suzzara قنصل النمسا فى مصر على عهد اسماعيل : «اذا علمنا ما كانت عليه الشعوب فى تلك الاقطار من الهمجية ، وجب علينا أن نعد خضوعها لسلطة الخديوى تدرجا نحو التقدم ، فان هذه الشعوب أخذت تألف الادارة المنتظمة القائمة على قواعد الاستقرار والنظام ، ومن جهة أخرى فان الاقطار السودانية التى كانت مقفلة قد فتحت للتجارة والرحلات ، مما مهد السبيل لدخول الحضارة اليها » (٢)

وقال رودلف سلاطين (باشا) فى كتابه (النار والسيف فى السودان) الذى وضعه سنة ١٨٩٥ عقب خلاصه من أسر التعايشى (٣) : —

(١) الاسماعيلية للسير صمويل بيكر ص ٤١٢

(٢) تقرير سوتزارا المنشور في مجلة مصر Revue d'Egypte للمسيو جالياردو بك عدد مارس سنة ١٨٩٦ ص ٦٢٩

(٣) النار والسيف في السودان . النسخة الفرنسية ج ٢ ص ٨١٤ وما بعدها

«ان السودان المصرى يحكمه الآن (سنة ١٨٩٥) الخليفة عبد الله التعايشى ، الرئيس المستبد لدعاة المهدى ، وقد كانت السنوات العشر من حكم المهديين كافية لنشر العبودية فى نواحيه ، ومن الحق أن نقول أن السودان ظل سبعين سنة ونيفا ، منذ عهد محمد على ، مستظلا بالحكم المصرى ، مفتوحاللحضارةوالمدنية ، والمتاجر المصرية والاوروبية تزدهر فى عواصمه ، والدول الاجنبية توفد قناصلها الى الخرطوم ، والسائحون على اختلاف أجناسهم يجوبون خلال البلاد ، دون أن يلقوا ممانعة ، بل كانوا يلقون عطفا ورعاية من ولاة الامور ، وانتظمت طرق المواصلات والتلغرافات وادارة البريد ، فسهلت الاتصال بين أرجاء السودان القاصية ، وأدى الناس الشعائر الدينية بملء الحرية سواء فى المساجد أو الكنائس ، وقامت مدارس البعثات الى جانب مدارس الحكومة ، وعلى الرغم من تعدد القبائل التى تسكن السودان وما كان بينها من العداء ، وتحفزها للاقتتال ، فان حزم الحكومة وسطوتها كانا كافيين لتوطيد دعائم الامن والسلام فى مختلف أصقاعه »

وقال فى موضع آخر يصف تبدل الحال بعد غلبة الثورة المهدية

« لقد شهدنا فى السودان منظراً محزناً ، إذ رأينا الحضارة الجديدة التى دخلته مع الحكم المصرى تتداعى أركانها وينداك صرحها بأيدى أقوام جهلاء يكادون يكونون من الهمج ، فأسسوا على انقاض هذه الحضارة حكومة وضعوا لها نظاما يشبه فى بعض أشكاله نظم الحكم المصرى ، ولكنهم قضوا على ما ازدان به من العدل والتهذيب ، فأقاموا فى السودان صرح الظلم والانحطاط ، ولا يكاد المرء يشهد فى التاريخ الحديث بلاداً أخرى سادت فيها الحضارة الناشئة زهاء نصف قرن من الزمان ، ثم انقلبت الى حلة أقرب ما تكون الى الهمجية ، فان الخليفة والقبائل التى تناصره ، بعد أن اغتصبوا سلطة الحكم وانتزعوها من أيدى المصريين ، يحكمون الآن الاهلين التعساء حكما جائرا ، ويسوقونهم بعصا من حديد، ويسومونهم من الخسف والنكال ما جعلهم يتوقون الى التخلص من هذه الدولة ويتطلعون الى حكومة يجدون فى ظلها الراحة والسلام ، وليس أدل على مبلغ ما عاناه السودان فى

عهد المهديين أكثر من فناء مايقرب من ثلاثة أرباع أهله ، ممن اجتاحتهم الحروب والمجاعات ، والأمراض المختلفة ، والتقتيل والتنكيل »

وقال فى موضع آخر « لقد بعد العهد بحالة السودان تحت حكم اسماعيل ، إذ كانت الحكومة المصرية تحمل فى ربوعه لواء الحضارة والمدنيـة ، على حين كانت البقاع الخارجة عن منطقة النفوذ المصرى فى حالة الانحطاط والتأخر ، فالسودان بعد ان دخلته الحضارة فى ظل الحكم المصرى قد تطرقت اليه الهمجية على عهد المهديين »

وقال ما يأتى عن ارتباط السودان بمصر ، مما يجدر بنا ان نذكره على الدوام ونتخذه عبرة وعظة لنا وقاعدة لاتتبدل لسياستنا فى السودان :

« أرى واجبا علىَّ أن أبين وجهة نظرى فى أهمية السودان وقيمته لمصر ، وأبدى الرأى الذى ثبت فى قرارة نفسى فأقول ؛ ان الأسباب التى دعت محمد على منذ خمس وسبعين سنة الى امتلاك السودان لاتزال قائمة الى اليوم ، فالسودان هو مصدر الحياة لمصر ، وكل جهودها يجب أن تتجه الى صيانة وادى النيل من أية غارة أجنبية ، فان كل خطوة تخطوها دولة أخرى نحو النيل ينظر اليها بعين الفزع من كل من يقدر خطر السيطرة الاجنبية على ذلك النهر العظيم وماتجره من تضحية سعادة مصر وتقدمها وتعريضها لأعظم المضار »

حدود السودان المصرى

أمس واليوم

اكتمل الفتح المصرى فى السودان وبلغت الدولة المصرية حدودها الطبيعية على عهد اسماعيل ، فشملت جنوباً بحيرة البرت وبحيرة فيكتوريا والبلاد التى بينهما إذ ضمت مملكة أونيورو وبسطت حمايتها على مملكة اوغنده ، وبلغت شرقاً سواحل البحر الاحمر وخليج عدن ووصلت حدودها الجنوبية الشرقية الى المحيط الهندى ، وضمت اليها فى هذه النواحى سواكن ومصوع وزيلع وبربره وهرر

وسواحل السومال الشمالية ، وصارت جميع شواطىء البحر الاحمر الغربية من السويس شمالا الى بوغاز باب المندب جنوبا ملكا لمصر ، وامتدت سلطتها الى شواطىء خليج عدن ، من بوغاز باب المندب الى رأس جردفون (جردفوى) ثم الى رأس حفون الواقعين على المحيط الهندى و بلغت حدود الدولة المصرية غربا الى مملكة واداى الواقعة غربى دارفور

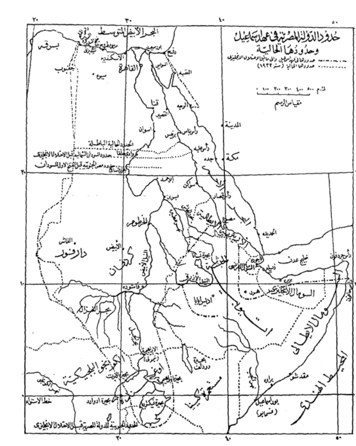
واليك ماذكره الكولونل ستوارت Stewart عن حدود السودان المصرى سنة ١٨٨٢ ؛ فى تقريره الذى قدمه الى البرلمان البريطانى سنة ١٨٨٣ (بعد الاحتلال الانجليزى) ، وهو يقرب من التحديد الذى ذكرناه قال :

« تبدأ حدود السودان المصرى من ضواحى برنيس على البحر الاحمر (صح من رأس علبه) ، وتتبع الخط ٢٤ من خطوط العرض الشمالى الى نقطة غير معينة فى جوف الصحراء اللوبية ، بالقرب من الخط ٢٨ من خطوط الطول ، ومن هناك يتجه الحد جنوبا بغرب ، حتى يلتقى بالركن الشمالى الغربى من دارفور حيث الخط ٢٣ من خطوط الطول ، ثم يتجه جنوبا حتى يصل الى ما بين الخط ١١ — ١٢ من خطوط العرض ، ثم جنوبا بشرق ماراً بمونبوتو و بحيرة البرت الى أن يتصل ببحيرة فيكتوريا ، ومن هناك يصعد شمالا بشرق و يشمل اقليم هرر ، ثم يصل الى شواطىء المحيط الهندى عند رأس جردفون (جردفوى) ، ومن ثم يعود محاذيا الشاطىء حتى يصل الى برنيس » (١)

ومعنى ذلك ان جميع سواحل البحر الاحمر الغربية وسواحل السومال الشمالية الواقعة على خليج عدن كانت من أملاك مصر ، وقد الحق الكولونل ستوارت بتقريره خريطة مسداليا بك (مدير دارفور) عن السودان بهذه الحدود وهى منشورة فى الكتاب الازرق المتقدم ذكره ص ٣٨

وغير خاف أن هذه الحدود قد تراجعت بعد الثورة المهدية والاحتلال الانجليزى ، اذ تواطأت انجلترا مع الدول الأخرى على انتقاص مصر من أطرافها

(١) الكتاب الازرق الانجليزى عن مصر سنة ١٨٨٣ ج ١١ ص ٦



حدود الدولة المصرية في عهد اسماعيل
وحدودها الحالية
حدودها في عهد اسماعيل والى ما قبل الاحتلال الانجليزي
حدودها الحالية (سنة ١٩٣٢)
مقياس الرسم
البحر الأبيض المتوسط
برقه
جغبوب
سيوه
الاسكندرية
القاهرة
بورسعيد
السويس
العقبة
الوجه
المدينة
قنا
القصير
اسوان
برنيس
مكة
جده
سواكن
الخرطوم
مصوع
الحديده
خليج عدن
زيلع
هرر
الفاشر
الأبيض
دارفور
كردفان
فاشوده
بحر الغزال
النيل الأزرق
الحبشة
اديس ابابا
السومال الانجليزي
السومال الايطالي
مقدشو
براوه
المحيط الهندي
خط الاستواء
بحيرة فكتوريا
بحيرة ادوارد

مقابل ص ١٨٤

فاحتلت انجلترا أوغنده وأونيورو ومنطقة البحيرات والجزء الجنوبى كله من مديرية خط الاستواء ، وصار الحد الجنوبى للسودان ينتهى الآن عند نيمولى (الابرهيمية) بعد أن كان يشمل بحيرة فيكتوريا وبحيرة البرت ، واغتصبت انجلترا أيضا محافظتى زيلع وبربره ، وأخذت ايطاليا مصوع والاريتريه ورأس جردفون (جردفوى) ، وفرنسا تاجوره وجيبوتى ، والحبشة بلاد هرر وبنى شنقول من أعمال فازوغلى

ولم تكتف انجلترا بالتآمر على اقتسام أسلاب الامبراطورية الافريقية العظيمة التى أسستها مصر بدمائها وأموالها وجهودها ، بل شاركت مصر فى سيادتها على السودان باتفاق ١٩ يناير سنة ١٨٩٩ ، ذلك الاتفاق الباطل الذى جعل السودان شركة بين مصر وانجلترا ، واتخذته هذه سبيلا الى الانفراد بحكم السودان ، واقصاء نفوذ مصر الشرعى عن بلاد فتحتها منذ مائة سنة ونيف ونشرت فيها لواء الامن والحضارة والعمران ، وبذلت فيها مابذلت من الجهود والارواح والضحايا والاموال

وتراجع الحد بين مصر والسودان ، فصار ينتهى عند الخط ٢٢ من خطوط العرض وأصبح حد السودان الشمالى يبدأ عند (فرص) شمالى وادى حلفا ، بعد أن كان الحد الجنوبى لمصر قبل الفتح الاول للسودان (فى عهد محمد على) يصل الى جزيرة (ساى) جنوبى وادى حلفا ، وكان ينتهى قبل الاحتلال الانجليزى عند (سرس) جنوبى وادى حلفا أيضاً

وصارت سواكن ، ووادى حلفا وما يليها جنوباً ، تابعة لادارة السودان المشتركة بمقتضى الاتفاق الباطل المبرم فى ١٩ يناير سنة ١٨٩٩

الفصل السادس

الجيش

خلاصة تاريخ الجيش فى عهد اسماعيل انه عنى بترقيته وتنظيمه ومضاعفة قوته ، والوصول به الى مستوى الجيوش الكبيرة للامم الحديثة ، وعنى أيضا بنهضة التعليم الحربى ، فأنشأ المدارس الحربية على أرقى طراز حديث ، واختار لها أكفأ المدرسين والضباط ، وأحسن المناهج الدراسية ، فكان التقدم فى نظام الجيش يسير مطرداً مع تجديد التعليم فى المدارس الحربية

ولكنه فى السنوات الأخيرة من حكمه اهمل شؤون الجيش جملة واحدة ، فاختل نظامه ، ثم أقفل معظم المدارس الحربية التى أنشأها ، وذلك لنضوب معين المال ، وارتباك أحوال الحكومة بسبب فداحة الديون التى اقترضها من غير حساب ، بحيث لم ينته عهده حتى كان الجيش المصرى قد وصل الى درجة محزنة من الضعف والارتباك

تلك كلمة اجمالية عن حالة الجيش والمدارس الحربية فى عصر اسماعيل ، فالشطر الأول من ذلك العصر هو دور التقدم ، والشطر الثانى يمثل عهد التأخر والاضمحلال

ففى الشطر الأول بذل الخديوى جهوداً كبرى فى تنظيم الجيش ، وأرسل الى فرنسا بعثة حربية تتألف من خمسة عشر ضابطا من خيرة ضباط الجيش (١)

---

(١) ذكرهم اسماعيل باشا سرهنك فى كتابه ج ٢ ص ٣٠٧ وهم شاهين باشا . ابراهيم باشا السوارى . على بك رضا الطوبجى . على بك وهبي . يوسف بك صديق محمد بك رضا . محمود بك سامى . اسماعيل بك أيوب . عبد القادر بك حلمى . مصطفى بك فهمى . عثمان بك غالب . احمد افندى حمدى . حسن افندي مظهر . محمد افندى

ليقضوا زمناً فى مشاهدة نظام الجيش الفرنسى ، واقتباس خبرة قواده وضباطه ، فأبحرت هذه البعثة على ظهر السفينة الحربية المصرية « شبرجهاد » وأقلتهم الى فرنسا ، فاستقبلتهم الحكومة الفرنسية بالحفاوة ، ودرسوا النظم العسكرية الفرنسية والاستحكامات والمناورات العمومية ، وغير ذلك من فنون الحرب والقتال ، وجمعوا طائفة من المؤلفات الحربية المشتملة على أساليب الجيش الفرنسى ونظاماته ، وعادوا بها ليطبقوها فى مصر ، وأخذ الخديوى اسماعيل فى تنظيم الجيش على نظام الجيش الفرنسى الحديث

ولم يكتف بذلك بل أحضر من فرنسا بعثة حربية مؤلفة من بعض الضباط الفرنسيين لتنظيم المدارس الحربية المصرية ، فجاءت هذه البعثة الى مصر سنة ١٨٦٤ برآسة الكولونل مرشير (بك) Mircher ومعه ثلاثة ضباط آخرون وهم رباتيل Rebatel ، ولارمى (باشا) Larmée ، وبولار Polard ، وألحق بهم الضابط دوبرناردى بك الذى كان يخدم الحكومة من عهد سعيد باشا ، فتولى هؤلاء الضباط نظارة بعض المدارس الحربية ونظموا شؤونها

ولما شرع اسماعيل فى تنظيم التعليم الحربى نقل المدرسة الحربية التى كانت بالقناطر الخيرية الى قصر النيل ثم الى العباسية ، وانشأ بهذه الجهة عدة مدارس حربية أخرى بدل المدارس التى انشئت فى عهد محمد على وعفا أثرها ، واختار جهة العباسية لقربها من الصحراء حيث يسهل على التلاميذ القيام بالتمرينات الحربية وضرب النار ، ولانه كان بها السراى الفخمة التى انشأها عباس باشا الاول ، وتقدم الكلام عنها ، والمبانى الملحقة بها ، وكانت تصلح مقراً للمدارس والمعاهد والشكنات

وجعل لهذه المدارس ادارة واحدة تدعى « ادارة المدارس الحربية »

وفيما يلى بيان المدارس الحربية التى أنشأها الخديوى بالعباسية فى أوائل حكمه

١ — مدرسة البيادة (المشاة) أنشأها سنة ١٨٦٤ ، وكان عدد تلاميذها حين تأسيسها ٤٩٠ تلميذ ، وتولى نظارتها محمد امين بك ، ثم دى برناردى بك ، ثم

منصور افندى حسن ، ثم محمد رعنا افندى ، ثم جعل لها مديرى ادارة وهم على التعاقب محمد كامل افندى ، ثم ابراهيم عاصم افندى ، ثم محمد صالح افندى

٢ — مدرسة السوارى (الفرسان) ، أنشئت سنة ١٨٦٥ وعدد تلاميذها ١٦١ تلميذ ، وتولى نظارتها الضابط الفرنسى بولاز ثم ياور بك

٣ — مدرسة الطوبجية (المدفعية) والهندسة الحربيـة ، انشئت سنة ١٨٦٥ وعدد تلاميذها ٢٨٠ تلميذ ، وتولى نظارتها الكولونل لارمى (باشا) ، وكان تلاميذها ينتخبون من بين طلبة مدرسـة المهندسخانة ، بهـذا يدلك على رقى المستوى العلمى لتلاميذها وخريجيها ، فلا غرو ان نبغ فيهـا وفى مدرسة أركان الحرب طائفة من اكفأ الضباط المصريين

٤ — مدرسة أركان الحرب بالعباسية ، أنشئت سنة ١٨٦٥ ، وتولى نظارتها الكولونل مرشير بك ، ثم شحاته عيسى بك أحد خريجى بعثات محمـد على ، ثم رباتيل بك ، ثم عاد الى نظارتهـا مرشير بك ، ثم لارمى باشا ، ويختار تلاميذها من نوابغ طلبة المدارس الحربية أو المهندسخانة ، وتعد هى ومدرسة الطوبجية من أرقى المدارس العالية التى أسسها الخديوى اسماعيل

٥ — مدرسة الخطرية بالقلعة ، أنشئت سـنة ١٨٧٤ ، وهى أقل شأناً من المدارس المتقدمة ، والغرض منها تخريج صف الضباط ، وتولى نظارتها القائمقام خليل عفت بك ولم تمكث هذه المدرسة طويلا

٦ — مدرسة صف الضباط انشئت سنة ١٨٧٤

وقد خرجت هاتان المدرستان عدداً من صف الضباط الذين استخدمتهم الحكومة فى الاكتشافات الجغرافية بالسودان

٧ — مدرسة الطب البيطرى ، أنشئت سنة ١٨٦٨ ، وتولى نظارتها المسيو ليونار ووكالتها اسماعيل راضى افندى ، وأحيلت نظارتها منذ سنة ١٨٧٠ على ناظر مدرسة الفرسان (السوارى)

٨ و ٩ — مدرسة قلفاوات الشيش ، ومدرسة الجبخانجية

وقد أقفلت هـذه المدارس فى أواخر عهد اسماعيل (فبراير سنة ١٨٧٩) لارتباك شؤون الحكومة المالية ، واضطراب أحوالها الادارية والسياسية ، وأنشئت بدلها المدرسة الحربية المستجدة فى ابريل سنة ١٨٧٩ ، وعين لارمى باشا ناظراً لها ، وهى المدرسة الباقية الى اليوم

هيئة أركان حرب الجيش

عهد الخديوى اسماعيل الى طائفة من الضباط الامريكيين تأسيس هيئة أركان حرب للجيش المصرى ، فتألفت هذه الهيئة من الضباط المصريين الذين عادوا من البعثة الحربية بفرنسا ، ومن الضباط الامريكيين ، وجعل على رأسهم الكولونيل (استون) Stone ، وهو ضابط امريكى على جانب كبير من الكفاءة والخبرة ، غادر الولايات المتحدة بعد انتهاء الحرب الاهلية ، وجاء مصر وعرض خدماته على الخديوى اسماعيل فالحقه بالجيش ، وعهد اليه سنة ١٨٧٠ برآسة هيئة أركان حرب الجيش المصرى ، لما آنسه فيه من الكفاءة وانعم عليه برتبة اللواء ، فصار يعرف بالجنرال استون باشا ، واضطلع بالمهمة التى اسندت اليه ، واستعان على احياء هذه الهيئة وتنظيمها بطائفة من الضباط الوطنيين و بطائفة أخرى من الضباط الامريكان ومن الميكانيكيين والمهندسين والخبراء فى علم طبقات الارض ، وانشىء فى هـذه الهيئة قسم للجغرافية مهمته وضع الخرائط الطبوغرافية الدقيقة عن أنحاء مصر والسودان ، وتولى تخطيط هذه الخرائط ضباط أركان الحرب المصريون والضباط الامريكان ممن قاموا بالرحلات الاكتشافية التى تكلمنا عنها فى موضعها فجاءت أعمالهم غاية فى الدقة والاحكام

وانشئت مطبعة خاصة لهذه الهيئة ، لطبع رسومها وخرائطها ، ومكتبة نفيسة تحوى كتبا قيمة فى الفنون الحربية وما اليها ، والحق بها متحف حربى للاسلحة والتحف والتذكارات الخاصة بالجيش ، وتقدمت هيئة اركان الحرب تقدما مطردا

لم يوقفه سوى ارتباك الاحوال فى أواخر عهد اسماعيل ، وقيام الثورة العرابية ، ثم الاحتلال الانجليزى[١]

ولكن من الحق أن نقول أن هيئة أركان الحرب فى عهد اسماعيل كان ينقصها الاتصال المتين بالقيادة العامة للجيش ، فلم يتم التعاون بين الهيئتين ، بل دب النفور بينهما ، وأدى اليه فى الغالب صلف ضباط القيادة العامة ومعظمهم من الشراكسة الذين كان من أخص صفاتهم الزهو والخيلاء ، وقد كان هذا التنافر من أهم أسباب اخفاق الحملة المصرية فى حرب الحبشة ، كما تقدم بيانه ، وكان انفصال هيئتى أركان الحرب والقيادة العامة من العوامل التى حالت دون وحدة الجيش وافضت الى ضعفه واضمحلاله

الصحافة الحربية

وانشئت صحيفتان حربيتان لتثقيف عقول التلاميذ والضباط ، احداها تدعى (جريدة أركان حرب الجيش المصرى) ، والأخرى (الجريدة العسكرية المصرية) ، تولى تحريرها ضباط الجيش المصرى ، وقد اطلعنا فى دار الكتب الملكية على مجموعة من جريدة أركان الحرب ، وهى مجلة شهرية ، صدر العدد الاول منها فى ١٥ جمادى الاولى سنة ١٢٩٠ (١٠ يوليه سنة ١٨٧٣) ، واستمرت تصدر بانتظام عدة سنوات ، ورأينا مجموعتها كاملة لغاية اكتوبر سنة ١٨٧٨ ، وفيها مباحث قيمة للجنرال استون باشا رئيس أركان الحرب ، ولمحمد مختار افندى (باشا) ، وحماد بك عبد العاطى المدرس بالمدارس الحربية ، وعبد الرزاق نظمى (بك)، واحمد بك عزى ، وعبد الله بك فوزى من ضباط أركان الحرب وغيرهم ، وكان الشيخ حسن الطويل العالم المشهور يصحح المجلة

ورأيت فى العدد الصادر فى ١٥ شوال سنة ١٢٩١ (٢٤ نوفمبر سنة ١٨٧٤)

---

(١) غادر استون باشا مصر نهائيا سنة ١٨٨٢ حين اعتزم الانجليز وضع أيديهم على الجيش المصرى ، وتوفى فى نيويورك سنة ١٨٨٧

نبذة تاريخية عن الحملة الانجليزية على مصر سنة ١٨٠٧ وهزيمتها ، استخلص كاتبها وجه العبرة منها بقوله :

« واذا قدر الله بغزو هذه الديار مرة أخرى ، فليتذكر ضباط الجيش المصرى غزوة سنة ١٨٠٧[١] ، وليكن كل ضابط مصمما على المدافعة والذب عن وطنه ، ولا يرتكب العار فى التسليم كما ارتكبه أمين اغا ، بل يدافع بنفسه و بعساكره عن كل نقطة يتجه الهجوم اليها ، كما فعل على بك السلانيكلى الذى اكتسب الفخر والشرف ومنع العدو وصده عن الوطن فى غزو بندر رشيد رحمة الله عليه آمين [٢] » ، فهذه العبارة تدلك على الروح التى كانت تتمشى فى مباحث المجلة ، وكيف كانت تبث فى نفوس الضباط روح الواجب والقومية ، ومن المؤلم أن البلاد قد رزئت سنة ١٨٨٢ بغزوة انجليزية أخرى كغزوة سنة ١٨٠٧ ، ولكن ضباط الجيش وجنوده لم يقوموا بالواجب الذى ذكرتهم به جريدة أركان الحرب سنة ١٨٧٤ ، فكان ما كان من الهزيمة والاحتلال

تجديد السلاح والمصانع الحربية

أوصى الخديوى اسماعيل سنة ١٨٦٧ معامل الاسلحة الفرنسية بصنع عدة آلاف من البنادق الحديثة ذات الابر المعروفة ببنادق (شاسبو) نسبةً الى مخترعها ، وسلح بها الجيش المصرى

ورمم حصون الاسكندرية وجدّد أسلحتها ومدافعها ، وجلب المدافع الضخمة من طراز ارمسترنج ، وركبها فى طوابى الثغور ، وخاصة الاسكندرية ، وهى المدافع التى كان لها عمل ضئيل أثناء ضرب الاسطول البريطانى مدينة الاسكندرية سنة ١٨٨٢ ، ولم تؤثر فى سفن الاسطول لعدم تمرن رماتها على استعمالها بسبب سوء تدبير الحكومة والعرابيين

---

(١) راجع وقائع هذه الغزوة في الجزء الثالث من تاريخ الحركة القومية (عصر محمد على) ص ٤٠ وما بعدها

(٢) جريدة أركان حرب الجيش المصرى العدد ٦ من المجلد الاول للسنة الثانية

وعنى اسماعيل بشأن المصانع الحربية ، التى كانت منشأة من عهد محمد على ، فنظم معمل الحوض المرصود ، وأصلح من شأنه ، وصارت تصب فيه المدافع ، وتصنع فيه الأدوات والآلات الحربية للجيش

وشيد بطره معملا لصنع الاسلحة المسدسة ، وآخر لصب المدافع وآخر للبنادق ، عدا معامل الخرطوش والقنابل ، وأصلح مصانع البارود التى كانت موجودة بمصر حتى اشتهر ذكرها فى الآفاق ، وأرسل سلطان مراكش بعثة من المغاربة ليتعلموا فى مصر صناعة البارود والطباعة

وأصلح معمل الاسلحة بالاسكندرية ووسع نطاقه

انشاء ميدان للرماية والتمرينات العسكرية

(البوليجون)

وفى عهد وزارة الأمير حسين باشا كامل (السلطان حسين كامل) للحربية وضع لارمى بك تصميم انشاء البوليجون للتمرين على ضرب النار ، وأخذت أورطة المهندسين فى بنائه باشراف لارمى بك وخفاجى بك أحد أساتذة مدرسة أركان الحرب ، وجعل به عدة أقسام للتمرين ، منها قسم لتمرين ضباط المدفعية على الرمى بالمدافع ، وقسم لتمرين الضباط المشاة على الرمى بالبنادق ، وقسم لصف الضباط ، وقسم لتعليم التلغرافات العسكرية وقسم للاشارة

ادخال النظام الالمانى

كان النظام الفرنسى هو المتبع فى الجيش المصرى ، ولكن الخديوى اسماعيل اعتزم تدريبه على أساليب الجيش الالمانى ، لما ذاعت شهرته بعد انتصاره على الفرنسيين فى الحرب السبعينية ، فأمر بترجمة القوانين والنظامات الألمانية وتعديل الملابس وتغيير الاسلحة ، ولكن ارتباك شؤون الحكومة المالية فى أواخر عهده حال دون الانفاق على الجيش وتجديده

احصاء الجيش

ذكر اسماعيل باشا سرهنك فى كتابه (ج ٢ ص ٣١١) احصاء الجيش سنة ١٨٧٣ ، ومنه يتبين أن عدده بلغ نحو ٩٠٫٠٠٠ مقاتل من جند وضباط وتلاميذ المدارس الحربية كالبيان الآتى

٨٤٫٥٣٠	جنود وصف ضباط
٠٢٫٦٦٨	ضباط وقواد
١٨٩٠	تلاميذ المدارس الحربية
٨٩٫٠٨٨	

وهذا عدا الجيش المرابط فى السودان ، وقد بينا انه بلغ ثلاثين الفا ، أى ان تعداد الجيش المصرى فى مصر والسودان بلغ على عهد اسماعيل نحو ١٢٠٫٠٠٠ مقاتل

افتقار الجيش الى قائد عظيم

رأيتَ مما تقدم تطور حالة الجيش فى عهد اسماعيل، وعلمتَ ما أصابه من الضعف فى السنوات الاخيرة من حكمه ، وترجع أسباب هذا الضعف إلى ارتباك شؤون الحكومة المالية الذى كان نتيجة لقروض الخديوى ، والى عدم التعاون بين قيادة الجيش وهيئة أركان الحرب ، وثمة سبب جوهوى لهذا الضعف، يتراءى فى عصر اسماعيل عامة ، وهو عجز القيادة العامة ، فقد كان الجيش يعوزه قائد كبير يضارع ابراهيم باشا فى كفاءته وعبقريته ، و يبعث فى نفوس الجند روح البطولة والمجد والبسالة ، ولم يكن اسماعيل على غرار أبيه فى النبوغ والعبقرية ، ولا ورث عنه صفاته الحربية ، ولم يألف خوض غمار القتال ، ولا وجد بين قواده من يسد الفراغ الذى كان يملؤه البطل ابراهيم ، وغنيٌّ عن البيان ان حرمان الجيش مثل هذا القائد العظيم ومثل سليمان باشا الفرنساوى أو القواد الذين ازدان بهم تاريخ مصر الحربى فى معارك مصر واليونان وسوريا والاناضول ، كان العامل الأول فيما أصابه من الضعف

وقد ظهر هذا الضعف فى حرب الحبشة سنة ١٨٧٥ — ١٨٧٦ ، كما بيناه فى الفصل السابق ، وتبين أن أهم أسباب الهزيمة فى تلك الحرب عجز القيادة وسوء النظام ، وكانت هذه الهزيمة موضع دهشة المصريين والاجانب على السواء ، فقد كانوا يعتقدون أن الجيش المصرى لم يزل محتفظا بالمكانة التى نالها فى حروب محمد على أو فى حرب القرم ، ولكن حرب الحبشة زلزلت هذه المكانة ، وكشفت عن أعراض الضعف الذى أصاب الجيش على مر السنين فى عهد خلفاء محمد على

وقد زاد فى ضعفه ارتباك الحكومة المالى،وتدخل الدول فى شؤونها ، فان هذا الارتباك أفضى الى نقص مخصصات الجيش ، وكان من أعمال وزارة نوبار باشا الاولى تخفيض عدد الجيش ، توفيراً فى النفقات وسداً لعجز الميزانية ،فقررت احالة ٢٥٠٠ ضابط على الاستيداع ، وتسريح عدد كبير من الجند ، واستمرت أسباب الضعف تزداد وتتفاقم ، الى أن ظهرت نتائجها مرة أخرى ، فى وقائع الاحتلال الانجليزى سنة ١٨٨٢ ، تلك الوقائع التى تعد صفحة محزنة فى تاريخ مصر الحربى

الفصل السابع

البحرية

تولى الخديوى اسماعيل الحكم والبحرية المصرية فى حالة سيئة من التأخر والضعف ، فقد بدأ اضمحلالها كما قدمنا فى عهد عباس ، ولم يعمل سعيد باشا على احيائها ، لما لقيه من العقبات من ناحية تركيا

فأخذ اسماعيل فى أوائل حكمه يعنى بتجديد الاسطول ، فبعث النشاط فى ترسانة الاسكندرية (دار الصناعة) ، وأحيا معاملها ومصانعها ، وجلب لها العمال من الاسكندرية ومن داخل البلاد ، واستحضر لها الآلات والعتاد ، فعاد اليها نشاطها الذى كان لها فى عهد محمد على

وأنشىء بها بعض السفن الحربية فى عهد ولاية عبد اللطيف باشا ، ثم شاهين باشا ، لوزارة البحرية ، وباسم الاول منهما سميت البارجة « لطيف » ، وتم فى عهد الثانى بناء البارجة (الصاعقة) .

وأوصى الخديوى بصنع عدة سفن حربية مدرعة فى ترسانات أوروبا

وجدد المدرسة البحرية بالاسكندرية ، وأنشأ مدرسة بحرية أخرى بجوار الترسانة ، أحضر لها المدرسين الاكفاء من مصر وأوروبا ، وعهد بنظارتها الى ضابط من ضباط البحرية الانجليزية ، يدعى مكيلوب (باشا) ، ووكيله ضابط مصرى كفء وهو عبد الرازق بك درويش ، ثم تولى هو نظارتها من بعده[1] ، ومن كبار أساتذتها سليمان قبودان حلاوه[2] من مشاهير ضباط البحرية ، وانتخب تلاميذ هذه المدرسة من نبهاء طلبة المدارس الاميرية والابتدائية ، وكانت تدرس فيها

---

(١) الوقائع المصرية العدد ٥٩٨ — ٢١ مارس سنة ١٨٧٥

(٢) الوقائع المصرية العدد ٤٤١ — ٢٣ يناير سنة ١٨٧٢

الفنون والعلوم البحرية التى تدرس فى المدارس البحرية الأوروبية، ومدة الدراسة فيها ثلاث سنوات ، واختارت الحكومة طائفة من خريجيها وأوفدتهم الى انجلترا لاتمام العلوم البحرية ، منهم اثنان لتعلم فن انشاء السفن ، وهما حسن فريد افندى وحشمت افندى ، واثنان لتعلم الميكانيكا البحرية ، وهما محمد انيس افندى، ومحمد عارف افندى ، ولما عادوا الى مصر التحقوا بدار الصناعة بالاسكندرية ، ومن هذه المدرسة تخرج اسماعيل باشا سرهنك ، مؤلف كتاب حقائق الاخبار عن دول البحار ، وناظر المدرسة الحربية المستجدة

بذل الخديوى اسماعيل كما ترى جهودا ممدوحة فى إحياء البحرية المصرية ، ولكن عقبات جمة اعترضته فى سبيله ، ذلك أن الحكومة التركية رأت البحرية المصرية آخذة بأسباب النشاط والقوة ، وعلمت بان اسماعيل أوصى على ثلاث مدرعات فى فرنسا ، ومدرعتين أخريين فى النمسا ، وأن هذه المدرعات قد تم صنعها ، وأرسل الخديوى سنة ١٨٦٨ طوائفها من الضباط والبحارة ليتسلموها ، فاعترضت على تسليمها ، وتذرعت بان الفرمانات لا تبيح لمصر انشاء السفن الحربية المدرعة ، فانتهى الخلاف بان ابتاعتها تركيا لنفسها

وكان هذا الاعتراض بايعاز من انجلترا التى يسوءها أن تجدد مصر قوتها البحرية ، فاستخدمت نفوذها لدى الاستانة لتحول دون هذا التجديد ، وقد وقفت انجلترا هذا الموقف ذاته فى عهد عباس ، ثم فى عهد سعيد ، وكانت بذلك تعمل على خطة رسمتها لنفسها منذ انشأ محمد على الكبير الاسطول المصرى ، وهى إضعاف قوة مصر البحرية ، لكى تأمن على سلطانها فى البحر الابيض المتوسط والبحر الاحمر .

خدمات الاسطول

ورغم ما اعترض تقدم الاسطول من العقبات ، فانه أدى خدمات لا تنكر ، فقد اشترك فى عدة حملات حربية على ظهر البحار ، كحملة كريت ، وحرب البلقان ، فكانت سفنه تقل الجنود المصرية إلى الجهات التى تقصدها ، وكان

صلة الاتصال بين مصر وثغورها وأملاكها المترامية على البحر الاحمر وخليج عدن والمحيط الهندى ، وقد أقلت سفنه القوات العسكرية التى أرسلتها مصر إلى تلك الثغور البعيدة ، كصوع ، وزيلع ، وبربره ، ورأس جردفون (جردفوى) ، كما أقلت الحملة التى أنفذتها الى بلاد السومال ، ووصلت الى ثغر قسمايو (بور اسماعيل) شمالى زنجبار على شاطىء المحيط الهندى .

وطافت بعض سفنه حول القارة الافريقية متنقلة من البحر الابيض المتوسط الى البحر الاحمر عن طريق الاقيانوس الاعظم ورأس الرجاء الصالح ، قبل أن تشق قناة السويس

احصاء الاسطول

أحصى العلامة على باشا مبارك (١) الأسطول المصرى فى عهـد الخديوى اسماعيل ، فذكر أن عدده ١٤ سفينة حربية ، وهى : المحروسة . مصر . الغربية . محمد على . شير جهاد . لطيف . دنقله . الطور . سـيناء . الخرطوم . أسيوط . وثلاثة مراكب أخرى صغيرة

ولاسماعيل باشا سرهنك إحصاء آخر ، فقـد قال (ج ٢ ص ٥٥) إن عدد سفن الأسطول ١٨ سفينة حربية ، وذكر ص (٢٨٧) أسماءها مع ثلاث بواخر حربية أخرى مخصصة لركوب الخديوى وهذا بيانها :

اسم البارجة	محل انشائها	نوع معدنها	عدد مدافعها
١ ــ محمد على (فرقاطة)	أمريكا	حديد وخشب	٢٨
٢ ــ شير جهاد	تريستا	خشب	٢٨
٣ ــ لطيف (كروفت)	الاسكندرية	خشب	٦
٤ ــ الخرطوم (مدفعية)	انجلترا	خشب	٥
٥ ــ دنقله (دراعة)	»	مدرع	٨
٦ ــ الصاعقة (كورفت)	الاسكندرية	خشب	٨

(١) في الخطط التوفيقية ج ٧ ص ٨٣

اسم البارجة	محل انشائها	نوع معدنها	عدد مدافعها
٧ ـ سنار (مدفعية)	انجلترا	خشب	٧
٨ ـ زرخ نمرة ١	فرنسا	مدرع	٢
٩ ـ » » ٢	»	»	٢
ثلاث بواخر حربية لركوب الخديوى			
١٠ ـ المحروسة	لندن	حديد	٨
١١ ـ مصر	طولون (فرنسا)	»	٦
١٢ ـ الغربية	»	»	٤
طرادات وسفن للنقل			
١٣ ـ الطور	انجلترا	حديد	٢
١٤ ـ اسوان	»	خشب	٤
١٥ ـ شندى	»	»	٤
١٦ ـ أسيوط	الاسكندرية	»	٢
١٧ ـ الجعفرية	انجلترا	حديد	٣
١٨ ـ سمنود	»	خشب	٢
١٩ ـ نور الهدى	»	حديد	٢
٢٠ ـ مخبر	»	»	٢
٢١ ـ عجمى	»	»	٢

فمن هذا الاحصاء ومن مقارنته باحصاء الاسطول الضخم الذى كان لمصر فى عهد محمد على (تاريخ الحركة القومية ج ٣ ص ٤٣٢) يتبين لك مبلغ ما أصاب البحرية المصرية من الضعف فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، ثم إذا قارنت هذين الاحصاءين بحالة أسطول مصر الآن (أى بعد الاحتلال الانجليزى) وبحثت عبثاً أين هو الاسطول ؟ ومم يتألف ؟ وماذا يعمل ؟ يعروك الدهش والأسى والألم، لانعدام قوة مصر البحرية فى عهد الاحتلال

الاسطول التجارى

لما وجد اسماعيل مايعترضه من العقبات فى سبيل تجديد الاسطول الحربى ، وجه عنايته الى الاسطول التجارى ، فانشأ شركة للملاحة التجارية ، سميت الشركة العزيزية ، نسبة الى السلطان عبد العزيز ، أعد بواخرها لنقل المسافرين ونقل المتاجر الى ثغور البحر الابيض المتوسط والبحر الاحمر ، بعد أن أبطل الشركة المجيدية التى انشئت فى عهد سعيد باشا ، وجعل رأس مال الشركة الجديدة موزعا على أسهم ليشترك الافراد فيها

فاكتتب جماعة من سراة المصريين فى رأس مالها ، وخصص لهـا الخديوى سبع بواخر كانت موجودة من قبل ، وأوصى بانشاء بواخر جديدة فى انجلترا ، وجعل على قيادة هذه البواخر ضباط البحرية القدماء الذين تركوا خدمة الاسطول منذ اضمحلاله ، وكذلك بحارته ، وابتاعت وزارة البحرية عدا ذلك عدة سفن شراعية كبيرة لنقل الاخشاب اللازمة لوزارتى البحرية والحربية من بلاد الاناضول ، فكان الاسطول التجارى المصرى بنوعيه من البواخر والسفن الشراعية بالغاً درجة كبرى من التقدم

وكان لبواخر (الشركة العزيزية) فضل كبير فى نشاط حركة التجارة الخارجية لمصر ، وتسهيل مواصلاتها البحرية مع الاقطار الأخرى ، وزاحمت شركة الملاحة الاجنبية فى هذا الصدد ، ونجحت فى عملها ، ونمت ايراداتها ، وربحت الارباح الوفيرة ، ثم ابتاع الخديوى اسماعيل أسهمها ، احتكاراً لارباحها ، وحولها الى ادارة من ادارات الحكومة عرفت بمصلحة (وابورات البوستة الخديوية) ، فاستمرت مطردة النجاح واتسع نطاق أعمالها ، وصار لها من البواخر الكبيرة ست وعشرون باخرة (١)

(١) هي الرحمانية . التاكا . الفيوم . البحيرة . الشرقية . الدقهلية . طنطا . شندى شبين . دسوق . كوفيت . سمنود . المنيا . الجعفرية . مسير . المنصورة . المحلة . النجيلة دمنهور . الزقازيق . الحجاز . الحديدة . ينبع . القصير . سواكن . مصوع (كتاب احصاء مصر سنة ١٨٧٣ — ص ٤٧)

تجوب البحار رافعة العلم المصرى ، وتنقل الناس والمتاجر والبريد بين ثغور مصر وشواطىء البحر الابيض المتوسط فى سوريا والاناضول و بلاد اليونان ، وشواطىء الدردنيل والبوسفور ، وثغور البحر الاحمر كسوا كن ومصوع وينبع وجدة والحديدة، وتجتاز بوغاز باب المندب الى زيلع و بربره

وقد الحق بهذه المصلحة الحوض العائم الذى انشىء بميناء الاسكندرية ، وخصص لبواخرها معمل (فابريقه) فى ترسانة الاسكندرية للقيام بما تحتاجه من الاصلاح

و بقيت هذه الادارة الكبيرة ببواخرها وملحقاتها كالحوض وفابريقة الترسانة ملكا للحكومة ، الى أن باعتها فى عهد الاحتلال ، الى شركة انجليزية ، بابخس الاثمان ، فانتقلت تلك المنشآت البحرية العظيمة ، وهذه الثروة القومية الضخمة ، الى أيدى الانجليز ، وانزل العلم المصرى عن بواخرها ، واستبدل به العلم البريطانى ، فكانت نكبة ، وكان خسران

إتمام ميناء السويس

إن إتمام أعمال الاصلاح فى ميناء السويس ، واصلاح ميناء الاسكندرية ، وانشاء الفنارات البحرية ، هى من أعمال العمران التى تتصل بالبحرية ، ولذلك نتكلم عنها فى سياق الحديث عن البحرية فى عهد اسماعيل

شرع سعيد باشا سنة ١٨٥٦ فى انشاء ميناء جديد بالسويس لسهولة ايواء السفن ، فجعل من الثغر مرفأين ، احدهما يسمى ميناء ابراهيم ، جعل للبواخر الحربية ، وجعل الثانى للسفن التجارية ، وأقيم حاجز من الاحجار لصد الامواج عن الميناءين ، و به البوغاز لدخول السفن وخروجها

وشرع فى اقامة حوض لعمارة السفن ، وقد استمر العمل فى إتمام هذه المشروعات الى أن كملت فى عهد اسماعيل ، و بلغت نفقات الحوض والجسر الذى يصله بميناء السويس ٢٤٠،٠٠٠ جنيه ، وقد تنازلت عنه الحكومة المصرية فى عهد الاحتلال الى الشركة الانجليزية التى اشترت وابورات البوستة الخديوية

اصلاح ميناء الاسكندرية

لما اتسعت حركة العمران وازدادت المواصلات البحرية فى الاسكندرية شرع اسماعيل فى توسيع مينائها واصلاحه ، واعتزم انفاذ هـذا الاصلاح بعد ما انشئت بورسعيد وقارب مشروع قناة السويس التمام ، فقد خشى ان تزاحم بورسعيد الاسكندرية ، وتتحول اليهـا حركة التجارة الخارجية ، فاعتزم توسيع ميناء الاسكندرية لتجتذب اليها السفن فى غدوها ورواحها

فأول مابدأ به اقامة حوض عائم من الحديد لاصلاح السفن ، بدل الحوض المبنى بالحجر من عهد محمد على ، والذى صار مع الزمن لايفى باصلاح السفن ، وخاصة كبيرة الحجم ، وقد جلب الحوض الجديد من فرنسا سنة ١٢٨٥ هـ (١٨٦٨م)

ثم انشأ حاجز الامواج الضخم الذى يقى الميناء طغيان الامواج ، ويجعل السفن الراسية به فى مأمن من العواصف ، ولايزال قائما الى اليوم ، وهو جسر من الدبش والاحجار الضخمة والصخور ، ممتد من طرف شبه جزيرة رأس التين الى جهة العجمى ، وفيه البوغاز لمرور السفن منه ، وانشأ بداخل الميناء رصيفا للشحن والتفريغ وأرصفة أخرى ممتدة فى داخل الميناء ، وكانت هذه المشروعات من أعمال العمران الضخمة التى اقتضت جهودا كبيرة ، وكلفت الخزانة نحو ثلاثة ملايين من الجنيهات وقد عهد بها الحديوى الى شركة انجليزية تدعى شركة جرنفلد ، و بدئ فى العمل سنة ١٨٧١ ، ولم يتم إلا بعد تسع سنوات سنة ١٨٧٩

الفنارات

وانشأ عدة فنارات فى ثغور البحر الابيض المتوسط والبحر الاحمر لارشاد السفن ولتسهيل الملاحة البحرية

وهذا بيانها

(فى البحر الابيض المتوسط)

فنار البرلس ، انشىء سنة ١٨٦٨ ، وفنار رشيد سنة ١٨٦٨ ، وفنار دمياط

(تجاه رأس البر) سنة ١٨٦٩ ، وفنار بورسعيد سنة ١٨٦٩ ، وفنار العجمى سنة ١٨٧٣ ، وفنار حاجز الميناء سنة ١٨٧٦ ، وفنار القبارى سنة ١٨٧٧ ، أما فنار رأس التين الكبير فهو منشأ من عهد محمد على

(فى البحر الاحمر)

وكان بالبحر الاحمر من الفنارات قبل عصر اسماعيل فنار زنوبيا ، وفنار الزعفران جنوبى السويس ، وفنار الأشرفى ، وفنار أبى كيزان ، فرأى الخديوى اسماعيل أن هذه الفنارات لا تكفى لارشاد السفن فى البحر الأحمر ، لكثرة صخوره ومخاطره ، فأنشأ فنارات أخرى وهى :

فنار السويس . فنار رأس الغريب جنوبى رأس الزعفران ، وفنار صخور الأخوين الشمالية . وفنار جزيرة شدوان الذى تم سنة ١٨٨٩ . وفنار (الوجه) من ثغور الحجاز(١)

وأنشأ فى خليج عدن بالاقيانوس الهندى فنار بربره السابق الكلام عنه ، وأمر باقامة فنار فى جردفون (جردفوى) سنة ١٨٧٨ ، ولكنه لم ينشأ كما تقدم بيانه (ص ١٧١)

---

(١) كانت متصرفية (الوجه) تابعة لحكومة مصر

الفصل الثامن

حروب مصر فى عهد اسماعيل

خاضت مصر فى عهد اسماعيل عدة حروب ، تختلف فى أهميتها ونتائجها ، ومعظمها مما دعته تركيا الى خوض غمارها لنجدة جيشها ، ماخلا حروب السودان ، فقد كانت ابتكاراً من الخديوى اسماعيل لبسط نفوذ مصر فى باطن افريقية وشرقيها ، والوصول الى الحدود الطبيعية لوادى النيل ، وحرب الحبشة التى كانت حرباً عقيما من كل الوجوه

ولم يكن للحروب التى خاضتها مصر تلبيةً لطلب تركيا من نتائج عملية لمصلحة مصر سوى أن اسماعيل كان يتخذها، فى الجملة، ذريعة لاستصدار مزايا وحقوق جديدة تقرب مصر من استقلالها التام ، ومن جهة أخرى فانها كانت ميادين لمران الجيش المصرى وجنوده وضباطه على ممارسة القتال والافادة من تجاريبه ووقائعه

(١) إخماد ثورة العسير

فى أوائل عهد اسماعيل ثار الأمير محمد بن عائض أمير العسير على الدولة العثمانية ، وقصد الاستيلاء على تهامة اليمن ، فحاربه متصرف الحديدة ، وصدَّه فى بعض المواقع ، ولكن الأمير استفحل أمره واستولى على بعض المدن ، فاستنجد السلطان عبد العزيز بالخديوى اسماعيل ، وطلب اليه أن ينفذ جيشاً مصريا لاخماد الثورة

فلبى اسماعيل طلبه ، وأنفذ الى عسير قوة من ثلاث أورط من المشاة ، زودها بالمدافع وكتائب الفرسان ، وعقد لواء قيادتها للميرالاى اسماعيل صادق بك ، فلما وصل الى ثغر جدة ، اتفق وواليها على تجريد الحملة المصرية صحبة الجنود العثمانية على الثوار من جهة (قنفذة) ، فتمكن من إخماد الثورة ، وقدم الأمير محمد بن عائض

طاعته ، ثم عادت الفرقة المصرية ظافرة مشكورة على ما أبلتـه فى القتال ، وأنعم الخديوى على قائدها برتبة اللواء مكافأة له على ما أبدى من الشجاعة والكفاءة فى القيادة ، وأرسل السلطان الى الخديوى كتاب شكر وثناء على ما بذله من الحمية والولاء ، وتوسط اسماعيل لدى السلطان عبد العزيز فى العفو عن الأمير الثائر فقبل شفاعته وعفا عنه وأقره فى امارته

(٢) حرب كريت

قامت سـنة ١٨٦١ ثورة فى ولاية الهرسك إحدى ولايات البلقان بتحريض أمير الجبل الأسود ، فجردت تركيا جيوشها لمقاتلة الثوار ، ولما تولى اسماعيل عرش مصر طلبت اليه الحكومة العثمانية أن يعزز جيوشها فى الروملى بجيش مصرى حتى لا يقوى ساعد الثوار ولا تزداد اضطراباتهم فى تلك الجهات ، فأنفذ اسماعيل باشا فرقة تولى قيادتها اللواء على غالب باشا ، فوصلت الحملة المصرية الى الاستانة ، هل بين هذا التعبير وعرضها السلطان ، ثم سارت عن طريق (سلانيك) الى (مناستر) ورابطت هناك

ثم نشبت ثورة عامة فى جزيرة (كريت) سنة ١٨٦٦ ، وعجزت تركيا عن إخمادها ، إذ كان جنودها موزعين فى ولايات البلقان ، ولم تقو الحامية التركية فى الجزيرة على مقاومة الثورة ، فاستنجدت بمصر ، وأرسل السلطان عبد العزيز الى الخديوى يطلب اليـه إنفاذ بعض فرق الجيش المصرى الى الجزيرة لمقاتلة الثوار ، فلبى الطلب ، وأنفذ جيشاً مؤلفاً من خمسة آلاف مقاتل ونيف ، عقد لواءه للفريق شاهين باشا ، أحد قواد الجيش المصرى المشهورين ، يعاونه اللواء اسماعيل صادق باشا ، وكان من ضباط الجيش المصرى فى هـذه الحرب راشد بك حسنى (باشا) الذى عظم شأنه فى حوادث الثورة العرابية ، وأبلى البـلاء الحسن فى واقعة التل الكبير ، ومحمود سامى بك البارودى (باشا) الذى صار من كبار زعماء الحركة العرابية ، وفى هذه الحرب كانت نشأة البارودى الحربية

أقلعت الحملة الى جزيرة كريت ، تقلها عمارة من الأسطول المصرى مؤلفة من

عشر سفن ، معقوداً لواؤها للأميرال قاسم باشا ، وتولت هذه العمارة نقل القوة المصرية التى كانت مرابطة فى (مناستر) ، وجاءت بها الى الجزيرة

نزلت الحملة فى كريت ، فاشتبكت والثوار فى جهة تسمى (أبو قرون) ، جرح فيها اللواء اسماعيل صادق باشا جرحاً بليغاً نقل على أثره الى مصر ، وتبدلت القيادة العامة للجيش المصرى ، إذ استدعى شاهين باشا الى مصر وعين بدله الفريق اسماعيل سليم باشا وزير الحربية وقتئذ كما تقدم بيانه (ص ٨٣)

والتقى الجمعان فى واقعة «ارقاذى» ، وكانت من أعظم الوقائع الحربية ، هزم فيها الثوار هزيمة كبيرة ، وخسروا خسائر عظيمة ، وأبلى فيها الجنود المصريون بلاء حسناً فى القتال ، وأبدوا من الشجاعة والاقدام ما خلد ذكرهم ، وكان راشد بك حسنى وألايه أكثرهم إقداماً ، فأنعم عليه الخديوى برتبة اللواء ، وأرسل الى الجيش المصرى كتاباً بليغاً من إنشاء المرحوم عبد الله باشا فكرى ، يثنى فيه على حسن بلاء الجنود وضباطهم وقوادهم ، ويسجل لهم ما أبدوه من ضروب الشجاعة والكفاءة

واستمرت الحرب سجالا حتى أخمدت الثورة ، فعاد الجيش المصرى الى مصر ، وقوبل بمظاهر الحفاوة البالغة ، وأقام الخديوى لافراده الولائم تكريما لهم على حسن بلائهم فى القتال

(٣) حرب البلقان

١٨٧٦ — ١٨٧٧

كانت الروسيا لاتفتأ تحرض امارات البلقان على الانتقاض على تركيا ، لكى تمهد لنفسها الدخول فى حومة الوغى بعد أن توزع تركيا قواتها فى اخماد الثورات المحلية ، فمن ذلك انها بذرت بزور الثورة فى تلك البلاد حتى شب اوارها فى الهرسك سنة ١٨٧٥ ، وامتدت الى البوسنه ، وقامت الصرب تشد ازر الثوار

فطلبت تركيا من الخديوى اسماعيل امدادها بنجدة من الجيش المصرى ، فأعد الخديوى قوة من نحو سبعة آلاف مقاتل بقيادة الفريق راشد باشا حسنى ،

ومن ضباطها محمود بك فهمى (باشا) الذى صار فيما بعد من زعماء الثورة العرابية ووزرائها ، وصاحب كتاب البحر الزاخر فى تاريخ الاوائل والأواخر

اقلعت الحملة الى الاستانة ، ثم قصدت الى حدود الصرب ، فاشتركت والجيش العثمانى فى قتال الصربيين ، وفازت عليهم ، وأظهرت شجاعة و بسالة فى الوقائع التى خاضتها ، مما دعا الخديوى الى الانعام على طائفة من قوادها وضباطها بالرتب العالية

وفى غضون ذلك تولى عرش تركيا السلطان عبد الحميد الثانى (٣١ اغسطس سنة ١٨٧٦) بعد أن قتل السلطان عبد العزيز ، وخلع السلطان مراد ، ورجع الجنود المصريون الى الاستانة إذ وقفت الحرب بين تركيا والصرب

ثم تجدد النزاع بين تركيا والروسيا ، وأعلنت الحرب بين الدولتين ، وهى الحرب المعروفة بحرب البلقان (ابريل سنة ١٨٧٧) ، فطلبت تركيا من الخديوى إنجادها فى هذه الحرب ، ولكن اسماعيل اعتذر بداءة ذى بدء بارتباك شؤون الحكومة المالية ، وعجزها عن الانفاق على المدد ، فأعاد السلطان عبد الحميد الكرة ولم يقبل عذراً

وكانت المشاكل المالية قد جعلت اسماعيل هدفاً لغضب الدائنين الاجانب ، فأخذوا يرهقونه بمطالبهم الشديدة ، والدول الأوروبية من ورائهم تشد ازرهم ، وتتهدد الخديوى ، فخشى عاقبة مغاضبة تركيا فى تلك الظروف العصيبة ، فاعتزم اجابة طلبها

وكانت خزانة الحكومة فى حالة سيئة ، فاستدعى مجلس شورى النواب ، وعرض عليه ربط ضريبة جديدة تدعى « ضريبة الحرب » قدرها عشرة فى المائة من مجموع الضرائب لسد نفقات الحملة ، فوافق المجلس عليها ، وأعد الخديوى جيشا مؤلفا من نحو اثنى عشر الف مقاتل بقيادة الأمير حسن باشا ثالث أنجاله ، و بعد ان تمت معدات الحملة اقلعت بهم السفن المصرية الى الاستانة ومنها الى (وارنه) أحد ثغور البحر الاسود

وقد ابلى الجنود المصريون فى هذه الحرب بلاء حسنا واشتركوا فى القتال الى

ان وضعت الحرب اوزارها فى مارس سنة ١٨٧٨ ثم عادوا الى مصر

(٤) و (٥) حروب السودان والحبشة

كانت الحملات التى جردها الخديوى اسماعيل لاتمام فتح السودان خير حروب مصر فى عهده ، واكثرها نفعا وبركة ، وهى تعد تكملة لحروب مصر فى عهد محمدعلى ، وقد وفينا الكلام عنها فى الفصل الخامس ، كما بسطنا الكلام فيه عن حرب الحبشة

الفصل التاسع
التعليم والنهضة العلمية والادبية

نال التعليم والنهضة العلمية نصيباً عظيما من جهود اسماعيل ، فقد تولى الحكم ومعظم المدارس التى أنشأها محمد على مقفلة ، ولم يكن باقياً منها سوى مدرسة الطب والصيدلة ، ومدرسة الولادة (القابلات) ، ومدرسة حربية ، ومدرسة ثانوية ، وأخرى ابتدائية ، ومدرسة البحرية بالاسكندرية ، فبعث النهضة العلمية من مرقدها ، ونفخ فيها روح الحياة والنشاط ، وأعاد تأليف ديوان المدارس (وزارة المعارف) ، وعهد برآسته الى ابراهيم أدهم باشا الذى تولاها فى عهد محمد على ، ووجه همته الى إنشاء المدارس على اختلاف مراتبها وفنونها (١)

المدارس الحربية

فأسس المدارس الحربية التى تكلمنا عنها فى الفصل السادس

المدارس العالية

وأسس عدة مدارس عالية ، ازدان بها تاريخه ، وكان لها الفضل الكبير على النهضة العلمية والأدبية والفكرية التى ظهرت فى عصره ، وفى العصور التى تلته ، واليك بيان هذه المدارس

مدرسة المهندسخانة

هى مدرسة (الرى والعمارة) وسميت المهندسخانة ، أنشئت بالعباسية سنة ١٨٦٦

---

(١) أهم مراجع هذا الفصل عن معاهد التعليم : الوقائع المصرية . الخطط التوفيقية لعلى باشا مبارك . التعليم فى مصر لأمين سامي باشا . التعليم العام فى مصر ليعقوب أرتين باشا . التعليم العام فى مصر للمسيو دور بك

بسراى الزعفران ، ثم نقلت سنة ١٨٦٨ الى سراى درب الجماميز ، (ثم الى الجيزة) وكان أول ناظر لها اسماعيل بك (باشا) مصطفى الفلكى ، ثم محمود بك (باشا) الفلكى ، ثم عاد اليها اسماعيل بك الفلكى

مدرسة الحقوق

هى أعظم المعاهد العلمية التى أسسها اسماعيل ، انشئت سنة ١٨٦٨ ، وكان اسمها مدرسة (الادارة والألسن) ، وقد حلت محل مدرسة الألسن التى أقفلت فى عهد عباس ، وسميت « مدرسة الحقوق » منذ سنة ١٨٨٦ ، وكان أول ناظر لها المسيو فيدال Vidal (باشا) أحد علماء فرنسا المشترعين ، و بقى يتولى نظارتها اربعا وعشرين سنة الى عام ١٨٩١

وفى هذه المدرسة تخرج معظم رجال القانون الذين نبغوا فى عصر اسماعيل ومايليه من العصور ، ولها الفضل الكبير على نهضة القانون والتشريع والقضاء ، وعلى النهضة الأدبية والسياسية فى البلاد

مدرسة دار العلوم

اسست سنة ١٨٧٢ ، والغرض منها تخريج اساتذة اللغة العربية للمدارس الابتدائية والثانوية ، انتخب طلبتها من نجباء تلاميذ الازهر ، وتولى نظارتها على التعاقب فى عهد اسماعيل حامد افندى نيازى ، ثم محمود افندى فوزى ، ثم على بك فهمى رفاعه ، ثم حامد افندى نيازى ، وقد أدت المهمة التى أنشئت من أجلها ، وكان لها الفضل الكبير على نهضة اللغة والآداب العربية فى مصر ، وسنعود اليها فى ترجمة مؤسسها على مبارك باشا

مدرسة الطب والولادة

وارتقت مدرسة الطب فى عهد اسماعيل ، واتسع نطاقها ، وخرجت جماعة من أعلام الطب فى مصر ، وتولى نظارتها على التعاقب برجيير بك Burguière bey ،

ثم حافظ افنـدى محمد ، ثم محمد على بك (باشا) البقلى ، ثم محمد الشافعى بك ، ثم محمد على باشا البقلى ، ثم جلياردو بك

مدارس البنات

بدأ انشاء مدارس البنات فى مصر على عهـد اسماعيل ، وهى ميزة تشهد له بالفضل فى نهضة الامة ، فقد كان التعليم النسوى يعتبر من قبل فى حكم العدم ، إذ لم تكن فى البلاد مدرسة للبنات سوى مدرسة الولادة ، ولم يكن يتعلم فيها فى الغالب سوى البنات الحبشيات ، اما الفتيات من سائر الطبقات فلم يكن لهن مدارس لتعليمهن ، وكان الجهل مخيما عليهن ، اللهم الا من كن يتعلمن فى بيوت آبائهن واهلهن ، وقليل اولئك

ففى سنة ١٨٧٣ أسست مدرسة السيوفية للبنات ، انشأتها السيدة جشم آفت هانم ثالث زوجات الخديوى اسماعيل ، وكان بها حين افتتاحها نحو مائتى تلميذة (١) وبلغ عددهن سـنة ١٨٧٤ ر بعمائة تلميذة ، يتعلمن مجانا فضـلا عن الانفاق على مأكلهن وملبسهن ، ويتعلمن القراءة ، والكتابة ، وحفظ القرآن الكريم والحساب ، والجغرافيـة ، والتاريخ ، والتطريز والنسيج ، وغـير ذلك من الصناعات (٢) وتولى نظارتها حسن افنـدى صالح ، ثم مدام روزه

وأسست مدرسة أخرى للبنات فى القربية بالقاهرة سنة ١٨٧٤ والغيت سنة ١٨٧٨

المدارس الصناعية

وأسس اسماعيل من المدارس الصناعية :

مدرسة الفنون والصنائع ، وكانت تعرف بمدرسة (العمليات) ، أسست سنة ١٨٦٨ لتخريج الصناع الفنيين ، ومنهم مهندسو الوابورات البرية والبحرية وسواقوها ، والموظفون الفنيون فى مصلحة السكك الحديدية ، وتخرج منها مهندسون

---

(١) الخطط التوفيقية ج ٢ ص ٤٦ ، وجاء في الوقائع المصرية العدد ٥١٩ (٥ اغسطس سنة ١٨٧٣) أن عددهن حين افتتاح المدرسة ١٨٠ تلميذة

(٢) الوقائع المصرية العدد ٥٧٦ ـ ٢٣ سبتمبر سنة ١٨٧٤

لصنع عربات السكك الحديدية والبواخر والآلات البخارية

وتولى نظارتها المسيو جيجون بك Guigon bey ، ثم عيسى شاهين افندى ، ثم عاد لنظارتها جيجون بك ، ومن كبار أساتذتها اسماعيل بوشناق بك كبير مهندسى العنابر بالسكك الحديدية

ويشتمل برنامجها على العلوم الصناعية والهندسية ثم التمرينات العملية

ففى السنة الاولى يدرس الحساب ، والجبر ، والهندسة الوصفية ،والرسم ، وفن العمارة ، واللغات العربية والفرنسية والانجليزية

وفى السنة الثانية تدرس أنواع الرسم ، واللغات ، والطبيعة وتطبيقها على الصناعات ، والميكانيكا ، والجغرافية ،والمحاسبة

وفى السنة الثالثة ، تدرس المواد المذكورة مع التاريخ وتطبيق الكيمياء على الصناعات ورسم الآلات البخارية وتركيبها

وكان الطلبة يمارسون بعد الظهر التمرينات العملية فى خمسة معامل ،أولها معمل تركيب الآلات وتصليحها ، والثانى معمل الحدادة ، والثالث المسبك الذى كان يعرف بالدوكمخانة ، والرابع معمل الخراطين والنجارين والعينات التى يطلب عملها ، والخامس معمل قدور القزانات الحديد والنحاس ، وفى المدرسة قسم لتعليم التلوين بالالوان المختلفة (١)

(١) مدرسة التلغراف أسست سنة ١٨٦٨ والغيت سنة ١٨٦٩ ثم الحقت بمدرسة الفنون والصنائع

(٢) فرقة النقاشين أسست سنة ١٨٦٩ والغيت سنة ١٨٧١

(٣) فرقة عمليات المرور أسست سنة ١٨٧٠ والغيت سنة ١٨٧٢ وفرقة أخرى أسست سنة ١٨٦٨ والغيت سنة ١٨٧٢

المدارس الخصوصية

وأنشأ من المدارس الخصوصية :

---

(١) عن (الوقائع المصرية) العدد ٣٤١ (١٩ يناير سنة ١٨٧٠)

(١) مدرسة المساحة والمحاسبة ، أسست سنة ١٨٦٨ وتولى نظارتها نظار مدرسة المهندسخانة

(٢) مدرسة اللسان المصرى القديم (اللغة الهيروغليفية) أسست سنة ١٨٦٩ وتولى نظارتها المسيو بروكش (باشا) Brugsci العالم الألمانى فى الآثار المصرية وألغيت سنة ١٨٧٦

وأشهر من نبغ من خريجى هذه المدرسة العالم الاثرى الكبير احمد كمال باشا

(٣) فرقة الرسم بالمدارس الملكية أسست سنة ١٨٦٩ وألغيت سنة ١٨٧٩

(٤) مدرسة الزراعة أسست سنة ١٨٦٧ وألغيت سنة ١٨٧٥

(٥) مدرسة العميان والخرس ، للبنين والبنات ، أسست سنة ١٨٧٥ وتولى نظارتها محمد أنسى بك نجل عبد الله أبو السعود افندى

المدارس الثانوية

وانشأ من المدارس الثانوية

(١) المدرسة التجهيزية بالعباسية أسست سنة ١٨٦٣ ، ثم نقلت الى درب الجماميز سنة ١٨٦٨ ، وعرفت بالخديوية

(٢) مدرسة رأس التين بالاسكندرية أسست سنة ١٨٦٣

المدارس الابتدائية

قلنا ان معظم المدارس الابتدائية التى أنشأها محمد على قد الغيت فى أواخر عهده ، ولم يجدد بدلها فى عهد عباس وسعيد ، فبذل اسماعيل جهودا كبيرة فى انشاء المدارس الابتدائية فى القاهرة وفى مختلف العواصم

ويرجع الفضل فى انشاء هذه المدارس الى شريف باشا ، ثم الى على باشا مبارك ، الذى فكر فى تحويل التعليم فى الكتاتيب الى التعليم الابتدائى النظامى ، وكان عدد الكتاتيب وقتئذ نحو خمسة آلاف كتاب

وهاك بيان ما انشأه اسماعيل من المدارس الابتدائية :

مدرسة المبتديان بالعباسية انشئت سنة ١٨٦٣ ثم نقلت الى الناصرية ثم الى المنيرة

مدرسة رأس التين الابتدائية بالاسكندرية سنة ١٨٦٣

مدرسة طنطا (بينها)	أسست سنة ١٨٦٨	
مدرسة أسيوط	« «	١٨٦٨
« بنى سويف	« «	١٨٧٢
« المنيا	« «	١٨٧٣
« القربية	« «	١٨٧٢
« الجمالية	« «	١٨٧٣
« الحسينية	« «	١٨٧٩
« باب الشعرية	« «	١٨٧٤
« عابدين	« «	١٨٧٩
« مصر القديمة	« «	١٨٧٩
« ابوالعلا ببولاق (عباس)	« «	١٨٧٢
« السيدة زينب (محمد على)	« «	١٨٧٢
« شيخون	« «	١٨٧٣
« العقادين	« «	١٨٧٢
« النحاسين	« «	١٨٧٢
« الامام الشافعى	« «	١٨٧٩
« الحبانية	« «	١٨٧٢
« رشيد	« «	١٨٧٦
« الفشن	« «	١٨٧٩

ويضاف الى هذه المدارس مدرسة (الصليبة) ، وقد كانت مكتباً أنشأته والدة عباس باشا الأول ، وضم الى المدارس الابتدائية سنة ١٨٧٢ ، ومدرسة قلاوون ، والشيخ صالح للبنين ، ومدرسة محمد بك سيد احمد ، ومدرسة حافظ باشا بالاسكندرية ، ومدرسة البوصيرى ، ومدرسة راتب باشا بالاسكندرية أيضاً

ومدرسة (خليل اغا) أنشأها كبير اغاوات والدة اسماعيل ، قرب المسجد الحسينى بالقاهرة ، ثم نقلت أخيراً الى شارع الأمير فاروق

ومدرسة القبة التى أنشأها الامير محمد توفيق باشا ولى العهد على نفقته الخاصة

الحفلات المدرسية

كان الخديوى اسماعيل شديد الميل الى اقامة الحفلات المدرسية التى تختم بها الامتحانات العامة فى المدارس على اختلاف درجاتها ، وكان لهذه الحفلات مظهر فخم فى ذلك العصر ، اذ كان يحضرها كبار رجال الدولة ، وتوزع فيها الجوائز والمكافآت على المتقدمين من الناجحين ، ويلقى فيها الاساتذة ونوابغ الطلبة الخطب والقصائد ، فكانت هذه الحفلات من عوامل النهضة العلمية ، ويدلك على مبلغ عناية الحكومة بها أن (الوقائع المصرية) وهى الجريدة الرسمية للحكومة كانت تعنى بوصف كل حفلة مدرسية ، وتنشر كل ما يلقى بها من الخطب والقصائد ، تسجيلا لها ، وتعظيما لقائليها ، وتجد فى (الوقائع المصرية) بيانات مستفيضة عن هذه الحفلات وأسماء من يحضرونها من رجال الدولة واعلام الادب والعلم فى ذلك العصر وأسماء الاساتذة والطلبة الذين يخطبون فيها

الازهر

ظل الازهر الجامعة الاسلامية التى تدرس فيها علوم الدين والفقه واللغة ، وكان التعليم فيه يتبع الأساليب القديمة التى درج عليها من سالف العصور

وقد بدأت روح الاصلاح والتقدم تتمشى فيه من عهد ولاية الشيخ محمد العباسى المهدى مشيخته سنة ١٨٧١

وباكورة الاصلاح فيه انشاء نظام الامتحان لتخريج العلماء والمدرسين سنة ١٨٧٢ ، فقد كان التدريس فى الازهر خلوا من القيود ، فوضع الشيخ العباسى نظاما لامتحان العلماء ، وألف لهذا الغرض لجنة برآسته مؤلفة من ستة من كبار العلماء ، اثنان من الشافعية وهما الشيخ خليفه الصفتى . والشيخ احمد شرف الدين المرصفى . واثنان من المالكية . وهما الشيخ احمد الرفاعى والشيخ احمد الجيزاوى . واثنان من الحنفية . وهما الشيخ عبد الرحمن البحراوى . والشيخ عبدالقادر الرافعى

ومهمة هذه اللجنة امتحان المرشحين للعالمية فى مختلف العلوم واعطاء الناجحين منهم اجازة العالمية ، وكان تأليف هذه اللجنة أساس النظام الجديد فى الازهر

وجاء السيد جمال الدين الافغانى الى مصر سنة ١٨٧١ ، فنفخ فى الازهر روح النهضة ، وغرس بزور التقدم الفكري والعلمى ، وقد بدت ثمارها بظهور المدرسة الحديثة التى حمل لواءها الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده فى الازهر وخارج الازهر

البعثات

أعاد اسماعيل عهد البعثات التى ازدان بها عصر محمد على من قبل ، وأخذ يوفد الطلبة الى مدارس أوروبا منذ سنه ١٨٦٣ و بلغ عددهم مدة حكمه ١٧٢ طالب ، وهو كما ترى أقل من عدد البعثات فى عصر محمد على

وأنشأ مدرسة لأعضاء البعثه فى باريس بدل المدرسة التى أنشأها محمد على لهذا الغرض وأقفلت فى أواخر عهده كما بيناه (ج ٣ ص ٤٥٢) ، لكن المدرسه التى أنشأها اسماعيل أقفلت بعد نشوب الحرب السبعينية

مدارس الأقباط الأرثوذكس

ونشط الأقباط الى إنشاء المدارس لتعليم أبنائهم ، ويرجع معظم الفضل فى هذه النهضة الى جهود الأنبا كيرلس الرابع بطريرك الأقباط الأرثوذكس

فصار لهم فى عهد اسماعيل نحو ١٢ مدرسة بالقاهرة ، أهمها المدرسة البطريركية الكبرى . ومدرسة مصر القديمة . وأخرى بالجيزة . ومدرستان باسكندرية . ومدرسة اكليركية لتعليم اللاهوت واللغة القبطية والطقوس الدينية . ونشطوا الى تعليم البنات فأنشأوا لذلك مدرستين . واحدة بحارة السقايين . وأخرى بالأزبكية

وقد منح اسماعيل مدارس الأقباط مساعدات جمة أهمها انه وهبها ١٥٠٠ فدان من أجود أطيان القطر ليخصص ريعها على التعليم فيها ، فكان هذا الريع يفى بمعظم ما ينفق على هذه المدارس

المدارس الأوروبية

كثر عدد المدارس الأوروبية التى فتحتها البعثات الدينية للبنين والبنات ، فبلغ عددها فى عهد اسماعيل ٧٠ مدرسة[1] ، ولم تنتشر فى أى عهد بمثل ما كثرت فى عهده

وقد خرجت عدداً كبيراً من رجال الأعمال والمهن الحرة وموظفى الحكومة وخاصة موظفى البريد والسكك الحديدية والمحال التجارية والبنوك وتراجمة القنصليات والمحاكم المختلطة ، ونال كثير منهم الحمايات الأجنبية بواسطة القناصل ، فصاروا فى حكم الأجانب فى انتمائهم للدول الأجنبية وميولهم اليها ، وعدم خضوعهم للنظم الأهلية القضائية والادارية

وزارة المعارف

قلنا إن اسماعيل أعاد ديوان المدارس (وزارة المعارف) بعد أن ألغى فى عهد سعيد .

ولما تقدمت نهضة التعليم خصص لوزارة المعارف سراى الأمير فاضل بدرب الجماميز ، وهى سراى فخمة وسعت ديوان المدارس و بعض المعاهد العلمية كمدرسة المهندسخانة . ومدرسة الحقوق . ومدرسة المساحة والمحاسبة . والمدرسة التجهيزية . ودار الكتب . ومعمل الطبيعة والكيمياء . ومدرج المحاضرات (الانفتياترو).

---

(١) كتاب احصاء مصر سنة ١٨٧٣ ص ٢٥٧

فصارت بمنزلة الجامعة المصرية . وكان اختيار هذه السراى إجابة لاقتراح العلامه على باشا مبارك حينما ولى وزارة المعارف

وتعاقب على وزارة المعارف فى عهد اسماعيل الوزراء الآتية أسماؤهم

ابراهيم أدهم باشا (يناير — يوليه سنة ١٨٦٣) . شريف باشا (يوليه سنة ١٨٦٣ — ابريل سنة ١٨٦٨) . على مبارك باشا (ابريل سنة ١٨٦٨ — سبتمبر سنة ١٨٧٠) . مصطفى بهجت باشا (سبتمبر سنة ١٨٧٠ — مايو سنة ١٨٧١) . على مبارك باشا (مايو سنة ١٨٧١ — اغسطس سنة ١٧٧٢). الأمير حسين كامل باشا (اغسطس سنة ١٨٧٢ — اغسطس سنة ١٨٧٣) . مصطفى رياض باشا (أغسطس سنة ١٨٧٣ - مايو سنة ١٨٧٤) . محمد ثابت باشا (مايو سنة ١٨٧٤ - سبتمبر سنة ١٨٧٤) . الأمير طوسن باشا (سبتمبر سنة ١٨٧٤ — اغسطس سنة ١٨٧٥) . يحيى منصور باشا (سبتمبر سنة ١٨٧٥ — يونيه سنة ١٨٧٦) . مصطفى رياض باشا (يونيه سنة ١٨٧٦ — اكتوبر سنة ١٨٧٧) . اسماعيل باشا أيوب (اكتوبر سنة ١٨٧٧ — اغسطس سنة ١٨٧٨) . على باشا مبارك (اغسطس سنة ١٨٧٨ — ابريل سنه ١٨٧٩) . محمد ثابت باشا (ابريل سنة ١٨٧٩ — يوليه سنة ١٨٧٩)

ميزانية التعليم

كان اسماعيل ينفق بسخاء على التعليم ، فقد كانت ميزانية المعارف فى عهد سعيد لا تتجاوز ستة آلاف جنيه[١] . فزادها اسماعيل الى اربعين ألفا ، ثم بلغت كما ذكر على باشا مبارك[٢] ٧٥٫٠٠٠ جنيه منها ٤٨٠٠٠ من وزارة المالية (الميزانية العامة) و ٢٠٫٠٠٠ من ايراد تفتيش الوادى و ٧٫٠٠٠ من ديوان الأوقاف ، وكان التعليم فى معظم المدارس مجانيا

ثم نقصت ميزانية وزارة المعارف فى أواخر عهد اسماعيل بسبب الارتباكات المالية التى سببتها قروضه ، فهبطت الى ٢٠٫٠٠٠ جنيه

---

(١) ادوين دى ليون . مصر الخديوي ص ١٦٢

(٢) الخطط التوفيقية ج ١ ص ٨٩



علي باشا مبارك

(١٨٢٤ - ١٨٩٣)

زعيم نهضة العلم والتعليم فى عصر اسماعيل

على باشا مبارك

(١٨٢٤ — ١٨٩٣)

زعيم نهضة العلم والتعليم فى عصر اسماعيل

ان الحديث عن تقدم التعليم فى عهد اسماعيل يستتبع الكلام عن العلامة على باشا مبارك ، فان اسمه مقرون بهذه النهضة المباركة

فى تاريخنا القومى شخصيات مجيدة تعد أركاناً للنهضة القومية ، لما لها من الأثر البالغ فى تطورها ، وتوجيهها الى المثل العليا فى شتى مظاهرها ، من الناحية الاخلاقية والوطنية ، أو العلمية والأدبية ، أو الاقتصادية والاجتماعية

ومن واجب الوفاء لهذه الشخصيات أن نذكرها دائما بالخير، ونخصص لها ماهى جديرة به من البحث والدرس ، ولا غرو فالشخصيات المجيدة فى تاريخ مصر هى كالكواكب النيّرة فى سماء النهضة القومية

وقد بذلنا ما استطعنا من جهد لدراسة تلك الشخصيات فى الاجزاء الثلاثة من تاريخ الحركة القوميــة ، كلما عرضت المناسبة للكلام عنها ، وهنا ، لمناسبة التعليم والنهضة العلمية فى عصر اسماعيل ، نرى حقا علينا أن نفى بعض هذا الواجب نحو العلامة على باشا مبارك، فهو عماد هذه النهضة ، وقلبها النابض، ورأسها المدّبر ، وهو من الشخصيات الفذة التى سطعت سطوعا قويا فى عهد اسماعيل ، ويعد تاريخه قطعة من هذا العصر ، والعصور التى تلته ، الى عصرنا الحاضر ، والى ما شاء الله

نشأته الأولى (١)

ولد المترجم فى برنبال الجديدة من أعمال مركز دكرنس بمديرية الدقهلية

---

(١) اعتمدنا فى بيان معظم «الوقائع» على ما استخلصناه من ترجمة على باشا مبارك لنفسه فى الخطط التوفيقية ج ٩ ص ٣٩

سنة ١٨٢٤ م ، (١٢٣٩ هـ) ، وأبوه الشيخ مبارك بن مبارك بن سليمان بن ابراهيم الروجى من أهالى هذه الناحية ، وجده الاعلى من ناحية كوم بنى مراس والخليج على بحر طناح ، من أعمال مركز المنصورة ، « ولفشل كبير حصل فى هذا البلد » تشتتت عائلته ، فأقام جده الاكبر ابراهيم الروجى فى برنبال الجديدة ، ونال فيها مكانة عالية ، فكان امامها وخطيبها وقاضيها ، و بقيت هذه المكانة فى نسله ، حتى عرفت عائلتهم بعائلة المشايخ

ولاضطهاد وقع باهل برنبال وارهاقهم بالضرائب الثقيلة هاجرت عائلة مبارك ، وتفرقت فى البلاد ، فنزل والد المترجم بعزبة الحماديين من بلاد الشرقية (بمركز فاقوس الآن) ، وكان ابنه لم يبلغ بعد السادسة من عمره ، ولم تطب لهم الاقامة فى هذه البلدة ، اذ لم يلقوا فيها اكراما ، فارتحلوا منها الى عرب السماعنة بالشرقية ، فأحسنوا وفادة والد المترجم ، واكرموا مثواه ، ولم يكن فى بلدتهم فقهاء ، فجعلوه مرجعهم فى الاحكام الدينية ، و بنوا مسجدا جعلوه امامه ، ولما بدأ يستريح من الشدائد التى عاناها قبل ان يهبط هذا البلد ، أخذ يعنى بتهذيب ابنه وتعليمه ، وكان المترجم قبل رحيله من برنبال ، قد بدأ يتعلم القراءة والكتابة على رجل ضرير من أهلها ، فلما استقر بأبيه المقام بين عرب السماعنه ، أخذ يعلمه بنفسه ، ثم أسلمه الى فقيه اسمه الشيخ احمد ابوخضر ، أصله من ناحية الكردى (وهى بلدة قريبة من برنبال) ، ثم ارتحل الى قرية صغيرة على مقربة من مساكن أولئك العرب ، وهناك حفظ المترجم على يده القرآن فى سنتين

وكان الشيخ يقسو فى معاملته ويضربه ، كما هى عادة الفقهاء والمعلمين مع تلاميذهم فى ذلك العصر ، فامتنع عن متابعة القراءة عليه ، وأبى ان يذهب اليه ، وجعل يقرأ عند أبيه ، لكن أباه كان لا يستطيع التفرغ لتعليمه لكثرة مشاغله ، فتراخى المترجم فى الحفظ والدرس ، وكاد ينسى ماحفظه ، فهم أبوه أن يجبره على الرجوع الى الفقيه ، لكنه أبى ان يعود اليه ، وحدثته نفسه بالهرب لما كان يجده من سوء المعاملة ، فتدخل اخوته فى الامر ، فأبدى لهم نفوره من الحفظ ، وأعرض

عن أن يكون « فقيها »، ورغب أن يكون « كاتبا »، لما كان يراه على الكتاب من حسن الهيئة والقربى من الحكام

وكان لأبيه صديق كاتب بناحية (الأخيوة)، فأسلمه اليه ليتعلم الكتابة على يديه، فلازمه فى داره يتعلم عنه، ولكنه رأى منه قسوة وغلظة، وناله منه أذى شديد، إذ سأله يوماً عن الواحد فى الواحد، فأجابه باثنين، فضربه بعقلاة بن، فشج رأسه، وكان ذلك على ملأ من الناس، فشكاه الى أبيه، فلم يحفل بشكايته، فهرب، وانتهى به المطاف الى العودة وحيدا الى برنبال، وهناك وافاه أخوه الذى كان يبحث عنه، فأعاده الى أبيه، وقد حار فى معالجته وتعليمه، وأبدى المترجم نفورا من الرجوع الى الكاتب أو الفقيه، لما رأى منهما من الايذاء والضرب

فارتأى أبوه أن يعهد به الى صديق له من كتبة المساحين، فرضى بذلك، ولازمه ثلاثة أشهر، ثم انفصل عنه، وبقى فى بيت أبيه يقرأ عليه، وبعد سنة جعله مساعداً لكاتب فى مأمورية أبى كبير، بمرتب قدره خمسون قرشاً، ولكن الكاتب لم ينقده أجره، الى أن تسلم يوماً حاصل الجباية من أبى كبير، فأخذ منه راتبه المتأخر، فنقم منه الكاتب وأغرى به مأمور أبى كبير، واتفق وإياه على تجنيده، فاستدعاه المأمور واعتقله، ووضع الغلّ فى عنقه، ولبث فى السجن بضعة وعشرين يوماً، قاسى فيها مُرّ الشدائد والآلام، ولما علم أبوه بسجنه رفع ظلامته الى محمد على باشا عزيز مصر، وكان إذ ذاك فى منيا القمح، فكتب باخلاء سبيله، وإطلاق سراحه، وعاد أبوه بالأمر ليطلب من المأمور تنفيذه، وقبل أن يحضر جاء السجن صديق للسجان، وأفضى اليه أن مأمور زراعة القطن بناحية أبى كبير فى حاجة الى كاتب، فدلّه السجان على المترجم، ووصفه له بالنجابة، وحسن الخط، وبعد قليل جاء أمر الافراج، وذهب الى مأمور الزراعة، وكان أسود حبشيًّا يدعى (عنبر افندى)، فاتخذه كاتباً عنده مقابل جراية يومية من الخبز، وخمسة وسبعين قرشاً فى الشهر، فارتضى هذا العمل، وكانت سماحة أخلاق عنبر افندى وطيبته مما رغب اليه البقاء فى هذه الوظيفة

ما يؤخذ من نشأته الأولى

إلى هنا ، ليس فى نشأة المترجم الأولى شيء مما يلفت النظر ، لكنها تصلح أن تكون صورة مصغرة للحياة الاجتماعية فى ذلك العصر

فانتقال عائلة المترجم من بلد الى بلد ، من كوم بنى مراس على بحر طناح ، الى برنبال بأقصى الدقهلية شمالا ، ثم الى السماعنه بالشرقية ، كان نتيجة سوء معاملة الحكام للاهلين فى ذلك العصر ، وارهاقهم بالضرائب الجائرة ؛ مما اضطر تلك العائلة ، وكثيرا مثلها ، الى الرحيل فراراً من المطالب التى لم يستطيعوا أداءها ، بعد أن تجردوا من ماشيتهم ومتاعهم ، وتشدد الحكام فى استخلاصها بالسجن والضرب ، فلم يجدوا مخلصا من هذه المظالم سوى الهجرة من موطنهم ، وهذا يعطينا صورة من مظالم الحكام فى ذلك العهد ، إذ لم يكن ثمة قانون يمنع ظلم القوى عن الضعيف ، ويحول دون اعتداء الحاكم على المحكوم ، ولا ضرائب منتظمة معلومة المقدار ، يعرف كل انسان حدود ما عليه منها ، بل كانت متروكة لاهواء الحكام والرؤساء ، فلا جرم أن استهدف آل المترجم للتجرد من متاعهم وماشيتهم ، ثم الى السجن والضرب ، ثم الى الهجرة والتنقل من بلد الى بلد فراراً من المظالم .

وهذه النشأة تعطينا من جهة أخرى صورة لما كانت عليه حالة التعليم قبل أن يألف الناس المدارس الحديثة ، فان فكرة تعليم الابناء كانت موجودة عند الآباء الذين نالوا حظا من العلم ، يدلك على ذلك ميل والد المترجم الى تعليم ابنه قدر مايستطيع ، لكن طريقة التعليم كانت رديئة ، لا تثمر فى تنمية الفكر وتهذيب النفس ، ففقيه القرية ، وكاتب الاخيوه ، وأمثالهما من الفقهاء والعرفاء ، كانوا من الجهل والقسوة بحيث لا ينتج التعليم على أيديهم سوى الجهالة ، و بث روح الخوف والجبن فى أخلاق الشباب ، لان القسوة والضرب يقتلان فى نفس التلميذ روح الشجاعة والاخلاق الفاضلة

وليس فى نشأة المترجم الأولى حالة غير عادية تجعل منه رجلا يختلف عن

معاصريه ، ولكن أمراً واحداً يلفت النظر ، ذلك هو نفوره من الذل ، ومجافاته قسوة المعلم ، فقيها كان أو كاتبا ، أفلا تراه يؤثر الهجرة على احتمال القهر والضرب ؟ ثم ألا تراه كأنما يتقدم عصره ويبذ معاصريه ، فيتطلع الى أسلوب فى التعليم أرقى من الاسلوب العتيق الذى كان مألوفا فى عصره ؟

إن هذه ظاهرة تدل على أن نفس الفتى الصغير تأبى الذل ولا تقيم على الضيم ، وذلك ينبيء عن سمو الخلق ، لان إباء الذل يدل على نفس عزيزة ، وعزة النفس تجمع حولها سمطا من الاخلاق الكريمة ، ولا مراء فى أن تلك النفس العزيزة كانت من أسباب نبوغ المترجم ، فلو هو رضى بالذل والهوان ، لاستمر فى طريقه ، ولم يتجاوز أن يصير كاتبا صغيرا ، مرءوسا لمثل عنبر افندى ، ولكن انظر الى ماحدثته به نفسه ـ وهو يشغل هذه الوظيفة ـ تجد نفسا متوثبة كانت تختلج بين جوانح المترجم

فقد روى عن نفسه انه لما اشتغل كاتبا لعنبر افندى رأى منه رأفة وشفقة وحسن معاملة ، تختلف عما لقيه من كاتب الى كبير ، لكنه شعر بأن لو كان عنبر افندى على غرار ذلك الكاتب ، لما وجد من ينقذه من قسوته وسوء معاملته ، ومن ثم اتجهت نفسه الى أن يكون « بحالة لا ذل فيها ولا تخشى غوائلها » كما يقول المترجم

فهذا الشعور ، هو فيض النفس العزيزة التى تأبى الهوان ، وتطمح الى المعالى ، وهو شعور كريم ، كان له أثره فى حياة على مبارك

وان سمو هذا الشعور ليدعونا فى اعجاب ، ان نتساءل من أين اقتبسه ؟ وكيف اختص به دون اقرانه فى القرية ؟ إن هذا هو سر نبوغ العظماء ، لا نجد له تعليلا دقيقا ، فاذا عللته بتأثير البيئة أو الوراثة ، اعترضك فى هذا أن النابغة قد ينشأ وغيره من الناس فى بيئة واحدة ، ومن أب واحد ، وأم واحدة ، ومع ذلك يتفرد بالنبوغ دون أقرانه واخوته

قد يكون السر فى النبوغ هو الاستعداد الفطرى للنبوغ ، يولد مع صاحبه ، أو هو الالهام الذى يودعه الله نفس النابغة ، أو هو التوفيق والعناية الالهية ، لك

أن تفسره بمعنى من هذه المعانى،أو بها كلها مجتمعة ولكن علينا أن نحسب حسابا لتأثير الوسط والوراثة ، فلاشك أن على مبارك قد اقتبس شيئاً من أخلاق أبيه ، فقد كان جده الاكبر رجلا « معظما مكرما » ، نزل بلدة برنبال، ولم يكن من أهلها، فصار أمامها وخطيبها وقاضيها ، وبعد وفاته بقيت هذه الوظيفة فى نسله ، طبقة بعد طبقة ، فلو لم يكونوا على أخلاق فاضلة ، ونفوس طيبة ، لما احتفظوا بهذه المنزلة ، حتى صارت عائلتهم تعرف بعائلة « المشايخ »

وكذلك لما هجر أبو المترجم ناحية برنبال ، وورد قرية السماعنة ، احتفظ بعزة النفس ، ونال من أهل تلك القرية مكانة ممتازة ، أدركها بعلمه وفضله ، وانك لتلمح عزة نفسه من كونه لم يطق صبراً على اعتقال ابنه ، وذهب الى منيا القمح ، حيث كان عزيز مصر (محمد على باشا) ، ورفع اليه ظلامته ، وشكا اليه ماحاق بابنه من السجن ، فالشكوى من الظلم ، واستصراخ ولى الأمر ، من الأمور التى تحتاج (فى ذلك العصر) الى شىء من الجرأة والشجاعة ، فكم من المظالم كانت ترتكب ، ويستسلم لها المظلومون ، واذا حدثتهم أنفسهم بالشكوى منها ، فقلما تحفزهم الشجاعة الى ابلاغها لأكبر رأس فى الحكومة

فأغلب الظن أن المترجم اقتبس عن أبيه تلك النفس العزيزة ، وهذا فضل يجب أن نسجله لوالد المترجم ، الشيخ مبارك بن مبارك بن سليمان بن ابراهيم الروجى

نشأته الثانية فى المدارس النظامية

إن طموح نفس على مبارك الى المعالى هو الذى سلك به سبيل المدارس النظامية ، ذلك انه حينما اشتغل كاتبا عند عنبر افندى ، أخذ يسأل فراش المأمور عن أخبار سيده ، وأسباب بلوغه هذا المركز الممتاز فى الحكومة ، وكان يدهشه أن عنبر افندى ، وهو أسود حبشى ، يصل الى هذا المنصب ، حين كان يعتقد « ان الحكام لايكونون الا من الاتراك على حسب ما جرت به العادة فى تلك الازمان » ، فعلم من الفراش عن سبب ارتقائه ، انه كان مشترى سيدة من ذوات

المكانة والجاه ، فأدخلته مدرسة (قصر العينى) ، احدى المدارس النظامية التى أنشأها محمد على باشا ، فتعلم فيها وتخرج منها ، وصار أهلا للمركز الذى يشغله ، وعلم أن الحكام يؤخذون من خريجى هذه المدارس

فلما استمع المترجم لهذا الحديث ، مالت نفسه الى دخول تلك المدارس ، ليصل الى ما وصل اليه عنبر افندى ، وأخذ من تلقاء نفسه يسأل عن السبيل الى دخول المدارس النظامية ، وسأل الفراش : هل يدخلها أحد من « الفلاحين » ؟ فقال يدخلها «صاحب الواسطة» ، فتعلقت نفسه بالسعى لدخولها ، واعتزم ترك العمل الذى كان يشتغل به ، والذهاب الى مصر ليلتحق بمدرسة قصر العينى

دخوله مدرسة ميت العز

وما خالجه هذا العزم حتى أصرَّ على انفاذه ، دون أن يكاشف أحداً ، فطلب الاذن من رئيسه باجازة يقضيها فى زيارة أهله ، فأذن له بخمسة عشر يوما ، وسافر الى وجهته .

وفيما هو يسير فى طريقه مر بقرية بنى عياض (١) ، والتقى بجماعة من الاطفال ، يتبعون رجلا خياطا ، وكل منهم يحمل دواة وقلما ، فاجتمع بهم تحت شجرة ، وتعَرَّف حالتهم ، فاذا هم تلاميذ مكتب ميت العز ، أحد المكاتب التى أسسها محمد على باشا ، وكان ذلك فألا حسناً للمترجم ، كما يقول عن نفسه ، اذ أنه حين اجتمع بالاطفال ورأى الخياط خطه أجود من خطوطهم ، رغب اليه أن يدخل مكتب ميت العز ، وأفهمه أن نجباء المكاتب ينتقلون الى المدارس بلا واسطة ، فابتهج المترجم لهذه الفكرة ، اذ وجد فيها بغيته التى ينشدها ، ولم يكن أحب الى نفسه من أن يسلك سبيل الدخول الى المدارس ، ويجتاز تلك العقبة التى أشار اليها فراش المأمور فى حديثه له ، وهى « الواسطة » لدخول المدارس ، ورأى أن الاجتهاد فى المكتب سيغنيه عن تلك الواسطة التى قد لا يجدها

---

(١) بمركز هيها الآن . قبلى ابى كبير بشرق

دخل المترجم مكتب ميت العز ، وناظره من معارف أبيه ، وكان يعلم أن دخول ابنه المكتب لا يرضيه ، فأراد أن يصرفه عن دخوله ، ولكنه رأى منه اصرارا على عزمه ، فبقى بالمكتب خمسة عشر يوما ، وأرسل الناظر الى أبيه ، فجاء يسعى لارجاعه عن عزمه ، فأبى ، فلجأ الى حيلة ينتزعه بها من المدرسة ، فاتفق مع الناظر على أن ينتهز الفرصة فى خروج ابنه الى الفسحة وقت الظهر ، فاختطفه وعاد به قسرا الى بلده ، وحبسه فى البيت عشرة أيام ، وأخذت أمه تبكى وتستعطفه ليرجع عن عزمه ، كى يبقى بينهم ولا يفارقهم ، فوعدها بالبقاء ، ولكنه أسر فى نفسه أن يغتنم أقرب فرصة لفراق أهله وذويه ، والرحيل فى طلب العلم ، وانتظر حتى اطمأنوا الى عدوله عن فكرته ، ولما كانت احدى الليالى تربص حتى ناموا جميعاً ، وأخذ دواته وأدواته ، وخرج من البيت خائفاً يترقب ، وتوجه تلقاء ميت العز وكان ذلك — كما يقول المترجم — آخر عهده بسكناه بين أبويه ، وكانت ليلة مقمرة ، فمشى حتى بلغ ميت العز ضحى الغد ، ولم يشعر الناظر الا وهو داخل المكتب مع زملائه التلاميذ ، وكأنما خشى أن يجىء أبوه ويحتال عليه لاختطافه ثانية ، فلزم المكتب ، لا يخرج منه ليلا ولا نهاراً ، وجاء أبوه غير مرة ليقنعه بالعدول عن عزمه ، ويأخذه بالحسنى ، فلم ينجح فى مسعاه ، واستمر الغلام ملازما المكتب مُكباً على الدرس والتحصيل

انتقاله الى مدرسة (قصر العيني)

بقى المترجم فى مكتب ميت العز الى أن جاء ناظر مدرسة الخانكه (عصمت افندى) لاختيار نجباء التلاميذ من المكتب المذكور ليلتحقوا بمدرسة قصر العينى ، فكان التلميذ على مبارك ممن وقع عليهم الاختيار ، فجاء أبوه يحاول من جديد صرفه عن الذهاب الى المدرسة ، وشكا أمره الى عصمت افندى ، فأحاله على ابنه ، وقال ان الخيار له ، فخيروه بين العودة مع أبيه أو الالتحاق بالمدارس ، فاختار المدارس ، فبكى والده بكاء كثيراً ، وأغرى به جماعة من المعلمين ليستميلوه ، فلم يصغ لهم ، ودخل مدرسة قصر العينى سنة ١٨٣٦ ، وكان لا يتجاوز يومئذ الثانية عشرة من عمره

وهنا تبدو ظاهرة جديدة فى شخصية المترجم ، الى جانب ما ذكرناه عن عزة نفسه ، وطموحه الى المعالى ، وهى ميله الفطرى الى العلم ، وشغفه بالارتواء من منهله العذب ، وما فطر عليه من قوة الارادة ، ومضاء العزيمة

فانظر الى مبلغ حبه للعلم ، والتعلم ، تجده يسعى جهده للالتحاق بالمدارس ، رغم إرادة والديه ، وليس من المألوف بين الأطفال والشبان أن يقبلوا على العلم بوازع من أنفسهم، بل آباؤهم هم الذين يدفعونهم الى دخول المدارس، ويرغبونهم بمختلف الوسائل فى متابعة الدرس ، وكثيراً ما يتعب الآباء فى إيلاف ابنائهم المدرسة والاقبال عليها

فالغلام الذى يتعلق بدخول المدارس رغم إرادة أبويه ، ويستهدف لغضبهما فى هذا السبيل ، لا بد أن يكون قد رسخ فى نفسه شغف شديد بالعلم والتعلم

وتتجلى أيضاً قوة عزيمة المترجم ، فى إصراره على دخول المدارس ، رغم تلك العقبات التى اعترضته ، فمن إغضاب والديه ، الى بعد الشقة ، ووعورة الطريق ، إلى قلة ذات يده ، إلى صغر سنه ، الى المغامرة بنفسه فى حياة يجهلها ولا يعرف مصيرها ، كل ذلك يدل على حظ عظيم من صدق العزيمة وقوة الارادة

فعزة النفس ، والطموح الى المعالى ، وحب العلم ، وقوة الارادة ، هذه هى الصفات التى تطالعنا بها شخصية على مبارك وهو بعد فى سن الطفولة والمراهقة

وسنرى كيف لازمته هذه الصفات فى كل أدوار حياته ، فكان لها ذلك الأثر العظيم فى أعماله

التعلم فى مدرسة قصر العينى

لم تكن مدرسة الطب قد نُقلت بعدُ الى قصر العينى ، حينما جاء مصر على مبارك ، بل كانت لم تزل بأبى زعبل ، أما المدرسة التى كانت بقصر العينى وقتئذ (سنة ١٨٣٦) فهى مدرسة إعدادية للمدارس الحربية والعالية

وصف المترجم التعليم فى تلك المدرسة ، ويؤخذ من وصفه انه لم يكن على درجة حسنة من التقدم ، لا من جهة مستوى التعليم فى ذاته ، ولا من جهة معاملة

التلاميذ ، فقد ذكر أنه وجد المدارس على خلاف ما كان يظن ، وأن مدرسيها ورؤساءها كانوا لا يحسنون فهم وظائفهم ، ولا يعنون بالتلاميذ ، وكان التعليم العسكرى موضع العناية فيها ، فيتمرن الطلبة على الحركات الحربية فى معظم الأوقات ، فى الصباح ، والظهر ، وبعد الأكل ، وفى أماكن النوم ، وكان الضرب وأنواع الايذاء من الأمور المألوفة فى التعليم ، وكذلك قلة العناية بمأكل التلاميذ ومسكنهم ، فكانت مفروشاتهم حصر الحلفاء ، وأحرمة الصوف الغليظ من صنع معمل بولاق ، ولم يكن الأكل الجارى للتلاميذ سائغاً ، فاستعاض عنه على مبارك بالجبن والزيتون

وقد اعتراه فى المدرسة مرض ، لما اجتمع عليه من الأفكار والهموم وتغيير الطقس ، فنقل الى مستشفى المدرسة ، ولقى فى مرضه الشدائد والآلام ، ولحقه الجوع بالمستشفى ، وفيما كان على فراش المرضى ، جاء أبوه الى قصر العينى ، واتصل به بواسطة أحد الممرضين ، ورغب اليه أن يعود معه الى بلده ، فمالت نفسه لاجابته ، وهمّ بترك المدارس ، لما لقيه فيها من التعب والنصب ، ولعدم وجدانه التعليم الذى ينشده ، ولكنه خشى عواقب الهرب من المدرسة ، إذ كانت الحكومة تتعقب الهاربين من التلاميذ ، وتعتقل أهليهم ، وتسىء معاملتهم ، فخشى أن ينال أباه من عنت الحكومة ما لا يرضاه له ، فامتنع عن الهرب ، فعاود أبوه الكرة يستميله ويهون عليه الامر ، فأبى واعتزم « الصبر على قضاء الله » ، ولما شفى انتقل من المستشفى الى المدرسة ، واستأنف الدرس ، ولم يصب بمرض بعد ذلك أثناء دراسته

انتقاله الى مدرسة ابى زعبل

ولما نقلت مدرسة الطب الى قصر العينى سنة ١٨٣٧ تحول تلاميذ القصر الى أبى زعبل ، فانتقل اليها المترجم كسائر تلاميذ المدرسة

وقد شعر بتقدم مستوى التعليم فى مدرسة أبى زعبل ، وينسب المترجم هذا التقدم الى كفاءة ناظر المدرسة ، وهو المرحوم ابراهيم بك رأفت ، وحسن عنايته

بتعليم النشء ، ومما ذكره فى هذا الصدد ، أنه كان فى بداءة عهده يجد صعوبة كبيرة فى تفهم فنون الهندسة والحساب والنحو ، يراها كالطلاسم ، وكلام المدرسين فيها كالسحر ، ولكن ابراهيم بك رأفت أوضح للتلاميذ معانى الهندسة وقواعدها بأسلوب تقبله عقولهم ، فانفتح لحسن بيانه ذهن المترجم ، وبدأ يعى ما يسمع من الدروس

ولفت نجاح التلميذ على مبارك نظر رأفت بك ، فصار يضرب به المثل ، ويجعل نجاحه على يديه دليلا على تأثير أسلوب المدرس فى تثقيف اذهان التلاميذ

وفى سنة ١٨٣٩ اختار ولاة الامور نجباء مدرسة ابى زعبل لالحاقهم بمدرسة المهندسخانة ببولاق ، فكان على مبارك ضمن هؤلاء

دخوله مدرسة المهندسخانة

دخل مدرسة المهندسخانة ، وكان حينئذ يافعا ، إذ بلغ السادسة عشرة من عمره ، فأخذ نضوجه العلمى يزداد وينمو ، ومكث خمس سنوات يتابع الدرس ، حتى استكمل جميع علوم المدرسة ، وظهرت عليه مخايل الذكاء والتقدم منذ دخلها ، فكان دائماً أول فرقته ، وأساتذته فيها طائفة من علماء الرياضيات ، ممن علا ذكرهم فى فجر النهضة العلمية ، أمثال : محمود باشا الفلكى ، وطائل افندى ، ومحمود بك ابوسن ، ودقله افندى ، وابراهيم بك رمضان ، واحمد بك فايد ، وسلامة باشا ابراهيم ، وناظر المدرسة المسيو لامبير بك أحد علماء الفرنسيس ، ولهؤلاء الأساتذة فضل كبير على المترجم ، إذ تلقى على أيديهم العلوم الهندسية والرياضية ، ولم تكن ثمة كتب مؤلفه فى الفنون التى تولوا تدريسها ، بل كان المعلمون يملون ، والتلاميذ يكتبون ما يسمعونه فى كراريس ، كل على قدر اجتهاده ، وكان المعلمون كما شهد لهم بذلك المترجم « يبذلون غاية جهدهم فى التعليم » ، وفى آخر عهده بمدرسة المهندسخانه أخذوا يطبعون الكتب فى مطبعة الحجر ، فاستعان بها التلاميذ ، الى أن تكاثر طبع الكتب المطولة فى العلوم والفنون الرياضية

انتظامه فى سلك البعثات سنة ١٨٤٤

تعددت البعثات العلمية المدرسية فى عهد محمد على باشا ، وقد تكلمنا عنها تفصيلا فى الجزء الثالث من تاريخ الحركة القومية (ص ٤٥١)

وتخرج من البعثات طائفة من النوابغ فى عصر محمد على ، واسماعيل ، ومن حسن توفيق المترجم وحسن استعداده أن انتظم فى سلك البعثة الخامسة ، وهى أكبر البعثات شأناً ، وفيها بعض أنجال محمد على وأحفاده ، ولذلك يسميها على باشا مبارك (بعثة الأنجال)

تولى القائد سليمان باشا الفرنساوى اختيار أعضاء هذه البعثة من نوابغ طلبة المدارس العالية ، فكان التلميذ على مبارك ضمن من اختيروا لها من متقدمى مدرسة المهندسخانة ، وبلغ عددهم فى مبدئها ٧٠ تلميذاً ، منهم الأمير عبد الحليم ، والأمير حسين من أنجال محمد على ، والأمير احمد رفعت ، والأمير اسماعيل (الخديوى) من أنجال ابراهيم باشا ، وضمت طائفة ممن شغلوا المراكز الكبيرة فى الحكومة بعد عودتهم ، أمثال شريف باشا ، وعلى باشا مبارك ، وعلى ابراهيم باشا ، وحماد عبد العاطى باشا ، وسليمان نجاتى بك وغيرهم (١)

وقد بدا من المترجم لمناسبة التحاقه بهذه البعثة مافطر عليه من الميل الشديد الى العلم ، فان المسيو لامبيربك ناظر المهندسخانة رغب اليه البقاء ليجعله مدرساً بها ، وأفهمه أن بقاءه يعجل بترتيب وظيفة له ، على حين أن التحاقه بالبعثة يجعله باقيا فى سلك التلاميذ ، ويفوت عليه تلك المزية ، لكنه آثر الالتحاق بالبعثة ، ليزداد اكتسابا للعلوم . « ولأن سفره مع الأنجال مما يزيده شرفا ورفعة »

سافرت البعثة الى فرنسا سنة ١٨٤٤ ، ووجهتها تعلم الفنون الحربية ، وأقام أعضاؤها سنتين بباريس ، ولاجلهم أنشئت بها المدرسة المصرية لتعليم الطلبة

---

(١) ذكرنا أسماءهم وترجمنا لنوابغهم فى الجزء الثالث من تاريخ الحركة القومية ص ٤٦٥ وما بعدها

اللغة الفرنسية ، واعدادهم لدخول المدارس العليا بفرنسا ، وخصص لهم بها المعلمون والضباط الفرنسيون ، وكان تلاميذ البعثة يتعلمون التعليمات العسكرية كل يوم ، ولقى المترجم فى دراسة اللغة الفرنسية مصاعب جمة ، ذللها بقوة العزيمة ، فقد كان الى عهد انتظامه فى البعثة غير عارف بتلك اللغة ، شأنه فى ذلك كشأن العلامه رفاعة بك رافع الطهطاوى حينما انتظم فى البعثة الاولى ، واقتضى نظام التعليم فى البعثة أن يجعل من المتقدمين فى الرياضيات (ومنهم المترجم) والعارفين باللغة الفرنسية فرقة واحدة ، وكلف المعلمون أن يلقوا الدروس بالفرنسية للجميع ، لا فرق بين من يفهم تلك اللغة ومن لا يفهمها ، ففعلوا ، وأحالوا غير العارفين بها على العارفين ليتعلموا منهم بعد انتهاء الدروس ، ولكن العارفين بالفرنسية كانوا يبخلون على مثل على مبارك بالتعليم لينفردوا بالتقدم

فمكث المترجم مدة لا يفهم الدروس التى يسمعها ، وخشى العاقبة ، فعالج هذه الصعوبة بالصبر والمثابرة ، وقوة العزيمة ، ذلك انه أخذ يدرس الفرنسية بنفسه ، واشترى لهذا الغرض الكتب الأولية فى الهجاء واللغة ، وأكب على مطالعتها وتفهمها وحفظها ، وبذل فى هذا السبيل جهداً لا ينقطع ثلاثة أشهر متوالية ، مع متابعة الدروس التى تلقى بالفرنسية ، فأثمر الحفظ والجهد ثمرة كبيرة وصار أول البعثة كلها ، وكان يتبادل الأولية مع زميليه على ابراهيم وحماد عبد العاطى

ولما جاء ابراهيم باشا قائد الجيوش المصرية المظفرة الى باريس ، أقيم له احتفال حافل ، وحضر امتحان أعضاء البعثة ، فسمع ثناء مستطاباً على حسن اجتهادهم ، ووزع الجوائز بنفسه على الناجحين منهم ، وناول على مبارك الجائزة الثانية بيده ، وكانت نسخة من كتاب فى الجغرافية ، لمؤلفه المسيو مالطبرون ، مع مجموعة خرائطه ، ودعا الطلبة الى تناول الطعام على مائدته ، فكان ذلك تكريماً لهم وتشجيعاً ، وحثاً لهم على متابعة الدرس والتحصيل

يتجلى لك فى هذه الصفحة من حياة المترجم بباريس ، مبلغ قوة ارادته ، ومثابرته على الدرس والتعلم ، وثمة ظاهرة أخرى ، تزين هـذه الصفحة ، وهى بره بوالديه ، وحنوه عليهما ، فقد أجرت عليه الحكومة مرتبا شهريا قيمته خمسون ومائتا قرش ، فجعل نصفها لأهله ، يصرف لهم من مصر كل شهر ، ويكتفى هو بالنصف الآخر ، وكانت هذه سنته معهم منذ دخل المدارس

وهـذا البر بالأبوين يدلك على ماتجملت به نفس على مبارك من الوفاء ، ومكارم الأخلاق ، وانـكار الذات ، ولاشك أن هـذه المزايا مما يزين شخصية المترجم ويزيدها سطوعا وبهاء

التحاقه بمدرسة متز الحربية

ولما انقضى عامان على إقامة البعثة بباريس الحق الثلاثة الأول من أعضائها ، وهم على مبارك وحماد عبد العاطى ، وعلى ابراهيم ، بمدرسة المدفعية والهندسة الحربية الشهيرة بمتز Metz ، ونالوا رتبة الملازم الثانى فى الجيش الفرنسى ، فأقاموا سنتين أخريين يتعلمون الفنون الحربية

وبعد أن أدوا الامتحان النهائى الحقوا بالجيش الفرنسى ، فكان على مبارك فى الألاى الثالث من فرقة المهندسين الحربية ، وقضى به أقل من سنة ، وبديهى انه اكتسب بانتظامه فى هذه الفرقة خبرة كبيرة ، فى الفنون الحربية والهندسية ، فزادت معارفه التى نالها فى مدرسة المهندسخانة ببولاق ، ومدرسة باريس ، ومدرسة متز الحربية والهندسية ، فلا غرو ان صار من نوابغ المهندسين المصريين ، وظهر نبوغه فى ادارته مصلحة السكك الحديدية ، وولايته وزارة الاشغال فى عصر اسماعيل

وكان ابراهيم باشا يرغب فى أن يزداد أعضاء البعثة خبرة وعلما ، وأن يطيلوا مكثهم فى الخدمة العسكرية بفرنسا ، حتى يستوفوا تجاربها ، ثم يتنقلون فى الديار الأوروبية الأخرى ، ليطبقوا العلم على العمل ، ويشاهدوا مافيها من المنشآت الهندسية والحربية ، ولكن المنية حالت دون انفاذ هذا البرنامج ، إذ توفى ابراهيم وخلفه

عباس الأول ، فطلب الى نوابغ البعثة العودة فورا الى مصر ، فرجعوا اليها سنة ١٨٥٠ ، وانتقل المترجم بذلك من حياة التحصيل والدراسة ، الى دور العمل والانتاج

عمل المترجم فى عهد عباس

عاد المترجم كامل النضوج ، واسع الاطلاع ، صادق العزم ، مقبلا على العمل بكل مافيه من نشاط وهمة ، ولو وجد من ولاة الأمور من يستثمر مواهبه وكفاءته فى النهوض باعمال التقدم والعمران ، لظهرت نتائج هذه المواهب حين عودته الى مصر ، لكنه لم يجد من يقدر قيمته ، ويستثمر كفاءته ، فانقضى نحو اربعة عشر عاما ، والبلاد تكاد تحرم من أعماله المنتجة، وخاصة فى عهد سعيد الذى كان يبخسه حقه ، ولا يعرف قدره .

ولم يبدأ عهد انتاجه الكبير إلا فى عصر اسماعيل الذى عرف كيف يوجه هذه القوة الى إحياء النهضة العلمية فى البلاد

تعيينه مدرساً بمدرسة طره الحربية

كان أول مركز شغله على مبارك بعد عودته لمصر أن عين مدرساً بمدرسة طره الحربية ، ولكن التعليم فى عهد عباس باشا الاول كان مصابا بالجمود والاهمال ، فتناقص عدد التلاميذ فى هذه المدرسة ، وخاصة حينما أنشأ عباس مدرسةالمفروزة ، واختار لها الطلبة من جميع المدارس ، بعد الغاء معظمها ، فلم يبق بمدرسة طره الا عدد قليل من الطلبة المتقدمين فى السن ، وأمعنت المدرسة فى التأخر حتى لم يبق فى الفرقة التى يلقى فيها على مبارك دروسه سوى تلميذ واحد

صار المترجم اذن بلا عمل ، وليس هذا مما تميل اليه نفسه ، لانه اعتاد الجد والدأب على العمل ، ولقد حدثته نفسه ان يتخلف عن المدرسة فى اجازة ليزور أهله بعد غيبته الطويلة عنهم ، فرغب اليه ناظر المدرسة فى البقاء حتى لا يقطع نصف راتبه اذا هو غاب عنها

مصاحبته سليمان باشا الفرنساوى

وسعى له الناظر عند الجنرال سليمان باشا الفرنساوى القائد العام للجيش المصرى ، ليصطحبه فى مهمة حربية ، وهى اكتشاف بحيرة المنزلة وسواحل مصر الشمالية ، فتم له ما أراد ، وصحب المترجم سليمان باشا الى دمياط ، وأدى ما كان مطلوباً منه ، وهو ارتياد بحيرة المنزلة ، وخطط رسما مفصلا لمواقعها ، وكتب تقريراً عنها ، ثم ذهب الى بلدته برنبال ، وكان أهله قد رجعوا اليها منذ مدة واستقروا بها

زيارته لأهله

فدخل البلدة ليلا على حين غفلة من أهلها ، وذهب من فوره الى منزل أبويه ، وطرق الباب ، وكان أبوه غائباً بمصر ، ولم يكن بالدار سوى والدته و بعض اخوته ، وكان قد فارق أمه منذ أربع عشرة سنة ، ولم تكن تتوقع حضوره تلك الليلة ، فلما طرق الباب ، قيل من أنت ؟ فقال : ابنكم على مبارك ، فقامت مدهوشة ، وقصدت الى ماوراء الباب ، وجعلت تنظر وتمعن النظر ، لتتحقق الخبر ، وكان هو بردائه العسكرى ،متقلداً سيفه، وحاملاشعار الضباط ،فلم تصدق انه ابنها، حتى أعادت سؤاله ، وتحققت أنه هو ، ففتحت الباب، وما إن رأته حتى ارتمت عليه تعانقه ، ووقعت مغشيا عليها من الدهشة والفرح والتأثر ، ثم أفاقت ، وجعلت تبكى ، وتضحك ، وتزغرد، فأقبل أهل البيت، وجاء الأقارب والجيران يهرعون، وامتلأت بهم الدار ، وانقضى الليل حتى الصباح ، والناس بين رائح وغاد ، يجيئون لتهنئته ، وأقامت أمه الأفراح ابتهاجاً بعودة ابنها العزيز ، و بلوغه هذه الرتبة العالية ، و بعد يومين قضاهما بين أهله وعشيرته ، عاد الى دمياط ، وعرض على القائد سليمان باشا الفرنساوى نتيجة تجواله فى بحيرة المنزلة ، فوقعت عنده موقع الاستحسان ، وأثنى عليه الثناء المستطاب

التحاقه بمعية عباس باشا

وفى أثناء صحبته سليمان باشا الفرنساوى سعى له فى منصب آخر بدلا من

التدريس فى مدرسة طره ، فنجح فى إلحاقه بمعية جاليس بك قومندان الاستحكامات، وكان مقره الاسكندرية

فذهب اليها المترجم ليتسلم منصبه الجديد ، ولكن عباس باشا قرر أن يلحقه بمعيته هو وحماد بك ، وعلى بك ابراهيم ، وكلفهم امتحان مهندسى الأقاليم ومعلمى المدارس ، وأنعم عليهم برتبة الصاغ ، فأدى المترجم هذه المهمة ، واستبدل بالمهندسين القدماء مهندسين أكفاء من خريجى مدرسة المهندسخانة ، وأتم فى خلال ذلك مهمات أخرى هندسية ، إذ أحيل عليه الكشف على شلال أسوان لدرس مشروع تسهيل الملاحة فيه ، فقدم تقريراً وافياً بهذا المشروع

ولما عاد الى القاهرة عهد اليه عباس بالاشتراك مع المسيو موجيل بك Mougel كبير مهندسى القناطر الخيرية وضع نظام لمرور السفن من القناطر التى كان بناؤها قد قارب التمام ، فأدى هذه المهمة ، وأحيلت عليه وعلى زميليه على ابراهيم وحماد عبد العاطى كل الاعمال الهندسية التى تطلبها دواوين الحكومة

مشروع تنظيم المدارس

وشرع عباس فى وضع نظام جديد للمدارس ، بعد أن الغى معظمها ، ففى أواخر سنة ١٨٥١ عرض عليه المسيو لامبير بك ناظر مدرسة المهندسخانة ميزانية للمدارس الملكية والرصدخانة تبلغ ٢٠،٠٠٠ كيس (١٠٠،٠٠٠ جنيه)، فاستكثر عباس هذا المبلغ ، وأحال المشروع على المترجم ، فوضع للمدارس الملكية ميزانية تبلغ خمسة آلاف جنيه ، على أن تكون فى مكان واحد ، و بادارة ناظر واحد ، واستبعد الرصدخانة من المشروع ، لعدم وجودمن يقوم عليها حق القيام، ولكثرة نفقاتها .

نظارته لمدرسة المهندسخانة

ولما عرض المشروع على عباس حاز اعجابه ، وأحاله على مجلس مؤلف من رؤساء الدواوين ، فبحثوه وأقروه ، وأنعم على المترجم لهذه المناسبة برتبة اميرالاى

وعهد اليه بتنفيذه ، وجعله ناظراً لمدرسة المهندسخانة وما يلحق بها من المدارس الملكية ، وكلفه اختيار مدرسى مدرسة المفروزة ، ووضع نظام للتعليم فيها ، واختيار مايلزم لها من الكتب ، فاضطلع بهذه المهمة ، وعظمت منزلته عند عباس باشا

وبذل جهداً عظيما فى ترقيـة شأن المدارس التى تولى ادارتها ، فكان يرشد المعلمين الى خير الطرق للتدريس ، ويتفقد فصول الدراسة وأحوالها ، ويقوم بتأليف الكتب المدرسية بنفسه ، يعاونه بعض المعلمين ، وأنشأ مطبعة حروف ومطبعة حجر طبع فيها للمدارس الحربية والايات الجيش نحو ستين الف نسخة ، من كتب متنوعة ، غير ماطبع فى كل فن بمطبعة الحجر للمهندسخانة ، من الكتب ذات الاطالس والرسوم ، وكان فوق ذلك يلقى بعض الدروس ، كالطبيعة والعمارة ، ويعنى شديد العناية بتوفير حاجات الطلبة فى مآكلهم ، ومشربهم ، وملبسهم ، ويسهر على حسن معاملتهم ، فارتقت حالتهم الفكرية والمعنوية ، وكاد يمتنع الضرب والسجن من المدارس

فى عهد سعيد باشا

اشتراكه فى حرب القرم

يؤخذ ممـا كتبه المترجم عن نفسه انه لم يكن مَرْضياً عنه من سعيد باشا ، فقد ذكر عنه أنه لما تولى الحـكم وشى له بعض الـكاشحين بمدرسة المهندسخانة ، ووصفوها بما ليس له نصيب من الصحة ، واختلقوا عليهـا معايب كثيرة ، حتى أوغروا صدر سعيد على المترجم ، فأمره بالاشتراك فى حرب القرم سـنة ١٨٥٤ ، صحبة الحملة المصرية التى كان يقودها احمد باشا المنكلى

وليس من ضير على الحـكومة اذا عهدت إلى مثل على بك مبارك أن يشترك فى حرب القرم ، فقد نال حظا كبيراً من التعليم الحربى ، وتخرج فى أرقى المدارس الحربية الفرنسية ، ولـكن ملابسات هذا العمل تدل على أن الغرض منه لم يكن الاستفادة من خبرة المترجم الحربية ، إذ لم يُعهد اليه فى حرب القرم بعمل حربى

ذى شأن ، تحرم من أجله مدرسة المهندسخانة كفاءة ناظرها القدير ، ومن جهة أخرى فقد اقترن تكليفه مرافقة الحملة بالغاء مدرسة المهندسخانة ، فالغرض الحقيقى كان إذن ابعاد المترجم ، وإقفال هذا المعهد العلمى العظيم الذى أخذ على عاتقه ترقيته وانهاضه ، فالعمل كما ترى ضرره أكثر من نفعه ، وشره أكثر من خيره ، ولكن اهواء سعيد باشا (وقد كان دائما كثير التقلب فى الآراء) جعلته يصغى لوشاية الدساسين ، و يوصد أبواب تلك المدرسة ، ثم يحرم البلاد خدمات على باشا مبارك العلمية ، ذلك أن على مبارك ، وان كانت دراسته العليا عسكرية ، لكن نفسه اتجهت الى ناحية أخرى غير الحياة الحربية ، وهى ناحية التعليم وتنظيمه والنهوض باعبائه ، فكان واجباً على سعيد باشا أن يستخدم مواهب المترجم فى هذا الميدان ، وأن يعمل على الأقل للمحافظة على نهضة العلم والتعليم التى ازدهرت فى عهد أبيه ، ولكن المعروف أن هذه النهضة قد اضمحلت وتراجعت فى عهد عباس وسعيد ، ولم يعاودها النشاط والحياة الا فى عصر اسماعيل

و يستفاد مما ذكره المترجم انه شعر بأن تكليفه مهمة السفر الى بلاد القرم كان مقصوداً به إبعاده ، والنكاية به ، وهذا مفهوم من قوله : « أقمت بهذه السفرة قريباً من سنتين ونصفاً ، وقد لطف الله بى وأحسن الىّ ، وردّ كيد الحاسدين فى نحورهم ، فانى وإن قاسيت فيها مشاق الأسفار ، وما يلحق المجاهدين من الارجاف والاضطرابات ، والحرمان من المألوفات ، لكنى رأيت بلاداً وعوائد كنت أجهلها ، وعرفت أناساً كنت لا أعرفهم ، واكتسبت فيها معرفة اللغة التركية » ، فيؤخذ من ذلك ان ثمة حاسدين كانوا يكيدون له ، ومن مكايدهم أنهم دبروا أمر ابعاده الى بلاد القرم ، وارساله الى ميادين الحروب المحفوفة بالمكاره والأخطار ، ولكن الله لطف به اذ رد كيدهم ، وعاد من الحرب سالماً وقد نال مزايا جمة

والواقع انه أفاد كثيراً من هذه الحملة ، فان الاشتراك فى الحروب من شأنه أن يقوى فى النفس روح الشجاعة والاقدام ، ولو اشترك المترجم فى اقتحام المخاطر ، والبقاء فى خط النار ، لكان أثر هذه الحملة فى نفسه أقوى وأعظم ، ولزاد حظه من

الشجاعة والجرأة ، ولوقف من الحكومات المتعاقبة التى تولت الحكم فى مصر مواقف أعظم شأناً من خطة اللين والمسالمة التى اختطها لنفسه ، ومهما يكن من الأمر ، فلا نزاع فى أن مداركه قد اتسعت وخبرته قد اكتملت فى تلك الحرب

أقام المترجم عشرة أشهر فى بلاد القرم ، وكان يعهد اليه أمر المفاوضات والمخابرات بين الروس والترك ، وأقام ثمانية أشهر أخرى فى بلاد الأناضول ، أغلبها فى مدينة (كومشخانه) ، وكان منوطاً به تسهيل نقل الجند من مدينة طرابزون الواقعة على البحر الأسود ، الى مدينة أرض روم بأرمينيا ، وعلى أن هذه المهمة ليست من ضروب القتال الفعلية ، فقد لاقى فيها الشدائد والأهوال ، لشدة البرد ، وكثرة الثلج فى تلك الجهات ، ووعورة طرقها ، وصعوبة اجتياز ما فيها من العقبات ، بين جبال شاهقة ، وأودية سحيقة

وقد مرض كثير من الجند لما أصابهم من البرد القارس ، وأنشأ لهم المترجم مستشفى بكومشخانه ، نظمه تنظيما حسناً ، ونال ثناء أعيان المدينة وأكابرها ورؤساء الجيش

عودته الى مصر والوظائف التى تولاها

ولما عاد المترجم الى مصر اعترضته فى الحياة عقبات ومتاعب جمة ، ذلك أن سعيد باشا أمر باخلاء سبيل الجنود وإرجاعهم الى بلادهم ، ورفت كثيراً من ضباط الحملة ، ومنهم على بك مبارك ، فسكن فى بيت صغير ، وعانى غضاضة العسر والضيق ، وصارت حالته بعد سبع سنوات من عودته من فرنسا ، كحالته عند ما عاد منها ، وفقد ما كان يناله ويؤمله من المناصب ، وفقد ماله ، وشعر بمرارة اليأس تنغص عليه حياته ، وداخله الهم والكدر ، وحدثته نفسه أن يرغب عن خدمة الحكومة والتطلع لمناصبها ، إذ لم يجد من ولاة الأمور إنصافاً ولا تقديراً ، واعتزم الرجوع الى بلده والاشتغال بالزراعة ، وقال لنفسه : « عوضنا الله خيراً فى نتائج الفكر وثمرات المعارف ، ولنفرض أننا ما فارقنا البلد ، ولا خرجنا منها »

وبينما كان يتأهب للرجوع الى بلده صدر الامر للضباط المرفوتين بالحضور الى

القلعة ، فكان هو ممن أعيدوا للخدمة ، فعدل عن عزمه الأول

وبعـد قليل عين معاوناً بوزارة الحربية ؛ وأحيل عليه النظر فى التحقيقات الخاصة بالمصانع الحربية والجبخانات (مخازن البارود) ، ولم يكن هذا العمل مما تألفه نفسه ، لتفاهته وعقمه ، ولـكنه راض نفسه على الصبر ، عسى الله أن يأتى بالفرج القريب ، وحدث أثنـاء قيامه بهذه الوظيفة أن شرع وزير الحربية وقتئذ (اسماعيل باشا الفريق) فى وضع رسم لبعض المناورات الحربية ، فعجز عن عمله ، وحار فى إتمامه ، فاستدعى على بك مبارك لما كان يعهده فيه من الـكفاءة والخبرة ، فوضع الرسم المطلوب ، فأثنى عليه الفريق ، ووعده بأن يذكره بالخير عند سعيد باشا

وقد وفى اسماعيل باشا بما وعد ، وكان من نتيجة مسعاه أن أمر سعيد بالحاق المترجم بمستودعى الداخلية ، وكان يحال عليه النظر فى بعض القضايا ، ثم عهدت اليه وكالة المحكمة التجارية ، فاضطلع باعبائها بأمانة ونزاهة ، ولـكن سلفه فيها وشى به لدى سعيد باشا ، فرفت منها ، وعاد كما بدا ، عاطلا من المنصب ، واعتكف فى بيته ثلاثة أشهر ، ثم عين مفتشاً لهندسة نصف الوجه القبلى ، ثم استدعاه سعيد باشا ، وعهد اليه بوضع مشروع استحكامات الحماد ، وهو مشروع جليل الشأن ، كان الغرض منه تحصين موقع الحماد (جنوبى رشيد) ، بين فرع رشيد وبحيرة ادكو ، لمنع العدو من مهاجمة القطر المصرى من هذه الناحية ، فوضع المترجم الرسم المطلوب لهذه الاستحكامات ، وأدى المهمة على خير مايرام ، ولـكنه عند ماأراد ان يعرض الرسم على سعيد باشا لم يستطع تقديمه اليه ، وتردد عليه آنا فى طره ، وآونة فى قصر النيل ، فلم يتيسر له مقابلته ، واضطر لملازمة معيته فى السفر من بلد الى بلد مدة ثلاثة أشهر ، بلا راتب ، ولا عمل ، دون ان يظفر بتقديم الرسم المطلوب ، الى أن رآه سعيد يوما فى الجيزة ، فذكر الرسم الذى كلفه به ، وسأله عنه ، فقدمه اليه ، فنظر فيه قليلا ولم يزد عن قوله « ابقه حتى نجد وقتا لامعان النظر فيه » وكانت هذه الاجابة نتيجة الانتظار مدة ثلاثة أشهر ، ثم لم يلتفت اليه بعد ذلك ، ولـكنه أمر بربط مرتب للمترجم ، وبقى فى معيته

زمنا بلا عمل الى أن أصدر سعيد أمره باختيار بعض المعلمين لتعليم الضباط وصف الضباط الخارجين من تحت السلاح القراءة والكتابة والحساب ، فتقدم على بك مبارك للقيام بهذه المهمة ، ليشغل نفسه بعمل ما ، مهما كان ضئيلا ، لان نفسه كانت تعاف الكسل والبطالة ، فصار يدرس لهم حروف الهجاء ، والخط والمبادئ الأولية فى الرياضيات ، والقواعد الهندسية ، وعاونه فى التدريس اثنان من المدرسين ، ووضع فى ذلك كتابا مختصرا فى الحساب والهندسة وطرق الاكتشافات العسكرية سماه (تقريب الهندسة)

وكان يشغل اوقات فراغه بالمطالعة لتدوين بعض الملاحظات على مايقرؤه ، جمعها بعد ذلك فى كتاب سماه (تذكرة المهندسين) يحتوى على فنون شتى مما يحتاج اليها المشتغلون بالهندسة ، ولما اعتزم سعيد باشا السفر إلى أوروبا أمر برفت أغلب من كان بمعيته ، فكان المترجم ضمن المرفوتين

وأمر قبل ذلك ببيع مهمات مدرسة المهندسخانة وأدواتها وكتبها ضمن كثير من تعلقات الحكومة التى اعتبرت «زائدة عن الحاجة» ، فدهش المترجم ، إذرأى هذه النفائس تباع بالمزاد بأبخس الأثمان ، وفى جملتها الكتب التى طبعها أثناء نظارته لهذه المدرسة ، فدخل المزاد واشترى من هذه الاشياء ما أمكنه ابتياعه

ولما اشتد الضيق بالمترجم فكر فى الاشتغال بالتجارة ، فاتجر فيما اشتراه ، وعامل التجار ، وكثر منه البيع والشراء ، فربح واستعان بالربح على الانفاق وأداء بعض الحقوق ، واستمر يتجر مدة شهرين ، ثم فكر فى التفرغ للتجارة والاعراض عن مناصب الحكومة ، لما رآه من اضطراب الاحوال وتقلب الأمور ، مما كاد يفقده ثمرات العلوم ، وشعر بأنه كلما تقدم به العمر وكثر بنوه ، نفد ماجمعه من الكد والتعب ، فآثر الاحتراف بالتجارة ، وجال بخاطره ان يعقدو بعض زملائه المهندسين المتقاعدين شركة ، يجعل الغرض منها بناء البيوت للبيع والتجارة ، فيربحون منها ويستثمرون فيها معارفهم الهندسية وخبرتهم الفنية ، فلم يجد من يوافقه على مشروعه ، ففكر فى القيام به بنفسه ، وفيما كان يفكر فى مخرج من الضيق الذى اشتد به طرق

سعيد باشا طارق المنون فى أوائل سنة ١٨٦٣ ، فكان لوفاته أثر كبير فى حياة المترجم ، ذلك أن اسماعيل لم يكد يعتلى العرش حتى فكر فى استخدام مواهب زميله القديم فى البعثة ، فانفتح باب الأمل والتوفيق أمام على بك مبارك

أعماله فى عهد اسماعيل

لما تولى اسماعيل الحكم ألحق المترجم بمعيته ، ثم جعله ناظراً على القناطر الخيرية ، وكانت الى ذلك الحين لم تستخدم أبوابها الحديدية المعدة لاقفال عيونها ، والمانع من اقفالها ماقرره المهندسون من أن القناطر لاتتحمل ضغط المياه قبل تقويتها ، وترتب على ذلك أن معظم المياه تحولت الى فرع رشيد ، وحرم فرع دمياط مرور المياه فيه ، فلما عرض الامر على المترجم ارتأى اقفال قناطر فرع رشيد ، لتغذية فرع دمياط ، فعمل الخديوى برأيه ، وأمر باقفالها ، فانحدرت المياه الى فرع دمياط ، ونالت البلاد التى تروى منه منافع الرى وخيراته ، وأما الخلل الذى كان متوقعا حصوله فى بعض العيون بقناطر فرع رشيد فقد تلافاه المترجم ، إذ أقام حاجزاً من الخشب أحاط بالقناطر ، فنشأت خلفها جزيرة من الرمل حفظتها من ضغط المياه ، وهكذا تبين صواب الرأى الذى ارتآه على بك مبارك

ولما حفر رياح المنوفية[1] أحيل على المترجم انشاء قناطره ومبانيه ، فأقامها على أحسن نظام ، وفى سنة ١٨٦٥ ندبته الحكومة المصرية عضوا عنها فى اللجنة التى ألفت لتقدير الأراضى التى صارت حقا لشركة القناة طبقا لحكم الامبراطور نابليون الثالث ، فأدى هذه المهمة خير الاداء

وكالة وزارة المعارف

وفى سنة ١٨٦٧ جعل وكيلا لوزارة المعارف العمومية (ديوان المدارس) ، وكان يتولى هذه الوزارة شريف باشا الوزير المشهور ، فتقلد المترجم منصبه الجديد مع

(١) حفر رياح المنوفية لأول مرة فى عهد سعيد باشا وأعيد حفره وتعميقه فى عهد اسماعيل

بقاء نظارة القناطر الخيرية فى عهدته ، و يبدأ من ذلك الحين عهد جديد للمترجم إذ صار له بحكم منصبه النفوذ الكبير الذى يسمح له بانفاذ اصلاحاته فى دائرة التعليم العام

كان من مزايا المترجم أنه يتقن كل عمل يتولاه ، و يبذل كل مافى وسعه ليقوم به على الوجه الاكمل ، فانتهز ندب الخديوى اسماعيل اياه لرحلة مالية الى باريس عقيب تعيينه وكيلا لوزارة المعارف ، وأخذ يستكمل معلوماته عن حالة التعليم ونظام المدارس فى فرنسا ، ليقتبس مايراه صالحا لمصر ، ومع أن رحلته هذه لم تتجاوز خمسة وأربعين يوما بما فيها الذهاب والاياب ، فقد اطلع على مناهج التعليم فى المدارس الفرنسية ، والكتب المقررة فيها ، ودرس أيضاً نظام المجارى العامة المبنية تحت الارض فى باريس

توليته وزارة المعارف والاشغال

و بعد عودته الى مصر أنعم عليه الخديوى اسماعيل سنة ١٨٦٨ برتبة الميرميران ، فصار يعرف من ذلك العهد بعلى باشا مبارك ، وأسند اليه ادارة مصلحة السكك الحديدية ، ووزارة المعارف والاشغال ، و بعد قليل ضمت اليه نظارة ديوان الاوقاف ، فجمع بين هذه المناصب الرفيعة ، مع بقائه ناظرا للقناطر الخيرية والتحاقه بالمعية

العصر الذهبى فى حياة المترجم

وهنا يبدأ العصر الذهبى فى حياة المترجم ، وهو العصر الذى حفل بالاعمال العظيمة ، التى خلدت اسمه فى تاريخ مصر الحديث ، وخاصة فى نهضتها العلمية

وأول مايلفت النظر فى هذا الدور من حياته ، كفاءته الممتازة فى اضطلاعه باعباء الوزارات المختلفة ، فقد كان فى وقت واحد وزيرا للمعارف ، والاشغال ، والأوقاف ، ومديرا عاما للسكك الحديدية ، وناظرا للقناطر الخيرية ، وهى مهام جسام ، تنوء بالعصبة من الرجال ، ولكن على باشا مبارك قام بها جميعا ، وأظهر من الكفاءة وقوة الارادة والجلد على العمل ما يدعو حقا للاعجاب ، وصدقت كلمته المتواضعة التى قالها فى هذا الصدد عن نفسه « فبذلت جهدى ، وشمرت عن ساعد جدى ، فى مباشرة تلك المصالح ، فقمت بواجبها »

وهنا تتجلى ميزة كبيرة للمترجم ، تطالعنا بناحية من نواحى شخصيته ، وهى مقدرته على الاضطلاع بالمهام العظام ، فقد يكون لعلى باشا مبارك أنداد فى العلم والذكاء بين زملائه الذين تولوا مختلف الوزارات والمناصب العالية ، ولكننا نعتقد أنه بذ أقرانه فى الجمع بين مزايا متعددة، وهى الكفاءة ، والجد على العمل، والاخلاص ، والنزاهة فى أداء واجبه ، واتقان الأعمال الكبيرة التى تعهد اليه، على ماتقتضيه من جهود ومتاعب ، فالرأس الذى يسع وزارات المعارف ، والاشغال ، والاوقاف ، مع ادارة مصلحة متشعبة الاعمال كالسكك الحديدية ، والكفاءة التى تضطلع بكل هاتيك المصالح، والهمة التى تصرف شؤونها المختلفة ، وتبتكر لها المشاريع الجمة ، كل ذلك لايصدر الا عن نبوغ فذ ، وهذا وحده يعطينا فكرة صادقة عن شخصية المترجم

وزع على باشا مبارك أوقاته بين هذه الوزارات المختلفة ، فخصص نصف النهار من الصباح الى الظهر للمعارف والاشغال والاوقاف ، ومن بعد الظهر الى الغروب لادارة السكك الحديدية

فى وزارة المعارف

كانت معظم جهوده موجهة الى ترقية شؤون التعليم فى البلاد

نقله المدارس الى درب الجماميز

وأول أعماله نقل المدارس من العباسية الى درب الجماميز ، ذلك انه رأى مايتكبده التلاميذ وأهلوهم والاساتذة من المتاعب والمشاق والنفقات ، فى ذهابهم الى العباسية ، وايابهم منها ، فاستصدر من الخديوى اسماعيل اذنا بنقل المدارس الى درب الجماميز ، وخصص لها سراى الامير مصطفى فاضل ، فأصلحها على باشا مبارك ، وجعلها على استعداد لايواء المدارس والمعاهد ، وخصص سلاملك السراى لوزارة المعارف ، وجعل كل مدرسة فى ناحية من السراى ، فصارت أشبه

ماتكون بالجامعة ، وجعل بها أيضا وزارة الاشغال ، وديوان الاوقاف ، فسهل عليه القيام باعباء الوزارات المختلفة

ومع اضطلاعه باعباء هذه الوزارات ، كان لا ينفك يعنى بتفقد أحوال التلاميذ والمعلمين فى المدارس ، ويدخلها كل يوم ليشهد بنفسه سير التعليم فيها ، وليطمئن على حسن نظامها وقيام المدرسين بواجباتهم

لائحة التعليم وانشاء المدارس الابتدائية

وقد وجه عنايته منذ تولى وكالة الوزارة الى اصلاح التعليم فى المكاتب ، وتحويل مايمكن تحويله من الكتاتيب الى مدارس ابتدائية نظامية فوضع لذلك لائحته المشهورة بلائحة ١٠ رجب سنة ١٢٨٤ التى نظمت المدارس ، ودعا طائفة من المشتغلين بالتعليم ليراجعوا المشروع ويبحثوه ، ويبدوا آراءهم فيه ، فدرسوا اللائحة وأقروها ، وصدر أمر الخديوى باجراء العمل بمقتضاها فى مايو سنة ١٨٦٨

وانشىء فى عهده كثير من المدارس الابتدائية النظامية فى القاهرة وعواصم المديريات

وكان لاجتماع وزارة المعارف ونظارة ديوان الاوقاف فى يده أثر كبير فى نهضة التعليم ، لأنه بما له من سلطة النظر على الأوقاف الخيرية استطاع اعداد كثير من الامكنة الموقوفة لجعلها معاهد للتعليم بعد اصلاحها ، ولو لم تكن له هذه السلطة لبقيت هذه المبانى معطلة لا ينتفع بها ، ولعجزت الحكومة عن النفقات التى يقتضيها انشاء معاهد جديدة ، وكذلك أمكنه بما له من حق الاشراف على معاهد العلم الموقوفة ان ينظمها ويحولها الى مدارس نظامية ، فأحيا هذه المعاهد بعد مادرست فى أيدى نظار الوقف الخاملين ، وكذلك أحسن ادارة أموال الاوقاف الخيرية ، واستخدم جانبا منها فى الانفاق على التعليم بعد ان كانت تبدد وتضيع هباء

وجعل على أهالى التلاميذ المقتدرين مصروفات قليلة تؤخذ منهم برغبتهم على حسب اقتدارهم ، مع ترك الباقين مجانا ، واستوفى باقى نفقات المدارس من ايراد

الاوقاف الخيرية الموقوفه على المكاتب وغيرها من وجوه الخيرات ، وخصص لها الخديوى اسماعيل ايراد اطيان تفتيش الوادى بالشرقية ، كما منحها بعض الاملاك التى آلت الى بيت المال من بعض التركات ، فكانت هذه الموارد هى التى ينفق منها على تلك المدارس عدا ماخصص لها فى الميزانية السنوية والمصروفات الضئيلة التى يدفعها أهالى التلاميذ ذوى الاقدار واليسار

معلمو المدارس

إن وضع نظام صالح للتعليم يقتضى توفير العدد الكافى من الاساتذة الاكفاء وقد حل على باشا مبارك هذه المعضلة بما أوتى من خبرة ، ونظر صادق ، وعزيمة ماضية ، فأنشأ « دار العلوم » كما سيجىء بيانه ، لتخريج أساتذة اللغة العربية ، واختار لتدريس بقية العلوم ، كالرياضيات والتاريخ والجغرافية واللغات الاجنبية نجباء التلاميذ المتقدمين ممن أتموا دروسهم فى المدارس العالية ، كالمهندسخانة ومدرسة المحاسبة ، ومدرسة الادارة (الحقوق) ، بان يجعلوا أولا معيدين لدروس المعلمين زمنا ، ثم يصيرون معلمين استقلالا ، ولم تكن مدرسة المعلمين العليا قد انشئت بعد

دار العلوم

هى من أجل منشئآت على باشا مبارك ، أسسها سنة ١٨٧٢ ، والغرض الاصلى منها تخريج أساتذة اللغة العربية والآداب للمدارس الابتدائية ، ثم للمدارس كافة

ومرجع الفكرة فى تأسيسها ، انه لما انشئت المدارس الابتدائية ، واتجه العزم الى الاكثار منها ، مست الحاجة الى طائفة من الاساتذة لتدريس اللغة وآدابها فى المدارس الحديثة ، فأرتأى المترجم انشاء مدرسة عالية دعاها « دار العلوم » لتخريج أولئك الاساتذة ، واختار تلاميذها من طلبة الازهر ، ممن حفظوا القرءان الشريف وتلقوا دروس اللغة والفقه ، واختيروا لهذه المدرسة بالامتحان ، واشتمل برنامج التعليم فيها على العلوم التى لاتدرس فى الازهر ، كالحساب والهندسة والطبيعة والجغرافية والتاريخ والخط ، مع إتقان علوم الازهر من لغة ونحو وتفسير وحديث وفقه

واختار المترجم للتدريس فى دار العلوم جماعة من جلة العلماء الاكفاء فى العلوم الازهرية والعلوم العصرية ، وجعل التعليم فيها مجانياً ، مع دفع مرتب شهرى للتلاميذ

وقد أثمرت المدرسة ، وتخرج منهـا أساتذة اللغة والآداب العربية للمدارس الابتدائية فى القاهرة والاقاليم ، ثم للمدارس الثانوية والعالية ، ويعد انشاء دار العلوم أعظم خدمة أسداها المترجم لاحياء اللغة العربية وآدابها فى مصر

دار الكتب

أسست سنة ١٨٧٠

أنشئت دار الكتب سنة ١٨٧٠ ، ولتأسيسها مقدمات ترجع الى عهد محمد على ، فقد أنشأ مستودعا لبيع مطبوعات الحكومة فى بيت المال القديم ، خلف المسجد الحسينى ، ولما ولى اسماعيل الحكم أضاف اليها نحو الفى مجلد من المحفوظات العربية والفارسية ابتاعها من تركة حسن باشا المناسترلى ، ثم تطورت الفكرة الى انشاء دار عامة للكتب

ويستفاد مما ذكره على باشا مبارك فى الجزء التاسع من الخطط (ص ٥١) أن فكرة تأسيس دار الكتب ترجع الى الخديوى اسماعيل ، فانه رغب فى انشاء مكتبة عامة تجمع الكتب المتفرقة فى مخازن الحكومة ، ومكاتب الاوقاف وفى المساجد ونحوها ، وأمر المترجم بالنظر فى ذلك ، فحقق الفكرة ، وأنشأ دار الكتب فى سراى درب الجماميز بجوار المدارس

ولكن يؤخذ مما جاء فى الجزء الثالث من الخطط (ص ١٤) ان صاحب الفكرة فى هذا المشروع الجليل هو على باشا مبارك ذاته ، فقد قال فى هذا الصدد « ثم ظهر لى أن أجعل كتبخانة خديوية ، داخل الديار المصرية ، أضاهى بهـا كتبخانة باريس ، فاستأذنت الخديوى اسماعيل باشا فى ذلك ، فاذن لى ، فشرعت فى بناء الكتبخانة الخديوية هناك أيضا (بدرب الجماميز) ، وبعد فراغها جمعت فيها ماتشتت من الكتب التى كانت بجهات الأوقاف ، زيادة على ماصار مشتراه من الكتب العربية والفرنجية وغيرها ، وجعلت لها ناظراً ، ورتبت

لها خدمة ومعاونين ، وعملت لها قانوناً لضبطها ، وعدم ضياع كتبها ، فجاءت بعون الله من أنفع التجديدات التى حدثت فى عهد الخديوى اسماعيل باشا ، وحصل بها النفع العام، للخاص والعام »

وقد ابتاع اسماعيل باشا مجموعة الكتب القيمة التى تركها أخوه الأمير مصطفى فاضل بعد وفاته ، وأهداها الى دار الكتب

وأنفق على الدار من ميزانية المدارس ، وفتحت أبوابها لطلاب العلوم والمعارف، وسهلت لهم الاطلاع على كتب ومؤلفات ومخطوطات ما كان يمكنهم الوصول اليها لولا إنشاء هذه الدار، فأدت ولا تزال تؤدى خدمات جليلة للنهضة العلمية والأدبية

مجلة (روضة المدارس)

ومن أجل منشآته العلمية إنشاء مجلة روضة المدارس على نفقة وزارة المعارف وباشرافها ، وسنتكلم عنها فيما يلى

مدرج المحاضرات (الانفتياتر)

ورتب دروساً عامة أو محاضرات دورية بالانفتياتر (المدرج) بسراى درب الجماميز سنة ١٨٧١ ، فعهد الى النابهين من أساتذة المدارس إلقاء هذه المحاضرات لتثقيف أذهان الطلبة

وكان يشجع هذه الحركة فيحضر المحاضرات بنفسه ، وحذا حذوه كبار الموظفين فى مختلف الوزارات ، وخاصة وزارة المعارف ، وكان يحضرها أيضاً عدا طلبة المدارس العالية ، فريق من طلبة الأزهر وهم الذين صاروا نواة دار العلوم التى أنشئت سنة ١٨٧٢

وتولى إلقاء المحاضرات طائفة من العلماء المشار اليهم بالبنان ، فكان الشيخ حسين المرصفى يدرس الآداب العربية ، واسماعيل بك (باشا) مصطفى الفلكى ناظر المهندسخانة يدرس علوم الفلك باللغة العربيـة ، ومنصور افندى احمد أحد أساتذة المهندسخانة ، يلقى محاضرات فى الطبيعيات ، وفرانس بك (باشا) كبير

مهندسى الاوقاف فى المبانى ، وجيجون بك ناظر مدرسة الفنون والصنائع فى الميكانيكا ، وبروكش باشا ناظر مدرسة اللسان المصرى القديم فى التاريخ العام ، والشيخ عبد الرحمن البحراوى فى فقه الامام أبى حنيفه ، والشيخ احمد المرصفى فى التفسير والحديث . والمسيو بكتيت فى الطبيعيات ، واحمد بك ندا فى علم النبات وغيرهم الخ الخ (١)

معمل الكيمياء والطبيعة

وانشأ بدرب الجماميز أيضاً معملا للكيمياء والطبيعة لتوسيع مدارك التلاميذ فى العلوم الطبيعية واطلاعهم على تجاربها ومشاهداتها والمران على استعمال الآلات الرياضية والطبيعية

أعماله الهندسية

ان شهرة على باشا مبارك تقوم فى الغالب على خدماته الجليلة للتعليم ، على أن له مآثر أخرى فى أعمال العمران التى تمت فى عهد اسماعيل ، منها مايختص بالرى ، ومنها مايتعلق بتنظيم القاهرة والمدن الاخرى

فليس يخفى أنه بولايته وزارة الاشغال سنة ١٨٦٨ ، قد عهد اليه الخديوى بمعظم الاعمال الهندسية التى استحدثت فى ذلك العهد

فاشترك فى تنظيم القاهرة ، وتوسيع شوارعها وحاراتها ، وانشاء احيائها الجديدة ، ومعظم الاعمال التى تمت من هذا القبيل نفذت فى عهده ، مثل شارع محمد على ، وميدانه ، وشوارع الازبكية ، وميدانها ، والشوارع المنشأة بعابدين ، وباب اللوق وغيرها مما هو بداخل المدينة وخارجها

قال فى هذا الصدد « وجرى العمل على ذلك ، فظهرت كل هذه المبانى الحسنة ، والشوارع المستقيمة المتسعة المحفوفة بالاشجار الخضرة النضرة ، المستوجبة للقادمين على المدينة انشراح الصدور ، والفرح والسرور ، وازيل ما كان بجهتها البحريه من التلال التى كانت تمتد من جهة الفجالة الى قرب باب الفتوح ، ثم

---

(١) عن كتاب (التعليم العام فى مصر) لامين سامي باشا ص ٢٤

تبرع الخديوى اسماعيل للراغبين بمواضع كثيرة ، فأنشأوا بهـا المبانى المشيدة ، والبساتين العديدة ، وناهيك بقصور الاسماعيلية ، ودورها و بساتينها وشوارعها ، التى يكل الوصف عن محاسن بهجتها »

واشترك فى استحداث الانارة بغاز الاستصباح ، واقامة وابور المياه لتغذية القاهرة بماء الشرب الصالح بواسطة شركتى النور والمياه ، واقامة (كوبرى) قصر النيل البديع ، وغير ذلك من الاعمال النافعة

وساهم أيضاً فى أعمال العمران بمدينة الاسكندرية والسويس ، وما أقيم فى المديريات من الدواوين ، والجسور ، والقناطر ، والترع ، قال فى هذا الصدد «وهذه الاعمال جميعها أو أكثرها كنت أباشر أمورها من رسومات وشروط مع المقاولين ونحو ذلك ، لتعلقها بديوان الاشغال ، فكنت فى مدة احالة هذه الدواوين على مشغولا بالمصالح الاميرية ، وتنفيذ الأغراض الخديوية ، ليلا ونهاراً ، حتى لا أرى وقتاً التفت فيه لاحوالى الخاصة بى ، ولا أدخل بيتى الا ليلا ، بل كنت أفكر فى الليل فيما يفعل بالنهار »

وكان متوليا وزارة الاشغال عند افتتاح قناة السويس ، فعهد اليه الخديوى اسماعيل إعداد معدات حفلاته الفخمة

ومن أعماله فى ديوان الاوقاف أنه حكَّر كثيراً من أراضى القاهرة للراغبين فى بنائها ، مقابل حكر ضئيل يدفعونه كل سنة ، فعمرت جهات كانت من قبل خرابا بلقعاً ، وأقيمت المبانى والعمائر فى أخطاط عديدة من المدينة

و بادارته مصلحة السكك الحديدية اشترك فى مد كثير من الخطوط الحديدية وانشاء محطاتها

انفصاله عن الوزارة ثم عودته

انفصل المترجم عن إدارة السكك الحديدية ، ثم عن وزارة المعارف (فى سبتمبر

سنة ١٨٧٠)،وعن الاشغال ثم عن الاوقاف،لخلاف وقع بينه وبين اسماعيل صديق باشا (المفتش) وزير المالية المشهور بحظوته عند الخديوى اسماعيل ، ذلك أن المفتش رغب فى أن يضم ايراد السكك الحديدية الى وزارة المالية ، فلم يقبل على باشا مبارك هذا الضم الا إذا تعهدت المالية بجميع نفقات المصلحة ، فوقع الخلاف بين الرجلين ، ووشى اسماعيل صديق بالمترجم عند الخديوى ، فأدى ذلك الى انفصاله عن الوزارات التى كان يقوم باعبائها ، ولزم بيته ، على أن انفصاله لم يدم طويلا ، ولعل الخديوى شعر بالفراغ الذى ترتب على انفصاله عن العمل ، ولم يجد من بين وزرائه من يسد هذا الفراغ ، فعهد اليه ثانيا بوزارة المعارف (١٣ مايو سنة ١٨٧١) ثم بالنظر على ديوان الاوقاف، وبعد قليل أعيد الى ديوان الاشغال ، وبقى يتولى وزارة المعارف الى اغسطس سنة ١٨٧٢

ثم عَنَّ للخديوى أن يعين ابنه الامير حسين كامل باشا (السلطان حسين كامل) ناظراً لهذه الدواوين فى اغسطس سنة ١٨٧٢ ، وبقى المترجم يتولى شؤونها ، وصار منصبه « مستشارا » لها ، وبعد قليل انفصل ديوان الاشغال برآسة الامير حسين كامل وجعل المترجم وكيلا له

وفى اغسطس سنة ١٨٧٣ عين المترجم عضواً بالمجلس الخصوصى الذى كان بمنزلة مجلس الوزراء ، وبعد قليل انفصل عنه لما ألقاه فى حقه الواشون كاسماعيل باشا صديق وأضرابه ولما أرجفوا به من أن كتابه (نخبة الفكر) الذى كلفه الخديوى تأليفه عن النيل مشتمل على نقد الحكومة الخديوية وتقبيح سياستها ، فلزم بيته ثانيا .

وفى مارس سنة ١٨٧٤ جعل رئيسا لقسم الهندسة بديوان الاشغال ، ولما ألحق هذا الديوان بوزارة الداخلية التى تولاها الامير محمد توفيق ولى عهد الأريكة الخديوية وقتئذ جعل المترجم مستشاراً له ، ثم استقل ديوان الاشغال، فبقى المترجم مستشاراً للديوان (ديسمبر سنة ١٨٧٥)

ولا شك ان تعيين على باشا مبارك فى هذه المناصب الثانوية كان نتيجة الوشاية التى ألقاها اسماعيل صديق فى حقه عند الخديوى

فى وزارة نوبار باشا

ولما وقعت بمصر الاحداث المالية ، وحدث التدخل الاجنبى ، وعينت لجنة التحقيق الدولية ، كان من مطالب اللجنة تنازل الخديوى عن سلطته المطلقة ، لمجلس النظار ، فتألفت وزارة نوبار باشا الاولى فى اغسطس سنة ١٨٨٧ ، وهى الوزارة التى دخلها الوزيران الاوربيان كما تراه مفصلا فيما يلى ، واشترك فيها المترجم إذ تولى وزارة المعارف وديوان الاوقاف ، فاستأنف عمله فى إحياء نهضة التعليم ، فشرع فى بناء بعض المدارس الابتدائية ، وظل قائما بعمله فى جو مملوء بالاضطرابات والارتباكات الى أن استهدفت وزارة نوبار باشا لسخط الأمة ، وثار عليها الضباط ثورتهم الاولى ، فاستقالت فى فبراير سنة ١٨٧٩ ، وخلفتها وزارة توفيق باشا القصيرة المدى ، وكان المترجم ضمن أعضائها متوليا المعارف والاوقاف

ثم دعى شريف باشا الوزير المشهور الى تأليف الوزارة الجديدة استجابة لمطالب الاحرار ، فألف وزارته المعروفة بالوزارة الوطنية

وكان طبيعيا أن لا يكون المترجم من أعضائها ، لان الوزارة النوبارية سقطت مغضوبا عليها من الشعب ، إذ كانت متهمة بممالأة الدول الاجنبية ، ووزارة توفيق باشا لم تكن مرضياً عنها من الرأى العام

وفى عهد وزارة شريف باشا اشتدت الأزمة السياسية ، بين الخديوى اسماعيل والدول الأوروبية ، وانتهت بخلعه نزولا على إرادة الدول

فى عهد الخديوى توفيق

ولما تولى توفيق باشا مسند الخديوية وعهد الى مصطفى رياض باشا تأليف الوزارة ، كان على باشا مبارك عضواً فيها ، متقلداً وزارة الأشغال ، فبذل جهداً ممدوحاً فى تنظيم هذه الوزارة والقيام بكثير من أعمال الرى والعمران

الثورة العرابية

وفى عهد هذه الوزارة هبت عواصف الثورة العرابية ، ولم يكن على باشا مبارك من أنصار الثورة ، بل كان يميل الى الاعتدال وأخذ الأمور بالحكمة والهوادة ، ونصح للعرابيين بالروية ، فلم يسمعوا له نصحاً ، وقد تبين أنه كان أبعد نظراً منهم ، لأنه لا يخفى أن التطرف والشطط ، فى مسلك الثورة العرابية ، كانا من الأسباب التى أدت الى كارثة الاحتلال

لم يكن المترجم إذن من أنصار الثورة ، بل كان عضواً فى وزارة رياض باشا التى تحركت الثورة لمناوأتها و إسقاطها ، وقد سقطت فعلا فى سبتمبر سنة ١٨٨١ ، نزولا على إرادة الثوار ، وألف شريف الوزارة الجديدة

ومع أن شريف باشا كان يقدر كفاءة على باشا مبارك واستقامته و إخلاصه ، إلا إنه لم يشركه فى الوزارة ، لأنه كان عضواً فى وزارة رياض المغضوب عليها من الشعب ، وهكذا قُدِّر على المترجم أن يكون عضواً فى الوزارتين اللتين هبت عليهما عواصف الثورة ، واستقالتا نزولا على إرادة الثوار

فالأولى وزارة نوبار باشا ، التى سقطت بتأثير ثورة الضباط فى عهد اسماعيل ، والثانية وزارة رياض ، التى سقطت نزولا على إرادة العرابيين

ولما استقالت وزارة شريف وأعقبتها وزارة محمود سامى باشا البارودى ، ظل على مبارك بعيداً عن الوزارة ، وفى عهد وزارة البارودى جاء الاسطول البريطانى الى ثغر الاسكندرية ، ثم تلاحقت الاحداث الى أن رزئت البلاد بالاحتلال الانجليزى

ولما قامت الحرب بين العرابيين والانجليز ، وانحاز الخديوى توفيق باشا الى الاحتلال ، انعقدت جمعية عمومية فى القاهرة تضم أعيان البلاد وذوى المكانة فيها ، وحضر على باشا مبارك هذه الجمعية ، وكان ضمن الوفد الذى انتدبته الجمعية للسفر الى الاسكندرية ، ومقابلة الخديوى توفيق باشا ، لابلاغه قرارات الجمعية ،

فلما وصل الى الاسكندرية سعى فى طريقه لتهدئة الحالة ، فلم ينجح ، فانحاز الى الخديوى

فى وزارة شريف باشا الرابعة

ولما ألف شريف باشا وزارته الرابعة سنة ١٨٨٢ عقب الاحتلال كان المترجم ضمن أعضائها ، وتقلد وزارة الاشغال ، فعنى بأعمال الرى والعمران ، كما كان شأنه كلما تولى هذه الوزارة

ووزارة شريف باشا هى التى استقالت احتجاجا على اخلاء السودان ، فالمترجم له نصيب فى الموقف المشرف الذى وقفه شريف باشا بتقديم استقالته التاريخية فى يناير سنة ١٨٨٤

فى وزارة رياض باشا

ظهور الخطط التوفيقية

وبعد اقالة وزارة نوبار الثانية تولى رياض باشا الوزارة فى يونيه سنة ١٨٨٨ ، فكان على باشا مبارك ضمن أعضائها ، وزيراً للمعارف العمومية ، وهى الفترة التى ظهر فيها كتابه الخالد . (الخطط التوفيقية لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة الشهيرة) ..

وهو دائرة معارف لخطط مصر وآثارها وجغرافيتها وتاريخها فى عصورها القديمة والحديثة ، ويعد تكملة وتجديداً لخطط المقريزى ، ولكتاب تخطيط مصر الذى وضعه علماء الحملة الفرنسية ، وفيه وصف شامل لمدن مصر ، وقراها ، ونيلها ، وترعها ، وبحيراتها ، وسواحلها ، وتخطيط كامل لأحياء القاهرة وشوارعها ، ودروبها ، وميادينها ، وما احتوت عليه من المبانى ، والمساجد ، والزوايا والأضرحة ، والربط ، والتكايا ، والأسبلة ، والقصور ، والوكائل ، والحمامات ، والكنائس والأديرة ، والمدارس ، والمكاتب ، مع تراجم علماء مصر وشعرائها وأدبائها وحكامها وأمرائها ، وكان مرجع المترجم فى هذه الموسوعة الكبرى ، كتب التاريخ

والخطط ، قديمها وحديثها ، وحجج الاوقاف والاملاك ، ومباحثه ومشاهداته ، وما وجده مسطورا على الاحجار والجدران، ولئن قيل إن العلامة على باشا مبارك استعان فى وضع الخطط بطائفة من المهندسين من تلاميذه ومرءوسيه فى وزارة الأشغال والمعارف ، فذلك لاينقص من فضله ، ولا يقلل من عظم العمل الذى اضطلع به ، وحسبه أن إرادته وجهت مساعديه الى معاونته فى البحث والتنقيب ، وروحه تتمشى فى جميع أبواب الكتاب ومباحثه .

وتقع الخطط التوفيقية فى عشرين مجلداً ، ظهرت سنتى ١٣٠٥ وسنة ١٣٠٦ (١٨٨٧ — ١٨٨٩) . أفرد المؤلف الأجزاء الستة الأولى للقاهرة ، والجزء السابع للاسكندرية . والأجزاء الأخرى لبقية مدن القطر المصرى وقراه ، وخصص الجزء الثامن عشر لمقياس النيل ، والتاسع عشر لترع مصر ورياحاتها ومنشآت الرى فيها ، والعشرين لنقودها القديمة والحديثة ، وبالجملة فهذا الكتاب غرة فى تاريخ مصر العلمى ، ومأثرة خالدة للمترجم ، وهو مرجع لكل باحث فى شؤون مصر العلمية والهندسية والتاريخية . وله أيضاً فى عالم التأليف كتاب (علم الدين) وهو قصة عمرانية قيمة ، وكتاب (تنوير الافهام فى تغذى الأجسام) طبع سنة ١٢٨٩هـ (١٨٧٢ م) و(نخبة الفكر فى تدبير نيل مصر)

ويقول الدكتور محمد درى باشا فى ترجمته لعلى باشا مبارك (ص ٦١) انه وضع كتابا سماه(آثار الاسلام فى المدنية والعمران) فكان هذا الكتاب آخر مؤلفاته شرح فيه ما أدخله الاسلام من العمران فى الممالك ، وما ترتب عليه من المدنية والنظام ، قال « والذى نعرفه من أمره أنه لما أكمله تأليفا وتبييضا أعطاه لأحد أفاضل العلماء الأزهريين ليعيد نظره فيه ويدقق فى مراجعته ، وهو باق فيما نعلم فى خزانة مؤلفه رحمه الله »

وقد استأنف المترجم جهوده فى عهد وزارة رياض باشا لنشر التعليم وإنشاء المدارس ، ومن أجل أعماله فى هذا العهد تقريره طبع كتاب (مرشد الحيران الى معرفة أحوال الانسان) تأليف العلامة (محمد قدرى باشا) ،

كان هذا الكتاب الجليل مخطوطا ، فرأى العلامة على باشا مبارك أن يخرجه للناس منشورا ، لتعم فائدته فاشتراه من ورثة المرحوم قدرى باشا ، وطبعه سنة ١٨٩٠ على نفقة الوزارة ، وقررت تدريسه فى مدرسة الحقوق ، ودار العلوم ، فأسدى بذلك خدمة عظمى للعلوم الشرعية ، والقانونية وللنهضة العلمية ، والتشريعية .

ولما استقالت وزارة رياض باشا سنة ١٨٩١ ، لزم المترجم بيته ثم سافر إلى بلده لتفقد أملاكه واصلاحها ، بعد أن تركها وأهمل شأنها طوال السنين ، لاشتغاله بالمصالح العامة ، وهناك مرض بداء المثانة ، فعاد الى مصر .

وفاته

وألح عليه المرض ، الى أن وافته المنية بمصر فى منزله بالحامية الجديدة ، فى ١٤ نوفمبر سنة ١٨٩٣ ، فانطفأ المصباح الذى أضاء البلاد بأنوار العلم والعرفان ، أربعين سنة ونيفاً ، وأقفلت المدارس حداداً على أبيها ، وارتجت البلاد حزناً على فقيدها ، وانتقل المترجم الى عالم الخلود ، تاركا ذكرى مجيدة ، حافلة بما أسداه لمصر من جلائل الأعمال .

الجمعيات العلمية

الجمعيات العلمية هى من الوسائل الفعالة الى نشر العلوم والمعارف ، ومن مظاهر تقدم الأفكار والثقافة فى المجتمع ، وقد ازدان عصر اسماعيل بظهور الجمعيات العلمية ذات الأغراض السامية والمقاصد الجليلة

المجمع العلمى

المجمع العلمى هو الهيئة العلمية التى أنشأها نابليون فى مصر سنة ١٧٩٨ وسبق لنا الكلام عنها (تاريخ الحركة القومية ج ١ ص ١١٨) ، وقد ألغى هذا المجمع عند جلاء الفرنسيين ، ثم أعيد إنشاؤه سنة ١٨٥٩ بالاسكندرية فى عهد سعيد باشا ، واستمر قائماً فى عهد اسماعيل يؤدى مهمته فى نشر المباحث العلمية ، وهو قائم الى اليوم واسمه (مجلس المعارف المصرى) ، ومقره بوزارة الأشغال العمومية ، وله مجلة تنشر مباحثه

جمعية المعارف (أسست سنة ١٨٦٨)

هى أول جمعية علميـة ظهرت فى مصر لنشر الثقافة بواسطة التأليف والطباعة والنشر ، أسسها سنة ١٨٦٨ محمد عارف باشا ، أحد أفاضل العلماء فى ذلك العصر والعضو بمجلس الأحكام ، والغرض من هذه الجمعية نشر العـلوم والمعارف بطبع الـكتب العلمية وتأليفها وتهذيبها وتلخيصها ، وقد جعلت تحت رعاية الأمير محمد توفيق باشا ولى عهد الأريكة الخديوية وقتئذ ، وتولى وكالتها ورآستها الفعلية محمد عارف باشا ، وتألفت برأس مال موزع على أسهم طرحت للاكتتاب العام ، قيمة السهم ثلاثون قرشاً [1] ، واقتنت مطبعة لطبع الـكتب التى تولت نشرها ، عدا ما كانت

---

(١) عن لائحة الجمعية المنشورة في الوقائع المصرية العدد ٣٠١ — ٧ يونيه سنة ١٨٦٩

تطبعه فى دار الطباعة الأميرية ، والمطبعة الوهبية ، وتولت الجمعية طبع طائفة من أمهات الكتب فى التاريخ والفقه والأدب ، منها أسد الغابة فى معرفة الصحابة لابن الأثير فى خمسة مجلدات . وتاج العروس من شرح جواهر القاموس. والفتح الوهبى فى شرح العتبى فى مجلدين . وتاريخ ابن الوردى . وشرح التنوير على سقط الزند (ديوان أبى العلاء المعرى) . وديوان ابن خفاجه . والبيان والتبيين للجاحظ . وديوان ابن المعتز . وشرح الشيخ خالد على البردة . وعنوان المرقصات والمطربات لنور الدين أبى الحسن . والمختصر فى أخبار البشر . ومحاضرات الراغب الأصفهانى ورسائل بديع الزمان الهمذانى . وغير ذلك من الكتب القيمة

ولقيت الجمعية إقبالا عظيما وتعضيداً كبيرا من الطبقات الممتازة فى المجتمع، إذ بلغ عدد أعضائها سنة ١٢٨٦هـ (١٨٦٩ — ٧٠) م ٦٦٠ ونيفا ، وردت أسماؤهم فى ذيل كتاب « الفتح الوهبى » ، نذكر هنا طائفة منهم ، نموذجاً للطبقات التى اشتركت فى الجمعية ، ولكى نتبين مبلغ تعضيد المجتمع فى ذلك العصر للمشروعات العلمية

ابراهيم بك حليم من قضاة محكمة الاستئناف . ابراهيم أدهم بك وكيل محافظ الاسكندرية . السيد ابراهيم جميعى من أعيان الاسكندرية . السيد ابراهيم بك المويلحى من أعضاء المجلس الابتدائى . أبو زيد افندى ابراهيم باشمهندس القليوبية . اتربى بك أبو العز من أعضاء مجلس شورى النواب . احمد طلعت باشا كاتب الديوان الخديوى . الشيخ احمد شرف الدين المرصفى من علماء الأزهر . احمد رشيد باشا من أعضاء المجلس الخصوصى (مجلس الوزراء) . احمد خيرى بك مهردار الخديوى . احمد بك عبيد ناظر قلم ترجمة الكتب الحربية . الشيخ احمد البتنونى قاضى طنطا . الشيخ احمد الانصارى قاضى طهطا . الشيخ احمد فارس الشدياق صاحب الجوائب ووكيل الجمعية بالاستانة . احمد بك فتحى ناظر مدرسة الاسكندرية. أمين بك فكرى . جعفر مظهر باشا حكمدار السودان . جعفر صادق باشا رئيس مجلس استئناف قبلى . حسن بك الشريعى . الشيخ حسونه النواوى . حسين

فخرى بك (باشا) . حسين شرين باشا . خليل باشا يكن . الفريق راشد باشا حسنى . الدكتور سالم بك سالم . الشيخ عبد الرحمن الابيارى . الشيخ عبد الرحمن الرافعى . عبد اللطيف باشا من أعضاء المجلس الخصوصى . محرم افندى على عمدة السنبلاوين ومن أعضاء مجلس شورى النواب . محسن بك . محمد عرفان باشا . السيد محمد بيومى مكرم . السيد محمد المويلحى . الدكتور محمد شافعى بك . مصطفى رياض باشا . يوسف صالح عمدة كفر بهيده . احمد رستم العلايلى من أعيان الاسكندرية . الشيخ بدراوى عاشور عمدة بهوت . الدكتور حسين بك عوف . الشيخ حسنين حمزه من أعضاء مجلس شورى النواب . حماد بك عبد العاطى . على ذو الفقار باشا وزير الخارجية . محمد مظهر باشا وكيل مجلس الأحكام . ابراهيم افندى هلال مأمور ضبطية ميت غمر . احمد صادق باشا ناظر الدائرة السنية . احمد فريد بك ناظر قلم المحاسبة . السيد احمد مشرفه . احمد ذهنى بك ناظر الجبخانات. الشيخ احمد باشا من علماء الاسكندرية . اسماعيل افندى عبد الخالق وكيل ديوان الرزنامجة . اسماعيل بك زهدى ناظر مدرسة المبتديان . أمين بك سيد احمد . السيد حسن موسى العقاد . السيد حسن المرقبى . شفيق بك منصور . الخ الخ

وقد ظلت الجمعية قائمة تؤدى مهمتها الى أن اشتد النزاع السياسى بين الخديوى اسماعيل والأمير عبد الحليم باشا ، لتنافسهما على عرش الخديوية ، وكان عارف باشا من أنصار حليم باشا ، فهاجر الى الاستانة خوفا من بطش اسماعيل ، وانحلت الجمعية

الجمعية الجغرافية الخديوية

أسست سنة ١٨٧٥

هى من أهم المنشآت العلمية فى مصر ، أسسها اسماعيل باشا سنة ١٨٧٥ ، والغرض منها العناية بالابحاث الجغرافية والعلمية وتدوينها ونشرها ، وأول رئيس لها هو العالم الألمانى الدكتور جورج شونفرت Schweinfurth ، ووكيلاه العلامة محمود باشا الفلكى ، والجنرال استون باشا رئيس أركان حرب الجيش المصرى ، ولها

مجلة دورية تنشر المباحث والاكتشافات ، وتؤدى خدمات جليلة للعلم والجغرافية ، وقد رجعنا فى كثير من المواطن الى المباحث القيمة والخرائط الدقيقة المنشورة فى مجلتها

الجمعية الخيرية الاسلامية

أنشئت بالاسكندرية سنة ١٨٧٨ (١٢٩٦ هـ) بسعى السيد عبد الله نديم ومساعدة سعد الله بك حلابه من سراة الثغر ، والباعث على إنشائها شعور الخاصة بطغيان النفوذ الاجنبى فى البلاد، وتدخل الاجانب فى شؤونها ، واستئثارهم بمرافقها

فأسست هذه الجمعية لفتح المدارس الحرة لتعليم البنين والبنات ، وتهذيب الأخلاق ، واعانة الفقراء ، وقد أنشأت مدرسة بالاسكندرية لتعليم البنين والبنات ، وعقد فيها محفل للخطابة ، كانت تلقى فيه الخطب والمحاضرات مرة فى الأسبوع ، ووضع لها قانون ، وأجرت عليها الحكومة راتبا سنويا على سبيل الاعانة ، فاتسع نطاقها ، وذكرت جريدة التجارة (١) لاديب اسحق نبأ انشاء هذه الجمعية بالاسكندرية ، وجمعية أخرى بالقاهرة ، وأخرى بدمياط

وهى غير الجمعية الخيرية الاسلامية الحالية التى أسست سنة ١٨٩٢

الصحافة

لم تظهر فى مصر على عهد عباس وسعيد من الصحف المصرية سوى « الوقائع المصرية » التى أنشأها محمد على باشا ، وكانت الحكومة تتولى إصدارها ، ولم يظهر غيرها من الصحف العربية ، وهذا من مظاهر الجمود الذى أصاب النهضة العلمية فى ذلك العهد .

ثم نشطت الحياة العلمية والأدبية فى عصر اسماعيل ، فكان من مظاهرها

---

(١) بالعدد ٢٢ من السنة الأولى — ابريل سنة ١٨٧٨

تأسيس الصحف العلمية والادبية ثم السياسية ، وقد نهض بالصحافة فى ذلك العصر طائفة من العلماء والأدباء المصريين ، وطائفة أخرى من الأدباء السوريين ، وثمة عامل آخر كان له الأثر البالغ فى نهضة الصحافة ، والنهضة العلمية والأدبية عامة ، وهو تعضيد الخديوى اسماعيل لها ، ومساعداته الأدبية والمالية للقائمين عليها

وإنا ذاكرون هنا الصحف والمجلات التى ظهرت فى عصره

(١) يجب أولا أن نذكر « الوقائع المصرية » ، فقد استمرت تصدر بانتظام فى عهد اسماعيل ، وارتقى أسلوبها الانشائى ، وخدمت النهضة الصحفية خدمة تذكر ، بما كانت تنشره من الفصول العلمية والأدبية ، وكانت تعنى بذكر أخبار الحكومة والأخبار الخارجيـة ، وتنشر مضابط مجلس شورى النواب ، وتسهب فى وصف الحفلات العامة ، وخاصة الحفلات العلمية والمدرسية ، ثم حفلات سباق الخيل ، التى كان لها شأن كبير فى ذلك العصر ، وتعد « الوقائع » سجلا يصور لنا ناحية من حياة مصر السياسية والاجتماعية فى عصر اسماعيل ، وهى من أهم المراجع الرسمية التى لايستغنى عنها من يكتب عن تاريخ مصر الحديث

ونشأ الى جانب الوقائع صحف أخرى علمية ثم سياسية

الصحف العلمية والادبية والحربية

(٢) أسبقها مجلة (اليعسوب) ظهرت سنة ١٨٦٥ ، وهى مجلة شهرية طبيـة ، أنشأها الدكتور محمد على باشا البقلى وابراهيم الدسوقى ، ولم تعمر طويلا

(٣) مجلة (روضة المدارس) أنشأها العلامة على مبارك باشا سنة ١٨٧٠ حين كان وزيراً للمعارف العمومية ، وهى من أجل أعماله ، وكانت الوزارة تتولى إصدارها والانفاق عليها ، والغرض منها احياء الآداب العربيـة ونشر المعارف الحديثة ، أسندت رآستها الى العلامة رفاعه بك رافع الطهطاوى ، وتولى تحريرها

ابنه على بك فهمى رفاعه (باشا)، مدرس الانشاء بمدرسة الادارة والألسن (الحقوق) وقتئذ، وكان يحرر فيها طائفة من أعلام الأدب والعلوم فى ذلك العصر، أمثال على مبارك باشا، وعبد الله بك فكرى (باشا)، والشيخ حسين المرصفى، ورفاعة بك رافع، وابنه على بك فهمى رفاعة، والمسيو بروكش باشا ناظر مدرسة اللسان المصرى القديم، ومحمود باشا الفلكى، واسماعيل بك مصطفى الفلكى (باشا)، ومحمد قدرى بك (باشا)، والدكتور محمد بك بدر، واحمد بك ندا العالم النباتى الشهير، والشيخ عبد الهادى نجا الابيارى، والسيد بك صالح مجدى، وعبد الله أبو السعود افندى، محرر صحيفة وادى النيل، والشيخ عثمان مدوخ أحد أساتذة اللغة العربية بالمدارس التجهيزية، والشيخ حسونه النواوى، والشيخ حمزة فتح الله فكانت المجلة ميداناً يتبارى فيه فطاحل الكتاب فى ذلك العصر، وفيها المباحث الطريفة فى العلم والأدب والاجتماع والتاريخ والفلك والرياضيات، وكانت تصدر مرتين فى الشهر، وقد صدر العدد الأول منها فى ١٥ المحرم سنة ١٢٨٧ (سنة ١٨٧٠)، واستمرت تصدر ثمانى سنوات، فأفادت الثقافة فائدة كبرى، قال عنها المسيو دور بك مفتش التعليم العام على عهد اسماعيل فى كتابه [1] « وهذه المجلة كانت توزع مجانا على التلاميذ، وقد ساعدت على نشر العلوم والمعارف، لأنها عودت الطلبة ملكة المطالعة والبحث، وفتحت صحائفها للنابهين منهم لنشر ابحاثهم القيمة، فكان ذلك مما يشجعهم ويستحث هممهم على المباحث والجهود المستقلة عن دروسهم »

وقد أصاب المسيو دور فى قوله، فان المجلة كانت تنشر مباحث طريفة لبعض نبهاء التلاميذ، وقد رأيتُ فيها قصائد رقيقة من نظم المرحوم اسماعيل باشا صبرى، تتجلى فيها روح الشعر الحديث، وكان وقتئذ «الشاب النجيب اسماعيل افندى صبرى أحد تلامذة مدرسة الادارة »

---

(١) التعليم العام في مصر ص ٢٥٣ للمسيو دور بك

فمنها قصيدة فى مدح الخديوى اسماعيل بالعـدد ٢٠ من السنة الأولى (١) قال فى مطلعها

سَنَرت فلاح لنا هلال سعود ونمى الغرام بقلبىَ المعمودِ

وقصيدة أخرى بالعدد ٥ من السنة الثانية قال فى مطلعها (٢)

أغرّتك الغراء أم طلعةُ البدر وقادتك الهيفاء أم عادل السمر

وشعرك أم ليلٌ تراخى سدوله وثغرك أم عقد تنظم من در

وأخرى بالعدد ٢٣ من السنة الثانية (٣) استهلها بقوله

لا والهوى العذرىِّ والوجدِ عَذْلُ عذولى فيك لا يُجدى

إنى مع الصـدّ وطول الجفا باقٍ على الميثـاقِ والعهدِ

ويتبين من ذلك أن مدرسة الشعر الحديثة قد بدأت با كورتها تظهر فى مجلة روضة المدارس (٤)

(٥و٤) جريدة (أركان حرب الجيش المصرى) و (الجريدة العسكرية المصرية) وقد سبق الكلام عنهما ص (١٩٠)

الصحف السياسية

وظهر من الصحف السياسية

(٦) صحيفة (وادى النيل) أنشأها الشاعر الناثر عبد الله أبو السعود افندى سنة ١٨٦٧ ، وهى أقدم صحيفة سياسية ظهرت فى مصر ، وكانت تصدر مرتين فى الاسبوع فى شكل المجلات ، وظلت تصدر الى ان الغيت بأمر الحكومة سنة ١٢٨٩ هـ (١٨٧٢ م)

---

(١) غاية شوال سنة ١٢٨٧ (٢) ١٥ ربيع الاول سنة ١٢٨٨

(٣) ١٥ ذي الحجه سنة ١٢٨٨

(٤) عن الجزء الثالث من تاريخ الحركة القومية ص ٤٩٧

(٧) جريدة (نزهة الافكار) سنة ١٨٦٩ لمنشئيها ابراهيم بك المويلحى ومحمد بك عثمان جلال ، وكانت أسبوعية ، ولم يصدر منها إلا عددان ، ثم عطلها اسماعيل بنصيحة شاهين باشا وزير الحربية ، إذ حذره عواقب لهجتها وما تؤدى اليه من إثارة الخواطر

(٨) وأنشأ ميخائيل افندى عبد السيد سنة ١٨٧٧ جريدة (الوطن) ، وكانت سياستها وطنية ، ولهجتها حرة ، وقد استمرت تصدر الى ما بعد الاحتلال ، ووقفت حيناً ، ثم عادت الى الظهور سنة ١٩٠٠

(٩ و ١٠) وظهرت سنة ١٨٧٧ جريدة (مصر) وهى جريدة اسبوعية ، لمحررها أديب اسحق ، ومديرها سليم النقاش ، وأنشأا أيضاً سنة ١٨٧٨ صحيفة يومية بالاسكندرية باسم جريدة (التجارة) ، وسياسة الصحيفتين وطنية حماسية ، تجلت فيها تعاليم جمال الدين الافغانى وروحه ، وكانت له فى الجريدتين بعض الرسائل ، يكتبها هو أو يمليها على تلاميذه ، وقد ألغاها رياض باشا سنة ١٨٨٠

(١١) جريدة (روضة الأخبار) لصاحبها محمد بك أنسى نجل عبد الله أبو السعود افندى ، انشأها بدل صحيفة (وادى النيل) التى عطلتها الحكومة كما أسلفنا ، وكان عبد الله أبو السعود افندى يحرر قسمها السياسى الى آخر أيامه

وقد ذكرها على باشا مبارك فى الخطط التوفيقية ج ١١ ص ٦٩ ، وذكرها أيضاً أديب اسحق فى جريدة (التجارة) بالعدد الصادر فى ٢٩ مايو سنة ١٨٧٨ ، لمناسبة اعتزام صاحبها تغيير اسمها باسم (النيل) ، وصدرت بهذا الاسم سنة ١٨٧٨

(١٢) جريدة (الكوكب الشرقى) لصاحبها سليم (باشا) الحموى ، صدرت بالاسكندرية سنة ١٨٧٣ ، ولم تعمر طويلا ، وذكرت « الوقائع المصرية » بالعدد ٤٢٩ الصادر فى ٢٤ اكتوبر سنة ١٨٧١ أن سليم حموى أنشأ مكتبة بالاسكندرية وقاعة للمطالعة بها

(١٣) جريدة (الاهرام) لسليم (بك) وبشاره (باشا) تقلا ، صدرت سنة ١٨٧٥ بالاسكندرية ، (والآن بالقاهرة) ، وقد لاقت فى مبدأ صدورها عقبات جمة ، ثم نالت حظا كبيراً من الرواج ، وكانت فى مبدأ ظهورها اسبوعية ، ثم صدرت

بجانبها جريدة (صدى الاهرام) يومية حتى عطلت ، ثم انفردت (الاهرام) بالظهور وصارت يومية ، واستمرت تصدر الى اليوم ، فهى أقدم الصحف المصرية السياسية

(١٤) جريدة (الاسكندرية) جاء ذكرها فى جريدة (التجارة) بالعدد ٥ يونيه سنة ١٨٧٨ إذ قالت إن سليم افندى حموى عزم على إصدار جريدة اسبوعية تسمى (الاسكندرية) ، وقد صدرت فعلا فى يوليه سنة ١٨٧٨

(١٥) جريدة (الكوكب المصرى) للشيخ محمد وفاء ، ذكرتها جريدة التجارة بالعدد ٣ من السنة الثانية (١٩ مايو سنة ١٨٧٩)

(١٦) (مرآة الشرق) وهى جريدة سياسية أنشأها سليم عنحورى ، ثم تنحى عنها فى ابريل سنة ١٨٧٩ ، وتولاها ابراهيم افندى اللقانى (بك) بايعاز من السيد جمال الدين الأفغانى

(١٧و١٨) وأنشأ الشيخ يعقوب صنوع صحيفتين سياسيتين ، وهما (مرآة الأحوال) صدرت فى لندن سنة ١٨٧٦ ، و (أبو نضارة) صدرت سنة ١٨٧٧ بالقاهرة ، وهى صحيفة معارضة لاسماعيل ، وكان الشيخ يعقوب صنوع مصريا إسرائيليا ، متعلقاً بالصحافة، يميل الى الدعابة فى كتابته ، واتصل بالسيد جمال الدين الأفغانى ، وقيل إنه هو الذى أوعز اليه إصدار جريدته لانتقاد سياسة اسماعيل[١] فأصدرها ، وكانت أول جريدة هزلية سياسية صدرت فى مصر ، وقد نفاه اسماعيل من مصر ، فرحل الى باريس ، واستأنف إصدار جريدته بأسماء مختلفة معارضاً الخديوى منتقداً أعماله ، ولم يكن يخلو عدد منها من صور هزلية تنطوى على التعريض الشديد بالخديوى اسماعيل ، فلقيت رواجاً عظيما ، واستمر الشيخ ابو نضارة يصدر جرائده الى ما بعد الاحتلال ، وكان معادياً لسياسة الانجليز ، وتوفى سنة ١٩١٢

وأغلب الصحف السياسية التى كانت تصدر فى مصر ظهر كما ترى فى أواخر

---

(١) عن ترجمة يعقوب صنوع المسمى بالشيخ (أبى نضارة) فى تاريخ الصحافة للفيكونت فيليب دى طرازى ج ٢ ص ٢٨٢

عصر اسماعيل ، وقدأطلق لها حرية الكتابة ، وكان يميل الى هذه الحرية فى أواخر عهده ، حين اصطدم بالمطامع الاوروبية ، وشعر بوطأة التدخل الاجنبى ، فكانت الصحافة تحمل بحق على هذا التدخل حملات صادقة ، وراقت هذه الخطة لاسماعيل ، فلاغرو ان أطلق للصحف حرية الكتابة ، لكنه لم يكن يرضى منها أن تتعرض لشخصه او تنتقد أعماله

وكان لهذه الصحف عامة فضل كبير فى انارة البصائر والافكار ، وتوجيه الانظار الى العناية بشؤون البلاد العامة ، وانتقاد الاعمال الضارة التى تصدر عن الحكومة ، فكانت اداةً لظهور حرية الآراء السياسية ، ولها الفضل ايضا فى نشر العلوم والمعارف ، وتهذيب لغة الكتابة ، وترقية أساليب الانشاء ، فكانت من هذه الناحية من عوامل نهضة الادب فى العصر الحديث

الصحف الافرنجية

وظهر فى هذا العصر عدة صحف اوروبية، منها جريدة (الفارد الكسندرى) انشئت بالاسكندرية سنة ١٨٧٤ ، وجريدة البرجريه اجبسيان **LeProgrésEgyptien** وهى صحيفة معارضة لاسماعيل ، وجريدة (الريفورم) **La Reforme**

الطباعة

تقدمت الطباعة وأدركت شأوا كبيرا فى عهد اسماعيل ، فقد وجه عنايته الى مطبعة بولاق ، ونهض بها حتى ضارعت المطابع الكبرى ، وكان يتولى نظارتها حسين بك حسنى (باشا) ، الذى كان له الفضل الكبير فى نهضتها ، وظل يتولى نظارتها الى ما بعد الاحتلال ، وأسس اسماعيل مصنعا للورق ، تولى ادارته كذلك حسين بك حسنى مدير دار الطباعة، وأخذ هذا المصنع منذ سنة ١٨٧١ يورد الاوراق اللازمة لمصالح الحكومة ، ولطبع المؤلفات العلميـة ، وكذلك الاوراق والدفاتر اللازمة للتجار(١)

---

(١) الوقائع المصرية العدد ٤١٠ (اول يونيه سنة ١٨٧١)

حسين حسني باشا

ويعد حسين حسني باشا هذا من أركان النهضة العلمية والادبية ، اذ كان له فضل كبير في احياء العلوم بواسطة الطباعة والنشر

وهو من خريجي مدرسة المهندسخانة ، اتم دراسته فيها ثم تولى تدريس العلوم الرياضية بها ، وانتقل الى مطبعة بولاق سنة ١٢٦٨ ﻫ بوظيفة كاتب ومصحح بالوقائع المصرية ، وارتقى حتى صار ناظرا لها ، وهو من نوابغ علماء الرياضيات والميكانيكا في عصره ، وقد زار كثيرا من دور الطباعة ومصانع الورق في أوروبا ، باحثا منقبا ، وجلب منها عدة ماكنات مستحدثة ، ركبها في مطبعة بولاق ، وفي سنة ١٢٨٤ جلب من لندن الماكنات اللازمة لتأسيس مصنع الورق ، فانشأه بجوار مطبعة بولاق ، وجاء من أحسن معامل الورق اتقانا واحكاما ، وانتج من الورق ما كاد يعطل مايرد من اوروبا ، وكانت جميع تكاليفه وثمن آلاته تستوفى من ربح المطبعة والمصنع ، وذلك بفضل مهارة حسين بك حسني ونزاهته ، ذكر عنه الغلامة علي باشا مبارك « انه أحيا روح المطبعة الاميرية ونشر صيتها في جميع الاقطار (١) » وتوفي سنة ١٣٠٣ﻫ (١٨٨٥ م)

وانشئت عدة مطابع أخرى لطبع الصحف والمؤلفات كان لها الفضل الكبير في إحياء نفائس الكتب القيمة في الأدب والعلم ، وتولت طبعها وطبع المؤلفات الحديثة فمن هذه المطابع مطبعة جمعية المعارف المتقدم ذكرها

والمطبعة الاهلية القبطية التي جلبها من أوروبا الانبا كرلس الرابع سنة ١٨٦٠ في عهد سعيد باشا ، وهي أول مطبعة أنشئت في مصر بعد مطبعة بولاق

ومطبعة (وادي النيل) أنشأها عبد الله أبو السعود افندي ، وكان يطبع فيها صحيفة (وادي النيل) ، ومجلة روضة المدارس ، وجريدة (أركان حرب الجيش المصري) و (المطبعة الوطنية) بالاسكندرية

---

(١) عن ترجمته في الخطط التوفيقية ج ٢ ص ١٢١ [illegible]

والمطبعة الوهبية انشئت سنة ١٢٨٠ هـ لمؤسسها مصطفى افندى وهبى (بك) ومطبعة أركان حرب الجيش المصرى التى سبق الكلام عنها

ومن أمهات الكتب التى طبعت فى ذلك العصر وكان لها الفضل الكبير فى النهضة العلمية والادبية كتاب المثل السائر، لابى الفتح الموصلى ، والاغانى لابى الفرج الاصفهانى . وتاريخ ابن خلدون ومقدمته ، والعقد الفريد لابن عبد ربه ، وفقه اللغة للثعالبى . ووفيات الاعيان لابن خلكان ، وفوات الوفيات ، واحياء العلوم للغزالى ، وتفسير الفخر الرازى ، والبخارى (شرح القسطلانى) ، وسفينة الراغب ، وحياة الحيوان ، ونفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ، وقانون ابن سينا فى الطب ، وتذكرة داود وغير ذلك من نفائس الكتب

مظاهر النهضة العلمية والادبية

اقترن عصر اسماعيل بالنهضة العلمية والادبية التى ظهرت فى إبان النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، ولهذه النهضة عوامل شتى ، أولها انتشار التعليم فى المدارس والمعاهد ، وظهور طائفة من العلماء والادباء ممن تخرجوا فى المدارس والبعثات أو فى الازهر على عهد محمد على وخلفائه ، وقد ظهرت ثمار قرائحهم على توالى السنين ، وخاصة فى عهد اسماعيل ، اذ كان يشجع اكثرهم ويعضدهم ، ويسند اليهم المراكز الممتازة فى الحكومة ، ويمدهم بالمنح السخية ، فكانت هبات اسماعيل اكبر عضد للنهضة العلمية والادبية ، وكان لانتشار التعليم فى المدارس عامة أثر كبير فى نموها وتقدمها ، اذ تألفت بيئة صالحة من المتعلمين تؤيدها وتناصرها بالاقبال على ما تنتجه قرائح العلماء والادباء ، ولولا هذا الاقبال لخمدت القرائح ، وكسدت سوق العلم والادب ، وثمة عامل آخر ، وهو مجىء السيد جمال الدين الأفغانى سنة ١٨٧١ الى مصر واقامته بها ، فقد نفخ فى الحياة العلمية والادبية ثم السياسية روحا من اليقظة خطت بها خطوات واسعة الى الامام

ومن عوامل هذه النهضة ظهور الجمعيات العلمية ، وتقدم الطباعة، وظهور الصحافة، ونشاط حركة التأليف والترجمة والنشر ،ففى عصر اسماعيل ازدهرت الحركة العلمية والادبية التى هى أساس النهضة الحاضرة ، ونشط الادب والشعر ، وظهرت طبقة من الشعراء بدا على شعرهم أسلوب العصر الحديث ، من حسن الديباجة ، وصفاء القريحة ، و بلاغة العبارة ، وتهذب أسلوب الكتابة والانشاء ، وأخذ يتخلص من شوائب التعقيد والركاكة ، والسجع المتكلف ، وهبّت عليه نسمة الترسل البليغ والمعانى الطريفة

وظهرت طائفة من العلماء المؤلفين والمعربين توفروا على إخراج الكتب القيمة فى الطب والرياضيات والتاريخ والفقه والتشريع وما الى ذلك

وارتقى مستوى المناصب الحكومية ، اذ تولاها المتخرجون من المدارس والمعاهد والبعثات ، فظهرت ثمار النهضة فى فروع الحكومة ، كالتعليم والرى والهندسة والادارة والقضاء والصحة والجيش والاسطول

وكان للنهضة العلمية والادبية أثرها فى تقدم الحياة الاجتماعية ، ثم الحياة الوطنية والسياسية ، مما سنعود اليه فى موضعه

والآن يسوقنا الحديث الى الكلام عن أعلام هذه النهضة ، وسنقصر القول على خلاصة وجيزة لتراجم اولئك الأعلام الذين اكتملت شخصياتهم فى هذا العصر ، فمن هذه الخلاصة تجتمع لنا صورة عامة للحياة الأدبية والعلمية فى عصر اسماعيل

أعلام الادب فى عصر اسماعيل

رفاعة بك رافع الطهطاوى، وعلى باشا مبارك

أدرك رفاعة بك عصر اسماعيل ، و له فيه الفضل الكبير على العلم والأدب كما أسلفنا فى ترجمته (عصر محمد على ص ٤٧٠)

وعلى باشا مبارك ،هو صاحب الأيادى البيضاء على الأدب والعلم والتعليم فى مصر ، كما بينا ذلك فى ترجمته

السيد جمال الدين الافغانى

هو باعث روح الحياة فى النهضة العلمية والأدبيـة والسياسية ، فواجبٌ أن نعده فى مقدمة أعلام الادب فى عصر اسماعيل ، وسنترجم له فى الفصل الثانى عشر

الشيخ حسين المرصفى

توفى سنة ١٨٨٩

شيخ الادباء فى ذلك العصر ، وأستاذ الطبقة الاولى من دار العلوم ، نشأ فى (مرصفى) بالقليوبية ، وهى بلدة أنجبت طائفة من أعلام الادب والفقه واللغة ، كان والده الشيخ احمد حسين المرصفى من أئمة العلم فى عصره ، وانقطع للتدريس بالازهر ، ونشأ المترجم ميالا للعلم والادب ، ذكر عنه العلامة على باشا مبارك فى الخطط التوفيقية (ج ١٥ ص ٤٠) انه «من أجلاء العلماء وأفاضلهم ، له اليد الطولى فى كل فن ، وقل أن يسمع شيئا الا ويحفظه ، مع رقة المزاج ، وحدة الذهن ، وشدة الحذق» وتصدر للتدريس ، فقرأ بالازهر كبار الـكتب ، ثم تولى تدريس اللغة والآداب فى دار العلوم ، وتعلم اللغة الفرنسية ، وله مؤلفات قيمة منها

(١) الوسيلة الادبية الى العلوم العربية طبع بمصر سنة ١٢٨٩ﻫ فى جزأين —

(٢) وله كتاب فى الادب والاجتماع سماه (الكلم الثمان) فى الامة والوطن والحـكومة والعدل والظلم والسياسة والحرية والتربية

محمود باشا سامى البارودى

(١٨٤٠ — ١٩٠٤)

باكورة الاعلام فى دولة الشعر الحديث ، وأول من نهض به وجارى فى نظمه فحول الشعراء المتقدمين ، كانت نشأته الادبية والحربية فى عصر اسماعيل ، وسطع نجمه فى سماء الادب على ذلك العهد، ثم اقترن اسمه بعصر الثورة العرابية، وكان له فيها الدور الـكبير ، وسنترجم له فى موضعه

عبد الله أبو السعود افندى

١٨٢٠ — ١٨٧٨

أول صحفى سياسى ظهر فى تاريخ مصر الحديث ، ولد فى دهشور قرب الجيزة ، وأصله من برقه ، تلقى العلم فى مدرسة البدرشين ثم انتقل الى مدرسة الألسن ، وتخرج منها على يد رفاعة بك رافع ، فهو من تلاميذه الأفذاذ ، وكان يحضر دروس الأزهر ، وأتقن اللغات العربيــة والفرنسية والايطالية ، ونبغ فى فنون الأدب والشعر ، وارتقى فى المناصب حتى صار فى عهد اسماعيل ناظر قلم الترجمة المستجد وأستاذ التاريخ بدار العلوم ، وأنشأ سنة ١٢٨٤هـ (١٨٦٧م) صحيفة (وادى النيل) كما تقدم بيانه

ونظم حوادث مصر فى كتاب سماه (منحة أهل العصر بمنتقى تاريخ مصر) ووضع كتاب (الدرس العام فى التاريخ العام) طبع قسم منه سنة ١٢٨٩ وعرب كتاب (تاريخ مصر القديمة) لمرييت باشا ، الخ ، وله ديوان شعر مطبوع ، وله أرجوزة نظم فيها سيرة محمد على ، وشارك رفاعة بك وتلاميذه فى ترجمة الكود (قانون نابليون) ، وتولى هو وحسن أفندى فهمى المصرى تعريب قانون المرافعات

وجعل سنة ١٨٧٦ قاضياً بمحكمة الاستئناف ، وتوفى فى فبراير سنة ١٨٧٨ ، وهو من نوابغ الأدباء والعلماء فى عصر اسماعيل

الشيخ محمد عبده

توفى سنة ١٩٠٥

الاستاذ الامام ، وفيلسوف الإسلام ، « أكتب العلماء ، وأعلم الكتاب(١) » ، كانت نشأته العلمية والأدبية فى عصر اسماعيل ، وانضوى الى لواء السيد جمال الدين الأفغانى ، وصار من خاصة تلاميذه منذ قدم السيد الى مصر سنة ١٨٧١ ، فكان لهذه الفترة من الزمن الأثر الأكبر فى اتجاهه العلمى والروحى ، وكتب بعض

(١) تعبير « المنفلوطى » في « مختاراته »

الرسائل فى صحيفتى (التجارة) و (مصر) لأديب اسحق ، ثم عظمت شخصيته فى عصر الثورة العرابية ، كما سيجىء بيانه

ابراهيم بك المويلحى

١٨٤٦ - ١٩٠٦

زعيم الكتاب فى عصره ، وأستاذ المدرسة الحديثة فى الأدب والانشاء ، من أسرة المويلحى الشهيرة ، وهى أسرة عربية ، أصلها من « المويلح » من ثغور الحجاز التى كانت تابعة لمصر ، وكان جده السيد ابراهيم المويلحى من كبار موظفى الحكومة فى عهد محمد على ، يميل للأدب والأدباء ، فورث عنه المترجم هذا الميل ، وكان أبوه من سراة مصر ، وله بيت تجارى كبير اشتهر بصناعة الحرير وتجارته

ولد المترجم فى أوائل سنة ١٢٦٢ھ (١٨٤٦ م) وترعرع فى حجر والده فى مهاد العز والنعمة ، الى أن توفى أبوه سنة ١٢٨٢ھ (١٨٦٥) وهو لا يتجاوز العشرين بكثير ، فتولى تجارة أبيه مشاركا أخاه عبد السلام المويلحى (باشا) ، ولكنهما لم يوفقا فى التجارة ، وآل بيت المويلحى من الناحية المالية الى الخسران ، لولا مروءة الخديوى اسماعيل ، فقد نظر الى هذا البيت نظرة عطف وسخاء ، فوهب المترجم وأخاه من المال ماوفى ديونهما ، ثم انعم على ابراهيم بالرتبة الثانية وجعله قاضياً بمحكمة الاستئناف ، وهو فى الثامنة والعشرين من عمره ، وانعم على عبد السلام بهذه الرتبة أيضاً ، وابقاه يزاول التجارة استبقاءً لهذا البيت التجارى القديم

وظهر ميل المترجم الى الأدب من مشاركته محمد عارف باشا فى تأسيس جمعية المعارف التى عنيت باحياء الكتب العربية ، وقد سبق الكلام عنها ، ثم اشترك مع محمد بك عثمان جلال فى إصدار جريدة سياسية اسمها (نزهة الأفكار) ولكن لم يصدر منها الا عددان وصدر أمر اسماعيل بالغائها

وكان المترجم من تلاميذ السيد جمال الدين الأفغانى ، وقد اتصل من طريقه

بالحركة السياسية التى ظهرت فى عصر اسماعيل ، والتى انتهت بوضع اللائحة الوطنية وتأليف وزارة شريف باشا الأولى كما سيجىء بيانه فى موضعه، وعين سكرتيراً لاسماعيل راغب باشا وزير المالية فى الوزارة الوطنية، وكان المترجم من رجال اسماعيل المخلصين لشخصه ، المغمورين بكرمه ، ولازمه فى منفاه عدة سنوات ، اشتغل خلالها بالصحافة حيناً ، ثم ذهب الى الاستانة سنة ١٨٨٥ ، فأكرم السلطان عبد الحميد وفادته، وعينه عضواً فى مجلس المعارف ، وظل فى هذا المنصب نحو تسع سنوات ، ثم عاد الى مصر ، وكتب فى الصحف مقالات جامعة فى الأدب والسياسة والاجتماع ، جمع بعضها فى كتاب سماه (ماهنالك) ، ثم أنشأ صحيفة (مصباح الشرق) وهى صحيفة أسبوعية نالت فى عالم الادب والكتابة مكانة لم تبلغها صحيفة أخرى ، وله فيها المقالات الرائعة التى كادت تبلغ عليا مراتب البلاغة والانشاء ، لولا ماشابها من الاقذاع فى الهجو، والتقلب مع الاهواء ، وتوفى فى ٢٩ يناير سنة ١٩٠٦

محمد بك عثمان جلال

(١٨٢٨ — ١٨٩٨)

واضع أساس القصة الحديثة فى الأدب المصرى ، ولد فى (ونا القس) بمديرية بنى سويف ، وتلقى العلم فى مدرسة قصر العينى (وكانت لم تزل مدرسة اعدادية) ، ثم فى مدرسة أبى زعبل ، ثم فى مدرسة الألسن فهو من تلاميذ رفاعة بك رافع الطهطاوى ، ونبغ فى العلوم ، وبدا عليه الميل الى الشعر والادب والتعريب ، وكان ميالا الى الفن الروائى ، يجيد التعريب فيه مع تمصير ما يعربه أحياناً ، وله كتاب (العيون اليواقظ) وهو تعريب شعرى لروايات لافونتين ومواعظه، ويعد هذا الكتاب أعظم آثاره الادبية وأشهرها ، وعرب رواية (بول وفرجينى) عن الفرنسية ، ووضع كتاب (التحفة السنية فى لغتى العرب والفرنسوية) منظومة ، وعرب بعض الروايات التمثيلية ، منها (ترتوف) لموليير ، عربها بتصرف وأسماها (الشيخ متلوف) بعد أن أسبغ عليها مسحة مصرية ، وقد مثلت هذه الرواية على المسارح فى مصر ، وله أرجوزة فى رحلة الخديوى سنة ١٨٨٠

أدرك المترجم عصر محمد على وخلفائه الى أوائل عهد عباس الثانى ، وشغل مناصب عدة فى الحكومة ، وآخر ماتولاه منها منصب القضاء فى المحاكم المختلطة سنة ١٨٨١ وأحيل الى المعاش سنة ١٨٩٣ ، وتوفى سنة ١٨٩٨ عن سبعين سنة

عائشة عصمت تيمور

(١٨٤٠ — ١٩٠٢)

« طليعة اليقظة النسوية [١] » فى تاريخ مصر الحديث ، وأول من نبغ من المصريات فى الشعر والادب ، نشأت من بيت كريم ، إذ كان أبوها اسماعيل باشا تيمور، أحد كبار الحكام فى عصر عباس الاول وسعيد واسماعيل، وشقيقها العلامة احمد باشا تيمور ، بدت عليها ملكة الادب والشعر وهى بين السابعة والثالثة عشرة ، ورأى أبوها منها هذا الميل ، فعنى بتثقيفها ، وأحضر لها أستاذين لتأخذ عنهما الادب والعلوم ، وقالت الشعر وهى فى الثالثة عشرة ، فأعجب بها والدها وحبب اليها إجادته ، فأكبت على نظم الشعر بلغات ثلاث ، الفارسية والعربية والتركية ، وتزوجت وهى فى الرابعة عشرة بمحمد بك توفيق بن محمود بك الاسلامبولى ، فشغلتها الحياة الزوجية عن الادب حينا ، فلما شبت ابنتها (توحيدة) عهدت اليها شؤون المنزل ، و بعد وفاة والدها سنة ١٨٨٢ وزوجها سنة ١٨٨٥ تفرغت للشعر والادب ، وأتقنت النحو والعروض على يد معلمتين من أهل العلم فى هذا العصر ، هما فاطمة الازهرية ، وستيتة الطبلاوية ، وعادت الى نظر الشعر ، ثم توفيت ابنتها توحيدة فاشتد حزنها عليها ، وشغلت بالذكرى والبكاء سبع سنين عددا ، ثم عادت الى الكتابة والشعر ، وكانت وفاتها سنة ١٩٠٢

ولها من الآثار الادبية «حلية الطراز» وهو ديوان شعرها العربى ، و «شكوفة» وهو ديوانها التركى والفارسى ؛ و «نتائج الأحوال فى الأقوال والافعال» وهى قصة أدبية كتبتها بأسلوب المقامات

---

(١) تعبير الكاتبة الادبية (الآنسة مى) فى ترجمتها لعائشة عصمت تيمور

عبد الله باشا فكرى

(١٨٣٤ — ١٨٨٩)

من أعلام الادب فى عصر اسماعيل ، ولد بمكة المشرفة ، وكان أبوه محمد افندى بليغ قد تخرج فى المدارس الملكية التى أنشأها محمد على ، ومهر فى العلوم الرياضية ، الى أن صار من المهندسين ، والتحق بخدمة الحكومة وحضر مواقع حربية ، أهمها فى حرب المورة ، فعقد فى المورة على والدة المترجم ، وعادبها الى الحجاز ، فوضعت بمكة غلاما هو صاحب الترجمة ، وسمى باسم جده الشيخ عبد الله أحد علماء الازهر ، ثم عاد بليغ افندى الى مصر ، وما زال فى خدمة الحكومة ، حتى تقلد منصب باشمهندس الشرقية ، ثم مفتش هندسة الجيزة والبحيرة ، وتوفى سنة ١٢٦١هـ ، والمترجم لما يتجاوز الحادية عشرة ، فأخذ يطلب العلم بالازهر وأتقن اللغة العربية وعلومها ، والحديث والتفسير والمنطق ، وتعلم اللغة التركية أيضا ، والتحق بالمناصب مع استمراره حيناً على تلقى العلوم بالأزهر ، وانتظم فى عهد سعيد باشا بالمعية السنية ، وتولى كتابة الانشاءات الديوانية بالعربية والتركية ، واستمر بالمعية الى عهد اسماعيل ، ورافقه فى رحلته الى الاستانة ، وظل متصلا به ، مشمولا برعايته ، وعهد اليه سنة ١٢٨٤هـ ملاحظة تعليم أنجاله الأمراء ، فاضطلع بهذه المهمة وكان يلاحظ الدروس التى تلقى اليهم وأحيانا يدرس لهم بنفسه

وكان يتولى كتابة رسائل الخديوى اسماعيل فى مهام الدولة ، فنهض بأسلوب الكتابة الرسمية ، ومعظم هذه الرسائل منشور فى (الفوائد الفكرية) ، وتدرج فى المناصب على عهد اسماعيل وتوفيق ، ولما أنشئت ادارة المكاتب الأهلية بوزارة المعارف جعل وكيلا لها سنة ١٨٧١ ، وصار وكيلا لوزارة المعارف فى يوليه سنة ١٨٧٩ ، واستمر يشغل هذا المنصب الى دسمبر سنة ١٨٨١ ، اذ تألف مجلس النواب على عهد الثورة العرابية ، فجعل كبير كتاب المجلس ، ولما استقالت وزارة شريف باشا وألف محمود باشا سامى البارودى الوزارة فى فبراير سنة ١٨٨٢ اشترك

المترجم فيها متوليا وزارة المعارف العمومية ، فكان عضوا فى «وزارة الثورة» التى عارضت الخديوى توفيق باشا واستقالت احتجاجا على مسلكه فى مايو سنة ١٨٨٢ ، ومن هنا سخط الخديوى على المترجم ، فلما أخفقت الثورة كان من المقبوض عليهم بتهمة الاشتراك فى الفتنة ، ثم أطلق سراحه بعد أن أثبت براءته منها ، ولكن معاشه كان موقوفا من يوم اعتقاله ، فالتمس من توفيق باشا العفو عنه فى قصيدة طويلة أبان فيها عن اخلاصه وولائه لسدته ، فأمر باعادة معاشه ، وفى سنة ١٣٠٦ هـ ندبته الحكومة لرآسة الوفد المصرى فى المؤتمر الذى انعقد بمدينة استوكهلم عاصمة السويد والنرويج ، وعرج على بعض بلاد أوروبا يصحبه نجله أمين باشا فكرى ، ولما عاد اشتد به مرض أصابه أثناء رحلته ، حتى وافاه الأجل يوم ١٠ المحرم سنة ١٣٠٧ ، وكان كاتباً أديبا ، وشاعرا بليغا

الشيخ عبد الهادى نجا الابيارى (١٨٢١ — ١٨٨٨)

من كبار الادباء والكتاب فى ذلك العصر ، وصفه على باشا مبارك فى الخطط التوفيقية (ج ٨ ص ٢٩) بالحبر الهمام ونخر العلماء الاعلام ، الامام الاريب ، واللوذعى الاديب ، الشاعر الناثر ، الحافظ الماهر ، العلامة الشيخ عبد الهادى نجا ابن العلامة الشيخ رضوان الابيارى ، ولد فى ابيار غربية ، وتلقى العلم فى الازهر على يد شيوخه ، ونبغ فى علوم اللغة والفقه والادب ، فذاعت شهرته ، وعهد اليه الخديوى اسماعيل تثقيف أبنائه وتعليمهم ، ومنهم الامير توفيق باشا ، وكان وهو يتولى هذا المنصب يتصدر للتدريس فى الازهر وفى بيته ، وأخذ عنه كثيرون من جلة العلماء ، كالشيخ حسن الطويل ، والشيخ محمد البسيونى ، ولما تولى توفيق باشا الاريكة الخديوية قربه اليه وجعله اماما للمعية ومفتيها ، وشغل هذا المنصب حتى وفاته ، وكان كاتباً أديباً ، راسل أعلام الأدب فى سائر الاقطار كأحمد فارس الشدياق والشيخ ناصيف اليازجى والشيخ ابراهيم الاحدب ، وله مؤلفات قيمة فى الادب واللغة بلغت أربعين كتابا

السيد عبد الله نديم (١٨٤٣ — ١٨٩٦)

الكاتب الشاعر الاديب ، والخطيب الوطنى المفوّه ، أحد تلاميذ السيد جمال الدين الافغانى ، ومن الذين استمسكوا بتعاليمه ومبادئه طول حياته ، ولد بالاسكندرية ، ونشأ محباً للادب ، ميالا للخطابة والشعر ، جريئا مقداماً ، مولعاً بالحرية ، بدأت شخصيته الادبية والسياسية تظهر فى أواخر عهد اسماعيل ، و بدأ ينشر رسائله فى جريدتى (مصر) و (التجارة) ، وأسس سنة ١٨٧٩ الجمعية الخيرية الاسلامية بالاسكندرية ، التى ضمت أعيان الثغر ووجهاءه ، وكانت باكورة أعمالها انشاء مدرسة أهلية لتعليم البنين والبنات ، وهو أكبر خطباء الثورة العرابية ، وله فيها دور كبير سنفصله فى موضعه

اديب اسحق (١٨٥٦ — ١٨٨٥)

الشاعر الناثر ، والصحفى السياسى الحر ، ولد فى دمشق ، و بدا منه منذ صباه الميل الى الشعر والادب ، والتعلق بالحرية ، فما ان جاء مصر حتى اتصل بجمال الدين وصار من أخلص تلاميذه ، وأصدر جريدة (مصر) ثم جريدة (التجارة) وامتازتا بالأسلوب البليغ والروح الوطنية ، وكان السيد جمال الدين يكتب فيهما أحيانا ، وكذلك الشيخ محمد عبده ، ولقيت الصحيفتان إقبالا عظيما ، ثم ألغيتا بأمر رياض باشا ، وهجر أديب اسحق مصر سنة ١٨٨٠ ، ورحل الى باريس حيث أصدر فيها جريدته باسم (القاهرة) ، وهناك أصيب بعلة الصدر ، وعاد الى بيروت ، ثم رجع الى مصر فى عهد الثورة العرابية ، وأعاد اصدار جريدة (مصر) ، وعين رئيسا لقلم الترجمة بوزارة المعارف ، ثم كاتبا ثانياً لمجلس النواب ، ولما أخفقت الثورة هاجر من مصر ضمن من هاجروا الى سوريا ، واشتدت به علة الصدر ، فجاء مصر للاستشفاء فلم تتقدم صحته ، فعاد الى بيروت ، ولم يمض عليه ثلاثون يوما حتى عاجلته المنية سنة ١٨٨٥ وهو فى ريعان الشباب ، وقد جمعت أقواله وأشعاره فى كتاب اسمه « الدرر »

الشيخ على الليثي — توفى سنة ١٨٩٦

شاعر الخديوى اسماعيل ، وشيخ الندماء فى عصره ، كان أديبا ذكى الفؤاد، حاضر البديهة ، لطيف العشرة ، حلو الحديث ، خفيف الروح ، محبا للخير ، محبوبا من معاصريه ، قربه اليه الخديوى وجعله «منشئا بالمعية» ، وكان يستصحبه فى غدواته وروحاته ، ويحترمه ويأنس لسمره وأحاديثه ، وله ديوان شعر لم يطبع

على ابو النصر المنفلوطي — توفى سنة ١٨٨٠

من شعراء ذلك العصر المجيدين ، ولد فى منفلوط ، وتعلق منذ صباه بالشعر والانشاء ، فقربه اسماعيل اليه وجعله « منشئا بالمعية » ونال جوائزه وهباته ، ورافقه فى سفره الى الاستانة على عهد السلطان عبد العزيز ، وله ديوان شعر طبع ببولاق سنة ١٣٠٠ هـ

الشيخ حسن الطويل — توفى سنة ١٨٩٩

هو أنبغ من درس المنطق فى مصر قبل حضور السيد جمال الدين الافغانى ، ومن كبار علماء الازهر واساتذة دار العلوم ، وجهابذة المنطق والعلوم الرياضية ، أخذ عنه العلوم الشرعية والرياضية والفلسفية نخبة من علماء مصر وادبائها ، توفى فى ٤ يوليه سنة ١٨٩٩

السيد صالح مجدى بك (١٨٢٧ — ١٨٨١)

كاتب شاعر ، ومعرب ومؤلف ، ولد بقرية ابى رجوان القبلية سنة ١٢٤٢هـ وتلقى العلم فى مكتب حلوان من المكاتب النظامية التى انشأها محمد على باشا ، ثم فى مدرسة الألسن ، فاتقن علوم اللغة العربية ، ودرس الفرنسية ، ومهر فى التعريب على يد استاذه رفاعة بك رافع الطهطاوى ، وبعد ان تخرج فى مدرسة الألسن التحق بقلم الترجمة ، وتخصص فى تعريب كتب الرياضيات ، ثم انتقل الى مدرسة المهندسخانة ، وتولى بها تدريس العربية والفرنسية والترجمة، وعرب كثيرا من

الكتب الرياضية وكانت كلها تدرس فى المدارس ، « وله غير ذلك من الكتب التى تجل عن الحصر » كما يقول عنه العلامة على باشا مبارك (الخطط ج ٨ ص٢٢) و بعد ان قضى عشر سنوات يتولى التدريس فى مدرسة المهندسخانة انتقل الى الاى المهندسين والكبورجية ، وتولى ترجمة وتصحيح مايعرب من الفنون الحربية ، وانتقل فى عهد اسماعيل الى قلم الترجمة المستجد ، واشترك فى ترجمة (الكود) قانون نابليون ، وتولى هو تعريب قانون تحقيق الجنايات ، واستمر يرقى فى المناصب حتى جعل سنة ١٢٨٧هـ مأمورا لادارة المدارس ، ولما انشئت المحاكم المختلطة عين قاضيا بمحكمة مصر المختلطة ، وشغل هذا المنصب حتى توفى سنة ١٨٨١ ، وكان شاعرا أديبا ، وله ديوان شعر كبير طبع سنة ١٣١٢هـ ، وله مقالات أدبية فى مجلة (روضة المدارس) ، ووضع كتابا لم يطبع فى ترجمة حياة رفاعة بك رافع اسمه (حلية الزمن بمناقب خادم الوطن) وقد أحصى العلامة على باشا مبارك مؤلفاته وتراجمه فبلغت خمسة وستين كتابا ورسالة ، وكتب بيده من الكراريس مالا يدخل تحت حصر

ابراهيم بك مرزوق (١٨١٧ — ١٨٦٦)

شاعر أديب ، أدرك أوائل عهد اسماعيل ، وهو من تلاميذ رفاعة بك ، توفى بالخرطوم سنة ١٨٦٦ ، وله ديوان شعر جمعه محمد بك سعيد ابن جعفر مظهر باشا حكمدار السودان وسماه (الدر البهى المنسوق ، بديوان ابراهيم بك مرزوق) طبع ببولاق سنة ١٢٩٤هـ

ابو الوفاء نصر الهوريني — توفى سنة ١٨٧٤

من خريجى بعثات محمد على ، وكان يجيد الفرنسية ، وله كتاب « المطالع النصرية للمطابع المصرية فى الاصول الخطية » وكتاب « تسلية المصاب على فراق الاحباب »

محمود صفوت الساعاتى — توفى سنة ١٨٨٠

شاعر أديب ، توجه الى الحجاز ، فاكرم امير مكة مثواه ، وابقاه عنده مدة

أعلام الأدب



















على ابو النصر المنفلوطى

محمد عارف باشا

ابراهيم بك مرزوق

الزرقانى





في عصر إسماعيل



مقابل ص ٢٧٩

ثم عاد الى مصر والتحق بالمعية ، وعرف بالساعاتى لبراعته فى فن الساعات ، وان لم يحترفه ، وله ديوان مطبوع سنة ١٩١٢

محمد عارف باشا

من أفاضل علماء ذلك العصر وأدبائه فى اللغتين العربية والتركية، وقد تجلى ميله الى العلم والادب فى انشائه جمعية المعارف التى سبق الكلام عنها

احمد بك عبيد — توفي سنة ١٨٨٠

من نوابغ خريجى مدرسة الالسن ، ورئيس قلم الترجمة بوزارة الحربية ، وله تراجم فى الفنون الحربية والرياضية ، وترجم عن الفرنسية تاريخ بطرس الاكبر ، وكان وكيلا للمحكمة التجارية بالقاهرة ، ثم قاضياً بمحكمة الاسكندرية المختلطة سنة ١٨٧٥

خليفة افندى محمود

من خريجى مدرسة الالسن ، ومن أنبغ تلاميذ رفاعة بك ، التحق بقلم الترجمة وصار رئيس القسم الخاص بترجمة التواريخ والادبيات فى هذا القلم ، وله تراجم كثيرة فى التواريخ ، منها (اتحاف الملوك الالبا بتقدم الجمعيات فى بلاد أوروبا) وهو مقدمة لتاريخ الامبراطور شارلكان الذى عربه بعنوان (اتحاف ملوك الزمان بتاريخ الامبراطور شارلكان) ، لروبرتستون وليم المؤرخ الانجليزى فى ثلاثة أجزاء طبعت سنة ١٢٦٦هـ ، وادرك اوائل عصر اسماعيل وتوفى سنة ١٢٨١ هـ (١) (١٨٦٤)

بقية اعلام الادب

وثمة أدباء آخرون مثل الشيخ محمد قطه العدوى أحد كبار الاساتذة فى مدرسة الالسن ، وقد ادرك أوائل عصر اسماعيل ، والشيخ احمد عبد الرحيم الاستاذ بمدرسة الالسن ، والشيخ مصطفى سلامة ، وكلاهما من محررى الوقائع المصرية ،

---

(١) كما جاء فى الخطط التوفيقية ج ٨ ص ٢٣

والشيخ ابراهيم عبد الغفار الدسوقى كبير مصححى الكتب العلمية واستاذ المستشرق (لين) والمتوفى سنة ١٨٨٣ ، وابراهيم بك اللقانى أحد تلاميذ السيد جمال الدين الافغانى ، وكان يكتب فى جريدتى (مصر) و (التجارة) ثم فى (مرآة الشرق) وغيرها من الصحف . والزرقانى الشاعر الاديب . ومحمد افندى عبد الرازق المتوفى سنة ١٨٧٣ (١٢٩٠ هـ) معرب كتاب (غاية الارب فى خلاصة تاريخ العرب) للمسيو سديليو طبع سنة ١٢٨٩هـ . والشيخ حمزه فتح الله وقد بدأت كفايته اللغوية تظهر فى ذلك العهد ، وأمين بك فكرى نجل عبد الله باشا فكرى ، وعلى بك فهمى رفاعة نجل رفاعة بك ، واحمد بك فتحى ناظر مدرسة رأس التين . وتادرس افندى وهبى (بك) . ومحمد افندى فنى . وعبد السلام افندى سلمى . والشيخ عثمان مدوخ ، وهؤلاء ظهرت باكورة آثارهم الادبية فى مجلة (روضة المدارس) . الخ . الخ

علماء الهندسة والرياضيات

على باشا مبارك . مصطفى بهجت باشا . محمد مظهر باشا . احمد فايد باشا . حسن باشا فهمى المعمار . احمد بك السبكى . حسن بك نور الدين وهؤلاء قد ترجمنا لهم فى (عصر محمد على) ص ٥١٥ وما بعدها

حسين حسنى باشا وقد ترجمنا له فى الكتاب الحالى ص ٢٦٦

محمود باشا الفلكى

(١٨١٥ — ١٨٨٥)

هو محمود باشا حمدى الفلكى ، أنبغ من أنجبتهم مصر الحديثة فى الفلك والرياضيات ، ولد سنة ١٢٣٠ هـ (١٨١٥ م) ببلدة (الحصة) بمديرية الغربية ، وعنى أخوه بتربيته وأدخله مدرسة الاسكندرية التى أنشئت سنة ١٨٢٤ فى عهد محمد على ، فارتقى الى رتبة بلوك أمين ، وكان أخوه قد سبقه الى دخول هذه المدرسة

وتخرج منها ضابطاً فى الاسطول ، ثم انتقل المترجم الى مدرسة المهندسخانة بمصر فبذ اقرانه من التلاميذ فى العلم والذكاء وحسن الاستعداد ، وتخرج من المدرسة سنة ١٢٥٥ هـ ، وكان من أوائل الناجحين ، فعين أستاذاً مساعداً للعلوم الرياضية بها ، ونال رتبة ملازم ثان ، وكان من تلاميذه وقتئذ على مبارك (باشا) ، وبقى يتولى التدريس بالمهندسخانة ، وتعلم اللغة الفرنسية واستطاع أن يعرب بعض الكتب الفرنسية فى الرياضيات ، وأخذ يتقن من ذلك الحين دراسة العلوم الفلكية فى المؤلفات التى وضعها كبار علماء الفلك بفرنسا ، ويدرس هذه العلوم لتلاميذ المهندسخانة ، ومن تلاميذه فيها اسماعيل (باشا) الفلكى ، وابتكر وضع التقاويم السنوية ، فوضع تقويما لسنة ١٢٦٤ هـ قارن فيه بين التواريخ الهجرية والميلادية والقبطية ، وبيّن مواقع الشمس والقمر لتلك السنة ، وعرف بين الناس من ذلك الحين بلقب (الفلكى) ، الذى لازمه طول حياته

وفى سنة ١٢٦٦ هـ (منتصف سنة ١٨٥٠) اعتزم عباس باشا الاول اعادة تنظيم رصدخانة بولاق (دار الرصد) المنشأة فى عهد محمد على ، فانفذ ثلاثة من نوابغ المهندسين الى باريس للتخصص فى الفلك ، وهم المترجم وكان مدرسا بالمهندسخانة وحسين افندى ابراهيم ، واسماعيل مصطفى الفلكى ، وكانا قد اتما دراستهما بالمدرسة ، فسافروا الى اوروبا سنة ١٨٥١ ، ومكث المترجم نحو تسع سنوات مكبا على استكمال العلوم حتى نبغ فى الرياضيات والفلك

وكان يواصل الحضور بدار الرصد فى باريس ، وزار دور الرصد فى مختلف النواحى باوروبا ، وظهر نبوغه هناك بادخاله بعض اصلاحات فى الآلة المسماة بالتيودوليد ، ونشر بعض مباحث فلكية فى المجلات الاوروبية ، ووضع اثناء دراسته بباريس الرسائل الآتية :

(١) رسالة عن التقاويم الاسلامية والاسرائيلية طبعت سنة ١٨٥٥ ببروكسل

(٢) رسالة عن التقاويم العربية قبل الاسلام حقق فيها مولد النبى عليه الصلاة والسلام ونشرت فى المجلة الاسيوية ثم عربها الاستاذ احمد زكى (باشا) بعنوان

(نتائج الافهام فى تقويم العرب قبل الاسلام) ـ (٣) رسالة عن فعل « كان » ـ (٤) رسالة عن المواد المغناطيسية الارضية قدمها سنة ١٨٥٦ الى المجمع العلمى بفرنسا

ونال المترجم أعظم الشهادات العلمية ، ثم عاد الى مصر فى عهد سعيد باشا سنة ١٨٥٩ ، فانعم عليه برتبة اميرالاى ، وعهد اليه وضع خريطة مفصلة للقطر المصرى ، فاضطلع بهذه المهمة وشرع فى تخطيط تلك الخريطة بمعاونة بعض المهندسين « ورتب الرسوم وابرز من جليل صنعه وجميل وضعه ما انبهرت منه العقول ووقفت على مقدار براعته » (١)

فانجز خريطة جامعة للوجه البحرى لم يسبقه اليها أحد من العلماء والمهندسين ، ووضع خريطة أخرى للوجه القبلى ، وأخرى عن مدينة الاسكندرية

وفى سنة ١٢٧٦ هـ عهد اليه سعيد باشا بالرحلة الى دنقله لملاحظة كسوف الشمس الكلى ، فأدى هذه المهمة ، وانتهز هذه الفرصة فحقق المواقع الفلكية على النيل ، ووضع رسالة مسهبة عن هذا الكسوف قدمها الى سعيد باشا والى اكاديمية العلوم بباريس فنالت استحسان العلماء

وخطط معالم الاسكندرية القديمة ، ونقب فى حفائرها ، وهو أول عالم عصرى كشف عن آثار الاسكندرية وموقع سورها القديم ، وله فى ذلك رسالة بديعة باللغة الفرنسية عن الاسكندرية القديمة طبعها سنة ١٨٦٦ ، وهى رسالة تتضمن نتائج مكتشفاته وما قام به من النقب والحفر ، وما وصل اليه من كشف معالمها القديمة ، كأسوارها ، وشوارعها ، واقنيتها ، ومراسحها ، ومتحفها ، ومكتبتها الشهيرة ، وقصورها ، ومبانيها ، وضواحيها ، ولم يسبقه الى هذه المكتشفات المؤسسة على عمليات الحفر عالم عصرى من الافرنج ، لان مهندسى الحملة الفرنسية لم يكن لديهم

---

(١) عن ترجمة حياته بقلم اسماعيل بك (باشا) الفلكي والميرالاى محمد مختار بك (باشا) فى محاضرة القياها بالجمعية الجغرافية بجلسة ٨ ينايرسنة ١٨٨٦ ، ونشرت فى مجلة الجمعية بمجموعة ٢ عدد ١٢

الوقت ولا الوسائل الكافية للحفر والتنقيب (١) ، وقد بحث اثنان منهم فى مواقع الاسكندرية ، أولهما المسيو سان جنيس Saint Genis أحد مهندسى الحملة ، وله فى الاسكندرية القديمة بحث مستفيض منشور فى الجزء الخامس من كتاب (تخطيط مصر) Description de l'Egypte ولكن المسيو سان جنيس لم ينقب ولم يحفر الارض كما فعل محمود باشا الفلكى ، بل اكتفى بذكر نتائج مشاهداته وآرائه التاريخية ، وكذلك كتب المسيو جراتيان لوبير Gratien Lepère بحثا فى وصف الاسكندرية نشر فى الجزء الثامن عشر ، اقتصر فيه على تدوين مشاهداته وما نقله عن مؤرخى الافرنج والعرب ، وللمسيو Norry ، وللمسيو مارتان Martin وكلاهما من مهندسى الحملة الفرنسية بحثان أقل أهمية من ابحاث سان جنيس وجراتيان لوبير ، منشوران فى الجزء الخامس عشر من كتاب (تخطيط مصر) ، وكل هذه المباحث لم تكن مقرونة بأعمال الحفر والتنقيب

فمحمود باشا الفلكى هو أول عالم عصرى خطط معالم الاسكندرية القديمة ، على ما كشفت له أعمال الحفر تحت الارض ، وقد بذل فى مكتشفاته جهودا كبيرة ، وكان تحت امرته جماعة من المهندسين المصريين ، ونحو مائتى عامل يشتغلون فى النقب والحفريات ، ومما أفرد عمله وميّزه انه استثار الارض فى عهد الخديوى اسماعيل باشا ، أى قبل أن تغطى بالمبانى الحديثة ، وتضيع معالم الآثار ، فهو أول من خطط سور البطالسة القديم تخطيطا مبنياً على الاكتشاف والفحص الدقيق

ورسالة محمود باشا الفلكى مقرونة بخريطة هى أبدع مارسمه العلماء والمهندسون عن الاسكندرية القديمة ، واليها يرجع علماء أوروبا فى ابحاثهم

وقد خالف علماء الحملة الفرنسية فى بعض آرائهم ، فعين لمدينة (كانوب) مكانا غير الذى عينوه ، وكشف اطلال مدينة تابوزيريس (بوصير — غربى الاسكندرية) التى يسمى الفرنسيون برجها برج العرب

---

(١) عن تاريخ الحركة القومية ج ١ ص ١٦٦

وله رسالة ممتعة فى التوضيح عن عمر الاهرام والغرض الاصلى من تشييدها وتناسبها مع كوكب الشعرى ، وأخذ بنفسه مقاييس الاهرام وموقعها من التناسب الفلكى

قال الميرالاى محمد مختار بك (باشا) فى هذا الصدد « وكنت موجودا معه عند شروعه فى أخذ مقاييس الاهرام وموقعها من التناسب الفلكى ، وأعلم علم اليقين انه وصل الى معرفة الغرض من تشييدها ، إذ وجدها محكمة البناء فى رسم يقابل كوكب الشعرى عند طلوعه ، فكأن الذى بناها قصد أن يجعلها مزولة ليعرف منها يوم شم نسيم العلماء ، وكذلك لأجل تعريض جثث المدفونين فيها لموافاة صعود الكوكب المذكور ، فيسبغ عليهم من آياته رحمة وغفرانا ، لان كوكب الشعرى كان من معبودات المصريين القدماء »

وله رسالة فى التنبؤ بارتفاع النيل قبل وقوعه ، وأخرى عن ضرورة انشاء دار الرصد بمصر ، وأخرى فى توحيد موازين العملة فى الديار المصرية ورسالة فى المقاييس والمكاييل فى مصر ، وترجم كتاب (حساب التفاضل والتكامل)

وعين سنة ١٨٧١ ناظرا لمدرسة المهندسخانة ، وتولى نظارة الرصدخانة ، وإذ كان وكيلا للجمعية الجغرافية فقد ناب عن الحكومة المصرية فى المؤتمر الجغرافى الذى عقد بباريس سنة ١٨٧٥ ، والمؤتمر الجغرافى الآخر الذى عقد بمدينة البندقية سنة ١٨٨١

ومن أعماله انشاء مدفع الظهر بالقلعة ، وانشأ على سطح منزله (بميدان الفلكى) مزولة تبين ساعات النهار ، ورفعت من مكانها بعد وفاته

وقد تولى وزارة الاشغال سنة ١٨٨٢ فى عهد وزارة اسماعيل راغب باشا ، وعين وكيلا لوزارة المعارف فى وزارة شريف باشا سنة ١٨٨٢ — ١٨٨٤

ثم عهد اليه بوزارة المعارف فى عهد وزارة نوبار باشا الثانية سنة ١٨٨٤ ، وتولى رآسة الجمعية الجغرافية الخديوية وبقى يتولاها مع الوزارة الى أن توفى فى ١٩ يوليه سنة ١٨٨٥

وقد أبنته الجمعية الجغرافية الخديوية فى اجتماعها يوم ٨ يناير سنة ١٨٨٦ ، والقى كل من اسماعيل بك مصطفى الفلكى والميرالاى محمد مختار بك محاضرة فى ترجمة حياته ومآثره ، واقترح الميرالاى محمد مختار بك اقتناء مكتبة المترجم ، وما فيها من نفائس الكتب ، وما خطه وما دونه من ملاحظاته ومعلوماته ، ونتائج اختباراته العلمية ، وكان المترجم يفكر فى اعداد قاعة عامة للمطالعة بداره يعرض فيها لمن يرغب من محبى الاطلاع كل ما وصل اليه من نفائس الكتب والخرائط والمخطوطات ، وقد تحققت هذه الفكرة سنة ١٩٢٩ ، إذ وهبت كريمته مكتبة الفقيد الى الحكومة

اسماعيل باشا الفلكى — توفى سنة ١٩٠١

هو اسماعيل باشا مصطفى الفلكى ، من تلاميذ محمود باشا الفلكى ، ومن نوابغ علماء الرياضيات والفلك ، اتم دراسته فى مدرسة المهندسخانه ببولاق والتحق سنة ١٨٤٥ على عهد محمد على بالرصدخانة القديمة التى كانت ببولاق ، ثم أوفده عباس الاول سنة ١٨٥٠ ضمن البعثة التى خصصها لدراسة الفلك ، وكانت مؤلفة من محمود حمدى (باشا) الفلكى ، ومن المترجم وحسين افنـدى ابراهيم ، ومكث اسماعيل أربعة عشر عاما فى فرنسا يدرس علوم الفلك ، ويتفقه فيها ، ويمارسها فى دور الرصد ، فحاز بحق هو ومحمود باشا لقب (الفلكى) ، ومارس أيضاً صناعة الآلات الفلكية ، وأتقنها فى باريس ، وعاد الى مصر فى أوائل عهد اسماعيل ، فقدر كفاءته وأنعم عليه بالرتبة الثانية ، ولما انشأ الرصدخانة بالعباسية عهد اليه بنظارتها ، وقد عهد اليه دراسة مشروع سكة حديد سواكن — بربر بالسودان ، فبحثه ووضع تصميما له ، ولكنه لم ينفذ ، وناب عن الحكومة سنة ١٨٧٣ فى مؤتمر الاحصاء الدولى بموسكو ، فاعجب العلماء بكفاءته وسعة اطلاعه ، وتولى نظارة الرصدخانة ونظارة مدرسة المهندسخانة

ومن أعماله أنه أصلح مقياس النيل فى أسوان سنة ١٨٧٠ ، وله مؤلفات فى الفلك والرياضيات أهمها (١) الآيات الباهرة فى النجوم الزاهرة ، طبع ذيلا لمجلة

روضة المـدارس و (٢) الدرر التوفيقية و (٣) تقاويم فلـكية كان ينشرها كل عام بالعربية والفرنسية (٤) والتحفة المرضية فى المقاييس والموازين المترية معربة عن الفرنسية شاركه فى تعريبها صادق بك شنن

سلامة باشا

هو سلامة باشا ابراهيم ، مفتش هندسة الوجه البحرى ، ثم مفتش هندسـة الوجه القبلى ، ثم مفتش عموم ديوان(وزارة) الاشغال ، وهو من كبار المهندسين فى ذلك العصر ، وأصله من الاسكندرية ، وأبوه السيد ابراهيم شرابيه بن صالح شرابيه من أهالى الثغر [1] ، وله آثار تشهد له بالـكفاءة فى الاعمال الهندسية ، منها انه أنشأ ترعة الساحل ، وكان وقتئذ وكيلا لمظهر باشا مفتش بحر الشرق (فرع دمياط) على عهد سعيد باشا ، واشترك مع مصطفى بهجت باشا فى انشاء الترعة الابراهيمية ، وهى من أجل أعمال العمران التى انشئت فى ذلك العصر ، وفى اقامة قناطر التقسيم على الترعة المذكورة ، وهى من أعظم قناطر الرى فى العالم

محمد ثاقب باشا

من أهالى القرشية بمديرية الغربية ، ومن مشاهير المهندسين فى عصر محمد على واسماعيل ، حضر بعض المواقع الحربية على عهد محمد على ، وعاون مصطفى بهجت باشا فى بناء القناطر الخيرية ، وصار مفتش هندسة الوجه القبلى ، توفى سنة ١٨٧٤

اسماعيل باشا محمد

ناظر قلم الهندسة ورئيس ادارة دروس المدارس الملـكية ، ثم مفتش هندسة الوجه القبلى ، واشترك فى اتمام ترعة الابراهيمية وقناطرها ، وهو الذى صار رئيس مجلس شورى القوانين سنة ١٨٩٩

---

(١) عن حجة شرعية حررها سلامة باشا فى يوم الاحد ١٥ المحرم سنه ١٣٠٠ مسجلة بمحكمة مصر الشرعية

علماء الهندسة والرياضيات فى عصر اسماعيل



مقابل صحيفة ٢٨٦

احمد بك نجيب

استاذ الرياضة بمدرستى اركان حرب والطوبجية ، وله كتاب (التحفة البهية فى الهندسة الوصفية) طبع سنة ١٢٩٠ ه

حسين افندى على الديك

مدرس الحساب بمدرسة المحاسبة ، وله كتاب قيّم فى مسك الدفاتر اسمه (عمدة الحاسب وعمدة الكاتب) طبع سنة ١٢٨٦ه (١٨٦٩م) وله كتاب (عمل الدواوين المتواتر فى بيان رسوم الدفاتر) طبع سنة ١٢٩١

على افندي عزت

استاذ العلوم الرياضية بالمهندسخانة ، توفى سنة ١٨٧٢ وله كتاب (حسن الصنيعة فى علم الطبيعة) طبع سنة ١٢٧٠ه ، و (النخبة العزية فى تهذيب الاصول الهندسية) طبع سنة ١٢٧٤ و (الخلاصة العزية فى تهذيب الاصول الحسابية) طبع سنة ١٢٨٥

عامر بك سعد

استاذ الرياضيات بالمدارس الحربية ، وله (المنحة الزهرية فى الاعمال الجبرية) طبع سنة ١٢٦٩ه ـ و (احسن الوسائل لتصريف السوائل) طبع سنة ١٢٩١ وهو ملخص القواعد النظرية فى تصريف المياه من البحيرات والجداول

السيد عمارة

من تلاميذ رفاعة بك ، وله كتاب (تهذيب العبارات فى فن أخذ المساحات) عربه عن الفرنسية بارشاد رفاعة بك

علماء الطب والجراحة

محمد على البقلى باشا . احمد حسن الرشيدى بك . محمد الشافعى بك . حسين عوف باشا . وهؤلاء قد ترجمنا لهم فى عصر محمد على (ص ٥٢١ وما بعدها)

محمد درى باشا

(١٨٤١ — ١٩٠٠)

كبير الجراحين فى عصره ، ولد بالقاهرة سنة ١٢٥٧ هـ ، وأبوه السيد عبد الرحمن احمد من محلة أبى على القنطرة (غربية) ، تلقى التعليم الابتدائى والثانوى ، ثم التحق بمدرسة المهندسخانة فى عهد نظارة على باشا مبارك ، لكنه كان ميالا الى الطب ، فما زال يسعى فى الانتقال الى مدرسة قصر العينى حتى وفق الى غرضه سنة ١٢٦١هـ ، والتحق بها ، وأكب على الدراسة ، ونجح فى الامتحان السنوى ، ولكن سعيد باشا أمر بالغاء مدرسة الطب وأخرج منها تلاميذها ، فكان المترجم ضمن من ألحقوا باحدى الاورط العسكرية فى الجيش ، فلم يتسرب اليأس الى نفسه ، وأخذ يعنى بالاطلاع على المعلومات الطبية ما استطاع الى ذلك سبيلا ، واشتغل ممرضا فى الجيش ، وظل كذلك الى أن أعاد سعيد باشا فتح مدرسة الطب ، فعاد اليها المترجم ، وأتم دراسته بها ، وظهرت عليه علائم الذكاء والنبوغ ، فعين مساعداً ومعيدا للجراحة بالمدرسة

وفى سنة ١٢٧٩هـ أوفد سعيد باشا بعثة من الاطباء لاتمام دراستهم فى باريس مؤلفة من الاطباء محمد بك فوزى ، ومحمد بك عامر ، وقاسم بك فتحى ، ومحمد بك القطاوى ، وعلى بك رياض ، ومحمد بك زهران ، وعقباوى افندى ، والمترجم ، وكان أصغرهم سنا ، وقد استدعت الحكومة هؤلاء الاطباء فى أوائل عهد اسماعيل ، قبل اتمام دراستهم ، لاحتياج الحكومة اليهم ، فرجعوا الى مصر ، عدا المترجم فقد استثنى منهم لصغر سنه ، فأكمل معارفه الطبية وأتم دروسه على أشهر جراحى

علماء الطب والجراحة في عصر اسماعيل











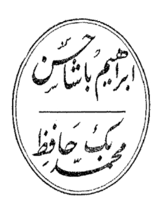














مقابل ص ٣٨٨

العالم وقتئذ ، و بقى يوالى الدرس والتخصص فى باريس نحو سبع سنوات ، ونبغ فى الجراحة نبوغا عظيما ، شهد له به أساتذته ، وفى خلال هـذه المدة قابل الخديوى اسماعيل فى باريس ، فشمله بعطفه و رعايته ، إذ سمع من أساتذته الثناء المستطاب على كفاءته واجتهاده

وعاد المترجم الى مصر ، فتقلد المناصب الطبية ، وأهم ما تقلده منصب كبير الجراحين بمستشفى قصر العينى، والاستاذ الأول للجراحة بمدرسة الطب، وأنعم عليه بالرتب الى أن نال الباشوية سنة ١٣١٥ هـ ، وسطع نجمه فى الجراحة ، وذاعت شهرته فيها حتى عمت أرجاء البلاد ، و بلغ ذروة الشهرة بما عرف عنه من النبوغ فى فنه ، والمهارة فى إجراء العمليات الجراحية الخطيرة ، والدقة فى تشخيص الداء والدواء ، والتفانى فى الاخلاص لعمله وفنه، وحب الانسانية، والبر بالفقراء والمعوزين ، هذا الى تعلقه بالعلم والتأليف ، فقد اقتنى مكتبة علميـة من أنفس المكاتب ، وألف مجموعة تشريحيـة من أعظم ما جمعه الأطباء ، وأنشأ لنفسه مطبعة لطبع مؤلفاته و رسائله ، سميت المطبعة الدرية ، كان يطبع فيها المؤلفات الطبية التى ظهرت فى عصره ، وقد ظل مخلصا لفنه وللعلم حتى وافته المنية ليلة ٣٠ يونيه سنة ١٩٠٠ ، وأهم مؤلفاته الطبية « بلوغ المرام فى جراحة الأجسام » طبع بالمطبعة الدرية فى أربعة مجلدات ، و له « الاسعافات الصحية فى الأمراض الوبائية » طبع سنة ١٣٠٠ هـ

حسن بك عبد الرحمن

توفى سنة ١٨٧٥

تخرج من مدرسة الطب بقصر العينى ثم تولى تدريس التشريح فيها ونبغ فى هذا الفن ، وترجم كتاب (القول الصحيح فى علم التشريح) طبع سنة ١٢٨٣ هـ بإرشاد محمد على باشا البقلى اذ كان ناظراً لمدرسة الطب

محمد بك حافظ

توفى سنة ١٨٨٧

تخرج فى مدرسة قصر العينى،واتقن فن الرمد باوروبا ، ثم تولى تدريسه بقصر العينى ، وله كتاب (مطمح الانظار فى تشخيص امراض العين بالبحث بالمنظار) طبع سنة ١٢٩٩ ه

سالم باشا سالم

توفى سنة ١٨٩٣

من القنايات بمديرية الشرقية ، تعلم فى مدرسة الألسن،ثم فى مدرسة الطب ،وأوفدته الحكومة فى عهد عباس باشا الاول لاتمام دراسة الطب فى مونيخ بالمانيا ، فاكمل دراسته علما وعملا ، وعاد الى مصر ، وارتقى فى المناصب الطبية وجعله الخديوى توفيق باشا طبيبه الخاص ، وله من المؤلفات (١) وسائل الابتهاج الى الطب الباطنى والعلاج طبع سنة ١٢٩٨ ه فى أربعة مجلدات و (٢) دليل المحتاج فى الطب والعلاج و (٣) الينابيع الشفائية والمياه المعدنية

جليلة تمرهان

توفيت سنة ١٨٩٩

من خريجات مدرسة القابلات (الولادة) ، ثم تولت التدريس فيها ولها فى فن الولادة كتاب (محكم الدلالة فى اعمال القبالة) طبع سنة ١٢٨٦ ه

محمد بك بدر

توفى سنة ١٩٠٢

من زاوية البقلى بمديرية المنوفية،ومن خريجى مدرسة الطب بقصر العينى ، وأحد تلاميذ محمد على باشا البقلى ، أتم دراسته فى انجلترا وعاد منها فى عهد سعيد ،فتولى مناصب عدة حتى صار استاذاً فى مدرسة الطب ، ونال منزلة رفيعة لدى اسماعيل،

وله من المؤلفات (١) الفرائد الدرية فى علم الشفاء والمادة الطبية طبع سنة ١٣٠٧ ه و (٢) الدرر البدرية النضيدة فى شرح الادوية الجديدة طبع سنة ١٣١٠ و(٣) الصحة التامة والمنحة العامة طبع سنة ١٢٩٦ ه

احمد حمدى باشا

توفى سنة ١٩٠٣

هو نجل الدكتور محمد على باشا البقلى ، ومن خريجى مدرسة قصر العينى ، ثم أتم دراسته فى باريس و بعد عودته الى مصر سنة ١٨٦٩ عين أستاذاً للعمليات الجراحية فى حياة أبيه ، وحذا حذوه فى التأليف

حسن باشا محمود

(١٨٤٧ — ١٩٠٦)

ولد بقرية الطالبية فى طريق الاهرام ، وتلقى علومه بالمدرسة الحربية ، أوفدته الحكومة سنة ١٨٦٢ ضمن بعثة مدرسية الى المانيا لدراسة الطب ، وعاد سنة ١٨٧٠ ، فعين استاذاً للتشريح فى مدرسة قصر العينى ، وتقلد مناصب عدة ، الى أن صار ناظراً لمدرسة الطب ، وله مؤلفات قيمة ومباحث طبية كان ينشرها فى المجلات العلمية كروضة المدارس ثم المقتطف

ابراهيم باشا حسن وعيسى باشا حمدى

كلاهما من نوابغ الاطباء ، وللأول كتاب (روضة الآسى فى الطب السياسى) طبع سنة ١٢٩٣ه (١٨٧٦) ، وتولى الثانى نظارة مدرسة الطب سنة ١٨٨٣ ، وله عدة مؤلفات طبية

عبد الرحمن بك الهراوى

توفى سنة ١٩٠٦

من خريجى مدرسة قصر العينى ، أتم دراسته بأوروبا وعين بعد عودته

استاذاً للفسيولوجيا وأمراض الجلد ثم صار وكيلا للمدرسة سنة ١٨٨٠ وله كتاب في الفسيولوجيا لم يطبع

علماء الطبيعيات

احمد بك ندا . عبد الهادى اسماعيل ، وقد ترجمنا لهما فى (عصر محمد على) ص ٥٣٤

على بك رياض توفى سنة ١٨٨٩

تلقى علم الصيدلة بمصر ، وأتم دراسته فى أوروبا ، وتولى تدريس الاقرباذين والكيمياء فى مدرسة الطب ، وجعل كبير صيادلة مستشفى القصر العينى ، وله من المؤلفات (١) النفحة الرياضية فى الاعمال الاقرباذينية طبع سنة ١٢٨٩ ﻫ و (٢) الازهار الرياضية فى المادة الطبية طبع سنة ١٢٩٧ – و(٣) التوفيقات الالهية فى التاريخ الطبيعى طبع سنة ١٢٩٨ ﻫ

منصور افندى احمد

استاذ الكيمياء بمدرسة المهندسخانة ومؤلف كتاب (عمدة المتطببين فى فن الصيدلة المعروف بالاقرباذين) طبع سنة ١٢٨٣ ﻫ (١٨٦٦)

علماء الفقه والقانون



محمد قدرى باشا

(١٨٢١ - ١٨٨٦)

العالم المشترع الكبير ، ولد بملوى حوالى سنة ١٨٢١ ، من أب اناضولى وأم مصرية ، وتلقى التعليم الاولى بمكتب ملوى ، ثم التحق بمدرسة الألسن على عهد رفاعة بك رافع الطهطاوى ، فظهر نبوغه وميله الى العلم والترجمة ، وبعد ان تخرج فيها جعل مترجما مساعدا بها ، واتجه ميله الى دراسة علوم الفقه ومقارنة الشريعة الاسلامية بالقوانين الاوروبية ، فحضر بعض دروس الفقه بالازهر ، واقبل على كتب الشرع يدرسها ويتفهمها ، وظل يشغل مناصب الترجمة فى الحكومة الى ان قربه الخديوى اسماعيل ، واختاره مربيا لولى عهده الامير محمد توفيق ، ثم عين بالمعية ، فالمحكمة التجارية بالاسكندريه ، فرئيسا لقلم الترجمة بوزارة الخارجية ، وشارك رفاعة بك فى تعريب الكود (قانون نابليون) ، واختص هو بتعريب قوانين المحاكم المختلطة تمهيدا لوضع قوانين المحاكم الاهليـة الجديدة ، وجعل مستشارا بمحكمة الاستئناف المختلطة ، وله آثار علمية عـدة ، أهمها كتبه الثلاثة

الخالدة التى جمع فيها أحكام الشريعة الاسلامية ، وصاغها فى مواد محكمة الوضع على أسلوب القوانين الاوروبية ، وهذه الكتب هى (مرشد الحيوان الى معرفة أحوال الانسان) على مذهب الامام الاعظم أبى حنيفة النعمان فى المعاملات المدنية الشرعية ، وكتاب (الاحكام الشرعية فى الاحوال الشخصية) ، وكتاب (قانون العدل والانصاف فى القضاء على مشكلات الاوقاف) وهذه الكتب هى مرجع رجال القضاء والقانون فى المحاكم الاهلية والشرعية والمختلطة ، وعمدة كل مشتغل بالعلوم الفقهية والقانونية

وله أيضا كتاب لم يطبع فى (تطبيق ماوجد فى القانون المدنى موافقا المذهب ابى حنيفة)

وتولى وزارة الحقانية فى وزارة شريف باشا الدستورية سنة ١٨٨١ على عهد الخديوى توفيق باشا ، ووضع فى هذا العهد مشروع النظام القضائى للمحاكم الاهلية الجديدة ، وفى ١٨٨٣ افتتحت هذه المحاكم ، وصدرت قوانينها ، وهى القانون المدنى وقوانين التجارة والمرافعات والعقوبات ، وكان المترجم وقتئذ وزيرا للمعارف فى عهد وزارة شريف باشا الرابعة ، وهى الوزارة التى استقالت احتجاجا على اخلاء السودان

الشيخ محمد العباسى المهدي

(١٨٢٧ — ١٨٩٧)

شيخ الاسلام ، ومفتى الديار المصرية ، وصاحب الفتاوى المهدية التى تعد مرجع العلماء فى الفقه الاسلامى ، وهو ابن الشيخ محمد امين المهدى مفتى الديار المصرية الاسبق ابن الشيخ محمد المهدى أحد كبار علماء مصر فى عهد الحملة الفرنسية وأوائل عهد محمد على (ترجمنا له فى الجزء الثانى من تاريخ الحركة القومية ص ٢٩٩)

تلقى العلم بالأزهر ، ونبغ فى علوم الفقه ، وتولى منصب الفتيا وهو بعد فى الحادية والعشرين من عمره ، على عهد ابراهيم باشا ، وظهرت مزاياه التى رفعت مكانته ، وأهمها الذكاء ، وسعة العلم ، وقوة الحجة ، وقد وقف من الحكومات

المتعاقبة موقف الكرامة والاستمساك بالحق ، حتى استهدف فى بعض المواطن لغضب ولاة الأمور ، فلم يكن يبالى غضبهم ، ولم يتحول عن الحق ، وتلك كبرى مزاياه وفضائله ، وقد زاد مقامه علوا فى عهد اسماعيل ، إذجمع بين الافتاء ومشيخة الازهر سنة ١٨٧١ ، ونال احترام الخديوى وثقته ، وكان يرجع الى رأيه فى كل ما له مساس بالشريعة الاسلامية ،وبدأ على يده اصلاح نظام التعليم فى الازهر كما تقدم بيانه ص٢١٥ ،واستمر محتفظا بمكانته فى عهد الخديوى توفيق ، ولما قامت الثورة العرابية لم يكن من أنصارها ،فاستهدف لغضب العرابيين وعزل من مشيخة الازهر ، ولما انتهت الثورة أعيد الى مشيخة الازهر واستمر متقلداً الافتاء والمشيخة حتى عزل عنهما لمعارضته الحكومة على عهد توفيق باشا فيما يخالف الشريعة ، ثم عاد اليه الافتاء وتقلده ، الى أن وافته منيته ليلة ١٦ رجب سنة ١٣١٥ هـ

***

ومن علماء الفقه المعدودين فى هذا العصر الشيخ محمد عليش، والشيخ ابراهيم السقا ، والشيخ عبد الرحمن البحراوى ، والشيخ حسونة النواوى الخ

علماء الفنون الحربية والبحرية

على باشا ابراهيم ، حماد عبد العاطى باشا ، وقد ترجمنا لهما فى (عصر محمد على) ص ٥٣٠

محمود باشا فهمى

توفى سنة ١٨٩٤

أحد زعماء الثورة العرابية ، ولد سنة ١٢٥٥ هـ فى الشنطور بمركز ببا من مديرية بنى سويف ، وتخرج فى مدرسة المهندسخانة ببولاق ، ومهر فى الفنون الهندسية والحربية ، وانتظم فى سلك الجيش ، ثم جعل استاذا لعلم الاستحكامات والفنون

العسكرية فى المدارس الحربيـة ، على عهد سعيد واسماعيل ، وعهد اليه الخديوى اسماعيل تحصين شواطىء مصر الشمالية من ابوقير الى البرلس ، فاضطلع بهذه المهمة، وجدد الحصون القديمة ، وأقام حصونا جديدة ، وارتقى فى الرتب العسكرية ، واشترك فى حرب البلقان سنة ١٨٧٦ — ٧٧ ، وكان رئيس أركان حرب الفرقة المصرية بها



محمود باشا فهمى

توفى سنة ١٨٩٤

ولما شبت الثورة العرابية كان من زعمائها كما سيجىء بيانه فى موضعه ، وتولى وزارة الاشغال فى وزارة محمود باشا سامى البارودى سنة ١٨٨٢ ، وأسر قبل واقعة التل الكبير ، فكان أسره من أسباب هزيمة الجيش المصرى ، وحوكم ضمن زعماء الثورة ، ونفى الى سيلان ، وهناك وضع كتابه (البحر الزاخر فى تاريخ العالم وأخبار الأوائل والاواخر) ، وتوفى فى منفاه سنة ١٣١١هـ (١٨٩٤) و بعد وفاته طبع كتابه سنة ١٣١٢ هـ فى أربعة مجلدات



محمد مختار باشا

(١٨٣٥ — ١٨٩٧)

من رجال السيف والقلم ، ولد فى بولاق سنة ١٨٣٥ وتلقى التعليم الابتدائى ، ثم تلقى الفنون الحربية ، وانتظم فى خدمة الجيش وهو فى الثانية والعشرين من عمره ، وارتقى فى المناصب العسكرية حتى نال رتبة لواء فى سنة ١٨٨٦ ، واشترك فى حملة هرر كما تقدم بيانه ص ١٤١ ، ثم جعل رئيس أركان حرب الجيش المصرى بالسودان ، وعين مأمورا للخاصة الخديوية فى عهد الخديوى عباس حلمى الثانى وبقى يتولى هذا المنصب الى أن توفى فى ٢٠ نوفمبر ١٨٩٧

وقد أسبغت عليه حياته العلمية منزلة ممتازة ، ويحسب من المؤلفين والعلماء أكثر مما يعد من رجال الحرب ، وحسبك أنه صاحب الكتاب القيم (التوفيقات الالهامية فى مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الافرنجية والقبطية) من السنة الاولى للهجرة الى عام ١٥٠٠ هـ طبع ١٣١١ هـ

وقد ذكر ازاء كل شهر أهم الحوادث التاريخية التى وقعت فى مصر والعالم ، وله كتاب (المجموعة الشافية فى علم الجغرافيا) ورسائل أخرى فى الرياضيات والفلك ، ومقالات ممتعة فى مجلة الجمعية الجغرافية

شحاته عيسى بك

ناظر مدرسة أركان الحرب فى عهد الخديوى اسماعيل

محمد صادق باشا

توفى سنة ١٩٠٢

من تلاميذ مدرسة الخانكه الحربية المنشأة فى عهد محمد على ، ومن أعضاء البعثة الخامسة ، عاد من البعثة مهندساً وانتظم ضابطا فى سلك الجيش ، وهو الذى رافق سعيد باشا فى رحلته بالحجاز ، وعين مفتشا بمصلحة المساحة برآسة استون باشا ، وله مباحث قيمة فى مجلة الجمعية الجغرافية

سليمان قبودان حلاوه

توفى سنة ١٨٨٥

من المنوفية، ولد سنة ١٢٣٥ ﻫ وتخرج فى مدرسة الطوبجية على عهد محمد على ، وحذق الفنون الحربية والرياضية ، وجعل أستاذا للهندسة والحساب بالمدرسة البحرية القديمة ، ومهر فى الفنون البحرية وأتقنها ، وصار رُبَّانا للباخرة سمنود ، فاظهر براعة فى قيادتها ، وطاف بها حول القارة الافريقية ، وجعل فى عهد اسماعيل سنة ١٨٧٠ مدرسا للفنون البحرية والفلكية فى المدرسة البحرية ، فأفاد التلاميذ فوائد جمة ، وألف فى الملاحة كتابا اسمه (الكوكب الزاهر فى فن البحر الزاخر) وتوفى سنة ١٣٠٣ ﻫ (١٨٨٥ م)

النهضة الفنية

ان النهضة الفنية تشتمل على الظواهر المعروفة بالفنون الجميلة ، وهى الفنون التى تستثير فى النفس احساس الجمال ، وتنمى فيها ملكته ، ولا مراء فى انها من

عوامل نهضة الأمة ، لما تنتجه من تهذيب النفوس ، ونشاط العقول ، وترقية العواطف ، وتوسيع المدارك ، وتفتح الاذهان الى دقة الملاحظة ، وصواب النظر

والكلام عن الفنون الجميلة يتناول الموسيقى أو الغناء ، والتمثيل ، والرسم والتصوير ، والنقش والزخرفة والعمارة

أما الرسم فقد بدأت المدارس الهندسية والصناعية والبعثات تعنى به من عهد محمد على ، فتخرج فيها طائفة من الرسامين تولوا تدريس الرسم فى المدارس العالية والثانوية ، والابتدائية ، ولكن نهضة الرسم والتصوير لم تنل حظا من الازدهار فى ذلك العهد

وتخرج فى مدرسة المهندسخانة والبعثات مهرة المهندسين فى النقش والبناء ، وتقدم فن العمارة بما أقامه اولئك المهندسون من القصور والمساجد والدواوين والعمائر الجميلة التى تشهد لهم بحسن الذوق والحذق فى هندسة البناء ، وظهر أيضا حذقهم فيما شيدوه من القناطر على النيل والرياحات والترع الكبرى ، فان بعض هذه المنشآت تعد قطعة من الفن

التمثيل والغناء

كان المجتمع فى عصر اسماعيل ميالا الى المرح والحبور ، وكان اسماعيل ذاته طروبا ، محبا للتمتع بالملاهى والمسرات ، وهذه الميول هى غذاء للنهضة الفنية وخاصة الغناء [1] (الموسيقى) ، والتمثيل

أما التمثيل فقد ساعد اسماعيل الناحية الاوروبية منه ، ثم بدت منه التفاتة قليلة الجدوى الى التمثيل العربى ، فأنشأ اول ما أنشأ بالقاهرة مسرح (الكوميدى) بالازبكية ، وكان الشروع فى بنائه فى نوفمبر سنة ١٨٦٧ واحتفل بافتتاحه فى ٤ يناير سنة ١٨٦٨ [2] ، ثم بنى دار الاوبرا سنة ١٨٦٩ لمناسبة الاحتفال بافتتاح

---

(١) الغناء والموسيقى بمعنى

(٢) كتاب (باريسى في القاهرة) للمسيو بريير ص ١١٧
Un Parisien au Caire, par Perrières

قناة السويس ، وتم بناؤها فى خمسة أشهر ، و بلغت تكاليفها ١٦٠ الف جنيه ، ومثلت فيها مساء ٢٩ نوفمبر سنة ١٨٦٩ أول اوبرا واسمها (ريجوليتو) وكانت الامبراطورة اوجينى عقيلة نابليون الثالث فى مقدمة من شهدوا التمثيل فى تلك الليلة ، وعهد اسماعيل الى الموسيقى الايطالى الشهير (فردى) أن يضع أول اوبرا مصرية تمثل بدار الاوبرا ، فقام بهذه المهمة ووضع العلامة الفرنسى ماربيت باشا موضوع الرواية ، وهى رواية (عايدة) ، ومثلت بالقاهرة لأول مرة فى ٢٤ دسمبر سنة ١٨٧١ ، فنالت نجاحا عظيما ، وجلبت الحكومة من ذلك الحين الجوقات الافرنجية وأغدقت عليها الأموال والهبات ، فبلغ ماصرف على أفراد احدى الجوقات فى شتاء سنة من سنى اسماعيل ١٢٠ الف جنيه ، ولا غرابة فى ذلك فان الممثلة الواحدة كانت تأخذ أحياناً الف ومائة جنيه فى الشهر

وانشىء فى الاسكندرية مسرح (زيزنيا) ومسرح آخر اسمه ألفيرى Alfiéri بشارع انسطاسى

وقد وفد على مصر حوالى سنة ١٨٧٦ جماعة من الأدباء والممثلين السوريين ومنهم يوسف خياط ، فمثلوا على مسرح زيزنيا بعض الروايات ، ثم انتقل يوسف خياط بجوقه الى القاهرة سنة ١٨٧٨ ، فلقى تعضيداً من الخديوى اسماعيل ، واذن له أن يمثل رواياته فى دار الاوبرا ، فمثل رواية « الظلوم » وحضرها الخديوى ، فلم يرقه أسلوبها ، وغضب مما تخللها من ذكر الظلم والتعريض بالظالمين ، اذ ظن أنه المقصود بهذا التعريض ، فأمر باخراج الخياط وجوقه من مصر ، فعادوا الى سوريا ، ووقفت النهضة التمثيلية فى عهد اسماعيل عند هذا الحد

الموسيقى (الغناء)

سرت روح النهضة والتجديد الى الموسيقى والغناء ، فقد كان المغنون يتبعون الى ذلك العهد الاساليب والتواشيح القديمة ، حتى ظهر (عبده الحمولى) ، المغنى الشهير ، فألهمته عبقريته الموسيقية إصلاح هذه الاساليب وادخال روح العصر والتجديد فيها



عبده الحمولى

مجدد الغناء فى عصر اسماعيل

ولد عبده الحمولى فى طنطا حوالى سنة ١٨٤٥ ، أى أنه استقبل النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، عصر التجديد الاجتماعى ، فحمل فيه لواء النهضة الغنائية ، وهو ابن تاجر بن فى طنطا ، وكان له أخ أكبر منه سنا ، وكان أبوهما يقسو فى معاملتهما ويسىء اليهما بالضرب والاضطهاد ، فلم يطيقا صبرا على هذه الغلظة ، ففرا من عنده وسارا هائمين فى الارياف ، فساقتهما المصادفة الى رجل يشتغل بالغناء ويعزف على القانون ، فسمع صوت عبده ، فأطربه وأعجب به اعجابا كبيرا ، وعاد به الى طنطا ، وهناك أخذ يغنى معه ، ثم جاء به الى مصر ، فما ان سمعه محبو الطرب حتى اجتذبهم بصوته الجميل ، وظهرت عليه علائم النبوغ الموسيقى ، فترك صاحبه واستاذه القديم ، وانتقل الى مغن مشهور اسمه (الشيخ المقدم) ، فاشتغل على تخته ، وأخذت شهرته تذيع فى الاوساط الاجتماعية ، وبدأ يبتكر أساليب جديدة فى الغناء نالت اعجاب أهل الفن وعشاق الطرب ، وبلغت شهرته الخديوى اسماعيل ، فاجتذبه والحقه بمعيته ، وكان ذلك فاتحة مجده ، اذ أحب فيه الخديوى صوته الجميل ، فاتخذه نديمه فى حفلاته وسهراته ، وأغدق عليه الهبات والعطايا ، واصطحبه فى رحلاته الى

الاستانة ، وهناك التقى عبده بالموسيقيين الترك وسمع ألحانهم ، فاقتبس منها مايلائم الروح المصرية ، وابتكر فى الغناء ألحاناً جديدة هى مزيج من الموسيقى العربية والتركية ، فصار زعيم المجددين فى الموسيقى المصرية ، واستمر يمارس الغناء وينهض بالفن ويطرب الناس طول حياته ، ولا غرو فهو البلبل الصداح الذى كان يحرك أوتار القلوب بصوته العذب ، وألحانه البديعة ، وأنغامه الجميلة ، وقد ظل ثلاثين سنة ونيفا مصدر السرور والطرب ، للافراد والجماعات ، وكان رقيق المزاج ، دمث الاخلاق ، كريم الطباع ، عزيز النفس ، مخلصا لفنه ، ولعا به ، وهذا هو سر نبوغه وعبقريته ، وكانت وفاته سنة ١٩٠١

واشتهر فى عصره بعض السيدات فى الغناء ، منهم (الماس) المغنية المشهورة ، وقد تزوج بها عبده ، ومنعها عن الغناء فى مجالس الناس ، وكانت له من أجل ذلك حادثة استهدف فيها لغضب اسماعيل ، اذ طلب يوما أن تحضر (الماس) الى قصره وتغنى فيه ، فرفض عبده أن تذهب ، فغضب الخديوى ، وأمر باحضارها قوة واقتداراً ، فاستعصم عبده ، وأصر على الاباء ، ووسط الشيخ على الليثى شاعر الخديوى فى الامر ، وانتهت الحادثة بعدول الخديوى عن طلبه

وفى هذا العهد نشأ محمد العقاد ، الموسيقى المشهور ، أقدر من ضرب على « القانون » فى العصر الحديث ، وقد أدرك عصر اسماعيل ، وان كانت شهرته لم تكتمل الا من بعد ، صحب عبده الحمولى ، وحاكاه فى توقيعه وانغامه

وصفوة القول أن عصر اسماعيل كان للنهضة الغنائية عصر الاحياء والتجديد ، وظهر فيه عباقرة الفن ، الذين رفعوا شأنه ، وأحلّوه من النفوس مكاناً علياً .

تم الجزء الاول

ويليه الجزء الثانى

(وفيه ختام الكلام عن عصر اسماعيل)

فهرست الجزء الاول

الفصل الثالث

عصر اسماعيل

الفصل الرابع

قناة السويس ٩٤

الفصل الخامس

السودان فى عهد اسماعيل ١١٠

الفصل السادس

الفصل السابع

الفصل الثامن

الفصل التاسع

فهرست الخرائط والصور

فصول الجزء الثانى من الكتاب


SERAGELDIN
IS00692